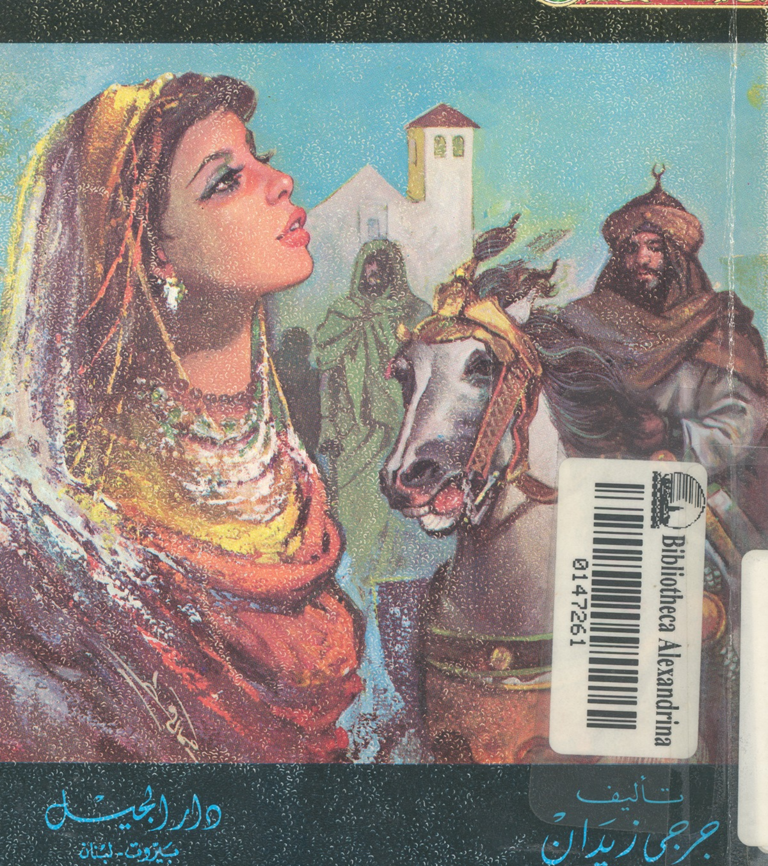
روايات تاريخ الإسلام

فتح الأندلس



تأليف
جرجي زيدان

دار الجيل
بيروت - لبنان

فتح الأندلس

روايات
تاريخ الإسلام

فتح الأندلس

تتضمن تاريخ اسبانيا قبيل الفتح الاسلامي ووصف أحوالها، وفتحها على يد طارق بن زياد، ومقتل رودريك ملك القوط

تأليف
جرجي زيدان

دار الجيل
بيروت - لبنان

الطبعة الثانية

- ١ -

الاندلس احدى مقاطعات اسبانيا ، واسمها في الاصل «وندلوسيا» نسبة الى «الوندال» او «الفندال» وكانوا قد استوطنوها بعد الرومان . فلما فتحها العرب سموها الاندلس ، ثم اطلقوا هذا الاسم على اسبانيا كلهـا .

وكانت هذه البلاد جزءا من مملكة الرومان الغربية الى القرن الخامس للميلاد ، فسطا عليها «القوط» وهم من القبائل الجرمانية الذين رحلوا من أعالي الهند الى اوربا طلبا للعيش والمرعى ، وأقاموا في بواديها .

وقد سيطر القوط على مملكة الرومان الغربية قبل سيطرة العرب على المملكة الشرقية ببضعة قرون وأنشأوا الممالك في فرنسا وألمانيـا وانجلترا وغيرها من دول اوربا الباقية الى الان .

وكان في جملة تلك القبائل قبيلة القوط الغربيين «فيسيقوط» . فسطت على اسبانيا في القرن الخامس وانتزعتها من الرومانيين ، وأنشأت فيها دولة قوطية انتهت بالفتح الاسلامي سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) على يـد طارق بن زياد القائد الشهير .

وكانت عاصمة مملكة القوط في اسبانيا مدينة «طليطلة» علـى

ضفاف نهر التاج في أواسط اسبانيا ، وكانت في ذلك العهد مدينة عامرة، فيها الحصون والقلاع والقصور والكنائس والاديار ، كما كانت مركز الدين والسياسة ، وفيها كان يجتمع مجمع الاساقفة كل عام ينظر في الامور العامة •

وكان ملك الاسبان عام الفتح الملك «رودريك» الذي يسميه العرب «لذريق» ، وهو الذي اغتصب الملك اغتصابا سنة ٧٠٩ م مع انه لم يكن من العائلة المالكة ، مما جعل ابناء الملك السابق ينقمون عليه • وكانت اسبانيا تنقسم يومئذ الى ولايات او «دوقيت» يتولى كل دوقية منها حاكم يسمى الدوق او الكونت ، ويرجعون في أحكامهم جميعا الى الملك المقيم في طليطلة •

وطليطلة واقعة على أكمة يحيط بها نهر التاج من الشرق والغرب والجنوب بما يشبه حدوة الفرس ، ووراءه جبال متسلسلة تحجب الافق عن اهل المدينة ، وفيها مغارس الزيتون وكروم العنب ، وغابات السنديان والصنوبر ، وفي منتصف المدينة الكنيسة الكبرى التي جعلها المسلمون بعد الفتح مسجدا ، وهي من الفخامة والمناعة على جانب عظيم • وكان الناظر اذا القى نظرة على أبنية طليطلة من شاهق تبين فيها من ضروب الابنية مزيجا من الطرز الرومانية والقوطية • وحول المدينة من الشمال ووراء النهر من الجهات الاخرى مغارس الفاكهة والاثمار وسائر اصناف الاشجار ، اذا أطل الواقف من احدى نوافذ منازلها أشرف عليها كلها •



وكان في جملة قصور الملك رودريك قصر شرقي المدينة فوق أكمة تشرف على ضفاف النهر ، تحيط به حدائق واسعة تحوي صنوف الاشجار والرياحين والازهار ، على مرتفعات تتخللها مجاري الماء على غير

نظام مما يزيدها جمالا ، ويحدق بها كلها الا من جهة النهر سور حوله الحراس في منازل بنوها لهم بجانب ابواب البستان .

وكان بجانب قصر الملك قصر صغير متصل به يستطرق الى البستان من جهة وله باب مستقل من جهة اخرى ، وعدة قصور متفرقة في جوانب ذلك البستان ، بعضها للحاشية وبعضها للامراء ، ومن بينها قصر كبير كان يقيم فيه اولاد الدوقات والكونتات حكام الولايات ، جريا على العادة المتبعة عند ملوك القوط في ذلك الزمان . فقد كان من عاداتهم ان يجتمع في بلاطهم في طليطلة ابناء ولاتهم هؤلاء وبناتهم يقيمون هناك ويربون في البلاط الملكي معا . يتعارفون ويتعاشرون فيشبون على ما يرضاه الملك ويتأدبون في خدمته ثم يتزوجون .

ففي صباح الخامس والعشرين من ديسمبر سنة ٧١١ للميلاد كان اهل طليطلة مشتغلين بالاحتفال بعيد الميلاد ، والناس يتقاطرون الى الكنائس والاديار يهنىء بعضهم بعضا ، وأكثر الكنائس ازدحاما في ذلك اليوم الكنيسة الكبرى لان اكبر اساقفة طليطلة يصلي فيها ولان الملك رودريك كان سيحضر القداس بنفسه ومعه حاشيته وكبار رجال دولته ، ولذا غصت الكنيسة على سعتها وامتلأ فناؤها وما جاورها من الشوارع والاسطح بالناس ، على اختلاف الاعمار والاجناس ، تطلعا الى رؤية الملك ومشاهدة موكبه الحافل ، اذ كان لا يزال قريب العهد بالملك وقلما رآه اهل طليطلة من قبل فكيف بأهل المجاورة ؟ فاغتنموا جميعا فرصة ذلك العيد لمشاهدة الرجل الذي اختلس الملك من «غيطشة» ملكهم السابق .

وقد خرجت النساء من بيوتهن لمشاهدة موكب الملك رودريك ، الا فتاة من اهل البلاط الملكي اغتنمت اشتغال الملك ورعيته بذلك العيد لتخلو الى نفسها وتفكر في امرها . وكانت هذه الفتاة من بنات

الكونتات حكام الولايات ، وتقيم في القصر الذي يجمعهن جميعا بجوار قصر الملك ، فنقلها الملك منذ بضعة ايام الى القصر الصغير المتصل بقصره. وهو اكرام حسدها عليه كل رفاقها ورفيقاتها ، ولكنه كان سببا كبيرا في تعاستها وانشغال بالها ، فلما خرج الملك ورجال دولته وسائر اهل البلاط للاحتفال بالعيد اعتذرت هي بانحراف صحتها .

وكان ذلك اليوم صاحيا زاهيا ، يندر مثاله في فصل الشتاء ، وقد أطلت الشمس من وراء الآكام وأرسلت أشعتها على نهر التاج وما على ضفافه من الحدائق وفي جملتها حديقة قصر الملك ، فبخرت ما كان على الاوراق والازهار من الطل ، وكان يوما يحلو للناس الخروج فيه من المنازل الى البساتين لاستقبال أشعة الشمس والتمتع بمناظر الطبيعة . ولذا اغتنمت الفتاة غياب الملك وحاشيته ونزلت تتمشى في طرق تلك الحديقة وقد تدثرت برداء من الحرير الاحمر مبطن بالفرو اتقاء البرد ، غطى أكتافها ومعظم جسمها الا ذيل ثوبها (الفستان) الارجواني المزركش بالقصب فانه ما زال يتلألأ وراءها في أشعة الشمس . وأما رأسها فقد كان مكشوفا وعليه شبكة من الحرير الابيض تضم شعرها الذهبي ضمة واحدة وترسله الى ظهرها مستعرضا كأنها خارجة من الحمام على عادة الرومان التي اقتبسها عنهم القوط في تلك العصور . وكان ذلك الشعر الذهبي يتلألأ من خلال تلك الشبكة خصوصا اذا وقعت عليه أشعة الشمس في اثناء مرور الفتاة بين الاشجار . على ان اكتساءها بذلك الرداء لم يخف جمال قامتها ورشاقة مشيتها . وأما وجهها فقد كان ممتلئا ناصع البياض ، مشربا بحمرة ، يكاد يشف عما تحته ، وقد زاده الانحراف والذبول هيبة وجمالا ، وفيه عينان تجمعان الى الصفاء والزرقة شيئا لا يعبر عنه بغير السحر ، وفم مع صغره لا يبدو الا مبتسما ابتسام الجلال والحشمة .

سارت الفتاة في الحديقة ومعظم اشجارها عار من الورق ، وأكثر رياحينها خال من الازهار ، كأنها تشارك فتاتنا الذبول والانكسار ، بينما كانت الارض وكأنها بساط من العشب الاخضر ، مرصعة ببعض الازهار التي تتفتح في الشتاء . فمشت الفتاة وهي لا تبالي بما قد يعترضها في طريقها من الاغصان المدلاة ، هذا يلطم كتفها وذاك صدرها او رأسها ، وبين يديها امرأة عجوز تحوم حولها وتراعي حركاتها وتزيل العقبات من سبيلها ، وهي ليست أقل منها قلقا ولكن الزمان حنكها ، ومرور الحدثان علمها ان الاحوال لا تدوم على حال !

وكانت الفتاة تمشي وتلتفت نحو القصر ، ثم ترسل نظرها من خلال الاشجار الى ما يطل عليه ذلك البستان من الحدائق البعيدة وفوقها جبال شامخة يعلو بعض قممها ثلج تنعكس عنه الاشعة كأنها جبال من الفضة، والفتاة تارة تنزل في واد وطورا تصعد على تل ، والعجوز تقطف لها زهرة من هنا وثمرة من هناك فتتناولها ولا تتكلم كأنما حكم عليها بالسكوت!

وبعد برهة انتهت الى أكمة منبسطة تطل على النهر ، يكسوها عشب قصير كأنه بساط من الديباج وقد تطاير عنه الندى بوقوع الاشعة عليه، فراق لفتاتنا الجلوس عليه والتعرض لاشعة الشمس التماسا الدفء ، وللتمتع بمنظر السماء الازرق الصافي ، فالتفتت الى العجوز وقالت بصوت مختنق لطول السكوت : «ما قولك يا خالة ؟ ألا نقعد على هذه الاكمة تتمتع بهذا الطقس الجميل ...؟»

فهرعت العجوز وهي تصلح نقابا كانت قد لفت به رأسها وحول أذنيها تجنبا للبرد وقالت : «اقعدي حيثما تشائين يا حبيبتي» . قالت ذلك وأسرعت الى كرسي من خشب كان في بعض طرق الحديقة وجاءتها به فأبت القعود عليه وقالت : «أفضل هذا العشب فان القعود عليه حسن في مثل هذا اليوم !» فقعدت العجوز بين يديها وهي لا تزال تراقب حركاتها،

وقلبها يحوم حولها ، وقد سرها ارتياحها الى مناظر الطبيعة ، فجعلت ترغبها في تسريح نظرها فيما تشرفان عليه من مجرى النهر وما وراءه من التلال التي تكسوها غابات الصنوبر والزيتون والسنديان ، وما يتخلل الغابات من بيوت متفرقة هنا وهناك وهي تقول : «تأملي يا فلوراندا هذه المناظر الجميلة فينشرح صدرك واتركي عنك الاوهام» .

وكانت تلك التعزية سببا في هياج شجون فلوريدا فقالت : «لقد أذكرتني يا خالة بأمر أحاول تناسيه .. كيف ينشرح صدري وأنا فيما تعلمين من انشغال زاده انتقالي الى هذا القصر ..؟»

قالت : «وما يخيفك من ذلك الانتقال وقد اصبحت اقرب الى قصر الملك وأعز جانبا ..!؟»

فقالت وهي تنظر الى اخر ما يقع نظرها عليه من مجرى النهر كأنها ترى قاربا بعيدا : «ان ذلك الانتقال هو الذي اخافني .. ويا ليته نقلني الى أطراف المدينة ، بل يا ليته أرجعني الى والدي !» . قالت ذلك وشرقت بدموعها فاشتغلت عن النظر الى ذلك القارب بما جال في خاطرها من امر والدها وبعدها عنه ووقوعها في ذلك الخطر .

* * *

وكانت العجوز خالة أم فلوريدا ، وقد احتضنتها من طفولتها وربتها في بيت والدها ، حتى اذا آن مجيئها الى بلاط الملك على عادتهم الجارية كلفها ابوها ان تكون معها ، فقضت في عشرتها بضعة عشر عاما ، لم تكن تزداد خلالها الا حبا لها وانعطافا نحوها لما فطرت عليه من الجمال واللطف. فلما رأتها تبكي انفطر قلبها وقالت : «اما الرجوع الى والدك فانه ميسور ، ولكن بقاءك هنا لا ارى فيه بأسا خصوصا لاجل الفونس» .

فلما ذكرت العجوز اسم الفونس ظهرت البغتة على وجه الفتاة وكأنها

كانت في غفلة وأفاقت ، فدق قلبها وصعد الدم الى وجهها فزال ذبول لونها ، ثم تنهدت والتفتت الى العجوز وقالت : «دعيني من الفونس .. حتى الفونس نفسه من اسباب شقائي وقد كنت كما تعلمين أحسبه سبب سعادتي . دعيني ابكي» .

فقالت العجوز : «مالي اراك تحسبين الشقاء محدقا بك من كل ناحية وأنت من أسعد خلق الله ؟ كيف تقولين ان الفونس من اسباب شقائك وهو خطيبك ويتفانى في سبيل مرضاتك ؟»

قالت : «أعلم ذلك وهو الذي يزيد بلبالي ! احبه ويحبني ، ولكن ما الفائدة من هذه المحبة !؟ ان الذنب ذنبك يا خالة .. انت علقت قلبي به ، وكنت خالية لا أعرف القلق . سامحك الله !»

قالت : «لم أندم على ما بذلته من الجهد في تقريب قلبيكما لانكما متناسيان خلقا وخلقا . وأنتما من عائلة واحدة . ولما سعيت في ارتباطكما برباط الخطبة حسبت اني أوصلتك الى أوج السعادة ، لان ارتباطكما براط الخطبة حسبت اني أوصلتك الى أوج السعادة ، لان الفونس كان لا يلبث ان يصير ملكا على اسبانيا كلها فتكونين انت ملكة القوط ، ولم يخطر لي ان يحصل ما حصل من الانقلاب فيسعى اهل المطامع والاغراض في اهلاك ابيه واخراج الملك الى احد قواده» . ولما بلغت الى هنا خفضت صوتها والتفتت الى ما حولها مخافة ان يسمعها احد ثم عادت الى اتمام حديثها فقالت : «فاذا كنت تعدين خروج الملك من يديه شقاء فلا ألومك !»

فقطعت فلورندا كلام خالتها وقالت : «لا لا . ليس ذلك سبب شقائي وانما هو انقطاع الفونس عن المجيء الي .. ها قد مضت اشهر ولم أشاهده ، وأظنني لن أشاهده بعد أعوام خصوصا بعد انتقالي الى هذا القصر ، اعوذ بالله من هذا الانتقال ، ان قلبي يحدثني بسوء سيصيبني

منه ، ولذا ترينني منذ انتقلت اليه وأنا منحرفة الصحة لا يهنأ لي عيش» .
قالت : «اراك واهمة يا حبيبتي فما في هذا القصر الا ما يدعو الى انشراح صدرك . وأما سبب انقباضك فانما هو شوقك لالفونس ، وهذا ما لا ألومك فيه وان يكن معذورا في تغيبه ، لان الملك يراقب حركاته وسكناته خوفا منه ، لعلمه بما اختلسه من قبضة يده !»
وكان القارب الذي وقع نظر فلورندا عليه في اعلى النهر قد توارى بين بعض الصخور ثم عاد فظهر من بينها على مقربة من حديقة القصر . وحالما وقع نظر فلورندا عليه خفق قلبها لانها رأت فيه الفونس واثنين من رجاله ، فلم تعد تعلم ماذا تقول ، واكتفت بالاشارة اليه فاقترب من الضفة ونزل الفونس الى البر ، وأشار الى الرجلين فنزل احدهما ومشى في جهة اخرى وظل الثاني في القارب . وكان الفونس حالما وقع نظره على فلورندا قد سار اليها وعليه لباس القواد الرسمي ، المؤلف من سروال منتفخ قصير مبطن بالفرو الى الركبة ، وحول صدره دراعة مقفلة من الامام ، وفوقها قباء قصير أرجواني اللون وحول خصره منطقة من جلد عريضة ، وعلى رأسه قبعة صغيرة لها جناحان من ريش الطير ومن تحتها شعره الاسود يسترسل الى كتفيه .
وكان الفونس في العشرين من عمره ، ولم يستطل شعر عارضيه وشاربيه بعد . وكان ابيض الوجه اسود العينين ، اذا نظرت في عينيه تبينت فيهما الحب والوداعة مع النباهة ولم تر فيهما شيئا من المكر . وكان قد علق بحب فلورندا مذ كان ابوه على عرش اسبانيا وهو يومئذ ولي عهد المملكة لانه اكبر اخوته . وكانت فلورندا تستبعد حصولها عليه يومئذ ، ولكن خالتها العجوز سعت لدى الملكة والدة الفونس قبل وفاتها بما لها من الدالة عليها بسبب القرابة التي بينهما ، فنجحت وتعلق الفونس بفلوريدا تعلقا شديدا ، وكان يتردد عليها كثيرا ، ويجالسها كل يوم

تقريبا ، ثم انشغل عنها بعد وفاة والده بما انتابه من ضياع الآمال ، فضلا عن ان رودريك الملك الجديد وضع عليه العيون والارصاد ، فخاف المجيء اليها ، ولكنه كان يترقب الفرص لرؤيتها كما كان يسأل عن أحوالها حتى سمع بانتقالها من القصر القديم الى القصر الملاصق لقصر الملك وانها تقيم فيه وحدها ، فهاجت فيه عوامل الغيرة ولم يعد يستطيع صبرا عن مقابلتها للتمتع برؤيتها واستطلاع فكرها ، فاذا رآها لا تزال على عهدها أسرع في عقد قرانه بها ، لانه كان يظنها زهدت فيه بعد خروج الملك من يده.

واتفق احتفال اهل طليطلة بعيد الميلاد في تلك الفترة ، وخرج الملك في موكبه الى الكنيسة الكبرى وألفونس في جملة البطانة ، فخطر له وهو في اثناء الطريق ان يتخلف عن الموكب خلسة ويمضي الى فلورندا ، اذ كان قد بلغه انحراف صحتها فرجح انها لا تخرج الى الصلاة في ذلك اليوم، فاختار المجيء في القارب لئلا يراه احد في اسواق المدينة . وجاء معه في القارب اثنان من خاصته ، فلما نزل الى البر أرسل احدهما لاستقدام فرسه حتى يعود عليه راكبا الى الموكب قبل خروج الملك من الصلاة ، واستبقى الاخر في القارب لعله يحتاج اليه ، ولما وقع بصره على فلورندا لم يتمالك ان اسرع نحوها وهو يثب وثبا !

* * *

اما هي فلما رأته قادما بغتت وظهرت البغتة في عينيها ، وأسرعت دقات قلبها وارتعدت ركبتاها ، وأرادت ان تقف لملاقاته فلم تستطع من شدة التأثر ، وامتقع لونها وشخصت ببصرها اليه وهي لا تصدق انها تراه !. وأما هو فلما دنا منها ولم تقف له ولا رحبت به تحقق عنده ما كان يظنه من زهدها فيه ، وبعد ان كان مسرعا بلهفة المشتاق تباطأ ، وندم على مجيئه وتطفله . لكنه ما لبث ان رأى العجوز تهرول اليه وهي تتعثر

بطرف ثوبها حتى كادت تقع وهي تقول : «اهلا وسهلا بحبيب القلب الفونس» . فاطمأن قلبه ، فمشى حتى اقترب من فلورندا فاذا هي لا تزال جالسة وقد التفت بالرداء ويداها مختبئتان فيه ، حتى اذا وقف بين يديها رفعت بصرها اليه بنظرة خرقت أحشاءه ، وقرأ فيها ما لو كتب على القرطاس لملأ عدة صفحات ! قرأ فيها العتب والتعنيف ، وقرأ الشوق والوجد ، وقرأ فيها الحب والغرام والاستعطاف والاستفهام ، فلم يستطع جوابا على تلك المعاني الا بالجثو على ذلك البساط الاخضر وهو يقول بنغمة المحب الولهان : «السلام يا فلورندا السلام !» . ومد يده وأحنى رأسه كأنه يسألها احسانا فظلت هي شاخصة اليه ، ويداها لا تزالان مختبئتين في ذلك الرداء ، ولبث الاثنان برهة وعيونهما تتخاطب وتتفاهم حتى غلب الدمع على فلورندا فغشي عينيها ، فحجب عنهما وجه الفونس فأخرجت يدها من الرداء لتمسح عينيها ، فسبقها الفونس الى استخراج منديله ومسحهما به ثم مسح به وجهه وتنشق رائحته وتنهد تنهدا شديدا، وأعاد يده فمدها الى فلورندا فلم تمد يدها اليه، ففهم انها تتعمد ذلك دلالا وعتبا فلم ينتظرها ، بل مد يده وقبض على يدها قبضة ارتعدت لها فرائص الاثنين كأنما مستهما كهرباء قوية !

مضت فترة وهما يتخاطبان بالالحاظ ، ولهما من قراءة الافكار ما يغنيهما عن الالفاظ . وكانت العجوز تتشاغل عنهما بقطف بعض الازهار والاستتار بين الاغصان رفقا بعواطفهما واغضاء عما قد يبدو منهما في مثل هذه الحال . وظل الفونس ساكتا وقد عول على الصبر حتى تكون فلورندا البادئة بالكلام ، فقضيا برهة واليد في اليد ، والعين على العين، والقلبان يتسارعان كأنهما يتفاهمان بالخفقان ، وقد غشي الاعين ماء لامع هو من اكبر دلائل الهيام !

ثم فتحت فلورندا الحديث بنغمة الدلال والعتاب قالت : «ما الذي

جاء بك يا الفونس ؟»

قال : «لا أدري ما الذي جاء بي يا حبيبتي . فهل تعلمين انت ؟ اما الذي اعلمه فهو اني أسير هواك ، واني حي برضـــاك ميت بجفاك . حبيبتي فلورندا : هل عندك مثل ما عندي ؟ نعم أعلم انك كنت تحبينني، ولكن هل انت باقية على ذلك او على بعضه ، ام غيرك ما غير أحوالنــا وأضاع آمالنا ؟»

فأدركت انه يشير الى خروج الملك من يده ، فسحبت اناملها من بين انامله بلطف ، وأظهرت انها تحول وجهها عنه ، ونظرها لا يزال ثابتا في نظره كأنها تقول له : «أهذا هو مبلغ علمك بالحب وعواطف المحبين ؟» . ففهم الفونس مغزى تلك الاشارة فقال لها : «لم اكن أشك في صــدق مودتك وقد امتزج قلبانا ـ ولكنني حسبت سوء حظي غيرك ، واني بعد ان خسرت ابي وملكي جرني سوء الطالع الى خسارة ما هو أثمن من ملك العالم كله !» . قال ذلك وقد ابرقت عيناه وانبسطت اساريره ، وهو لا يزال ينظر اليها ويتوقع ان يسمع قولها فعادت الى السكوت ، والتفت بردائها وحولت نظرها الى مجرى النهر وأصغت الـــى صوت هديره . فاستولى على الحديقة سكون لم يكن يتخلله الا خرير الماء وزقزقـــة العصافير ، فلما طال سكوتها بحث الفونس عن العجوز فاذا هي قادمــة وفي يدها بعض الازهار فناداها وهو يقول : «تعالي يا خالة كلمــــي فلورندا ، عساها ان تتعطف علي بكلمة أبرد بها لظى وجدي !»

* * *

وكانت العجوز قد وصلت اليهما فقدمت الزهور الى فلورندا وأجابت الفونس قائلة : «اذا كنت لا تفهم بلا كلام فما انت من اهل الغرام ! أتحتاج مع ما تراه في فلورندا الى ايضاح ؟ وهل تظن ما يليق بالشبان

من التصريح يليق بالفتيات ايضا ؟» • ثم التفتت الى فلورندا وقالت : «هذا هو الفونس ، كلميه واسأليه ، وقد سمعت منك شكا في محبته فهل رأيت صدق قولي في ثباته ؟»

فرفعت فلورندا بصرها اليه وقد اخذ الهيام منها مأخذا عظيما حتى ظهر ذلك جليا فيما اعترى عينيها من الذبول واللمعان . فشخصت ببصرها اليه برهة وهو يكاد يختطفها ببصره وقد نسي مصيبته في الملك وضياع حقه فيه ، وهان عليه ان ترضى عنه فلورندا ولو خسر العالم بأسره ! وفيما هو غارق في تلك الهواجس سمعها تقول : «هل شككت في حبي يا الفونس ؟»

قال : «نعم يا منيتي • والمحب كثير الشكوك !»

فأطرقت وهي تقول : «صدقت ان المحب كثير الشكوك • فقد خامرني مثل ما خامرك كما قالت خالتي ، ولكن ••»

فقطع الفونس كلامها وقال : «لا ارى مسوغا لشكك في . وأنت تعلمين اني متفان في هواك •• وأما انا فيحق لي ان أرتاب في بقاءك على عهدي لما اصابني من نوائب الزمان ؛ فقد كنت ولي عهد هذه المملكة فأصبحت مثل سائر رجالها» •

فلما سمعت ذلك ابتدرته بالجواب قبل استيفاء كلامه قائلة : «لما احببتك يا منيتي انما احببت الفونس ولم احب ولي عهد مملكة القوط• ان الحب لا يعتبر الرتب ولا المناصب ، والقلوب يا الفونس تتعاقد وتتحد ، وهي لا تبصر ولا تقيس ، ولا تكيل ولا تزن • وهي لا تتعارف بالتوصيات ولا تعرف المجاملات ، ولا تفرق بين الحقوق والواجبات •• القلب يا الفونس لا يرى علامات الشرف ، ولا يهوى التيجان ولا يخاف الصولجان •• القلب يا حبيبي لا يهوى الا القلب !»

قالت ذلك وقد توردت وجنتاها وبان الاهتمام في محياها ، وأطرقت

وسكتت وفي ملامح فمها انها لم تستتم الكلام بعد ، فلم يشأ ألفونس ان يقطع سلسلة افكارها فظل صامتا وهو ينظر اليها نظر المستزيد فلما رأته يتوقع كلامها قالت : «على اني آسفة لخروج هذا الامر من يدك ، لا لاني احب ان اكون ملكة ، ولكني ..» . قالت ذلك وغلب عليها الحياء والغضب معا ، فتزايد احمرار وجهها وقطبت أساريرها والتفتت نحو القصر كأنها تخاف رقيبا ، وسكتت . فاشتغل خاطر ألفونس بذلك السكوت وأدرك بعض مرادها . ولكنه تجاهل وقال لها : «ولكن ماذا يا فلورندا يا حبيبتي ؟ قولي ، افصحي !»

قالت وهي تخفض صوتها : «ولكنني لولا هذا التبديل لم اكن أقاسي هذه المتاعب ! لم اكن لاجد نفسي بين أنياب الاسد . وملاكي الحارس بعيد عني !» وخنقتها العبرات ولكنها استمرت في الكلام فقالت: «ولم يكن لهذا المختاس سبيل الى اقلاق راحتي !»

فقطع ألفونس كلامها وقد ظهرت عليه البغتة واتقدت الغيرة في قلبه وقال : «بماذا أقلق راحتك ؟ هل خاطبك في شيء ؟ هل بدا لك منه سوء ؟ اخبريني ، قولي ..»

قالت : «كلا لم يبد منه شيء ، ولكنني لا احسب نفسي في مأمن خصوصا بعد ان نقلني الى هذا القصر ولم أفهم لهذا النقل معنى . ومن هنا كان بقاء الملك في يدك أدعى الى سروري وسعادتي» .

فأدرك ألفونس الامر الذي تعرض هي به مع ما توخته من المبالغة في تلطيف العبارة ، وعلم انها تقرعه لتقاعده عن المطالبة بحقوقه . وكان لا يزال الى تلك الساعة جاثيا بين يديها فلما سمع قولها أحس كأنها صبت ماء غاليا على يديه ، فوقف وقد غلب عليه الهيام وهان عليه كل شيء في سبيل ارضائها وقال : «يحق لك ان تعيريني يا فلوريدا اذا كنت متقاعدا عن هذا الامر ، ولكن لكل أجل كتاب . وقد كنت امسكت عن زيارتك

على ألا ازورك الا بعد ان أحقق رغائبك ، فطال سعيي ولم اصل الى المرغوب فلم أعد اطيق الصبر على بعدك . وقد كنت خائفا من فتورك ولكني رأيت فيك من الثبات في الحب ما زادني ثباتا في مسعاي . فاعلمي يا فلورندا ان ما يتوكأ عليه هذا المختلس من احزاب الروم عصابة ضعيفة ، وانما تسكن الاساقفة من تنصيبه رغبة في خدمة رومية ، ثم ان احزاب المملكة ضده ، وفيهم القوط واليهود وكل من يكره الظلم . وليس هذا محل الافاضة في هذا الشأن ، ولكنني أقسم لك برأس ابي وان كان مائتا .. ان رودريك هذا لا يلبث ان ينزل ويعود الملك الى اصحابه » .

وكانت فلورندا تسمع كلامه وهي تنظر في وردة من ورود الشتاء كانت خالتها قد جاءتها بها . فتشاغلت بنثر أوراقها وهي تصغي لما يقول ألفونس . فلما بلغ الى قوله «ويعود الملك الى اصحابه» رمت ما بقي بين انامها من تلك الوردة . ورفعت بصرها اليه كأنها تتثبت من قوله او تتفهم حقيقة ما يريد ، ففهم مرادها فازداد تهورا في تصوره . وأوهمه غرامه انه قادر على كل شيء فمد يده ومس أطراف شعره المسترسل على كتفيه وقال : «واذا كنت لا تثقين بقولي فاني أشهدك على نفسي وأشهد هذه الخالة ايضا ان بقاء هذا الشعر حرام علي ان لم أف بقولي» .

فتحققت فلوريدا انه يقسم صادقا . ولكنها لم تكن تجهل ما يحول بينه وبين تلك الامنية من العقبات ، فأرادت ان تخفف من عهده فقالت: «لا حاجة بنا الى هذه الاقسام ، لا تعرض نفسك للخطر من اجل الملك فانه مجد باطل . وانما المراد ان نكون معا في مأمن من اهل الاعتداء. ولو في كوخ من أكواخ هؤلاء العبيد الذين يشتغلون في الحرث والزرع ! »

فأراد ألفونس ان يجيبها فسمع صفيرا فبغت ، والتفت فسمع قرع

الطبول وقرقعة اللجم فعلم ان موكب الملك راجع من الكنيسة . وقد وصل الموكب الى القصر وهو لا يزال مستغرقا في حديثه مع فلورندا . فندم وتحقق انه اخطأ ولا بد من ان يسيء رودريك الظن به . ورأته فلورندا قد بغت وسمعت هي مثل ما سمع فأدركت انه ابطأ عن الاحتفال فقالت له : «اذهب الان بسلام وليكن الله معك ..» . فأمسك يدهـا وودعها وهو يقول لها : «ادعي لي فانك من الملائكة ودعاؤك مستجاب واذكريني في صلاتك عساي ان أوفق لمرضاتك» . فأجابته باشارة من أهدابها وحاجبيها . فتحول نازلا نحو القارب ليبعد به عن الحديقة ثم يركب فرسه الى القصر من طريق اخر . وظلت فلوريدا واقفة وهي تشيعه ببصرها حتى توارى فعادت الى هواجسها والعجوز بين يديها . فرجعتا نحو القصر وفلورندا لا تتكلم لعظم ما قام في نفسها بعد ذلك الحديث، وقد ندمت لتعريضها بأمر الملك وخافت ان يجر ذلك الى حبيبها الاذى.

اما رودريك فقد سار بموكبه الى الكنيسة في ذلك الصباح وفي نفسه شاغل من امر ألفونس لانه كان يتوقع ان يراه فـي الموكب بين الحاشية . وكانوا قد زينوا الكنيسة للملك زينة باهرة بالرياحين وأضاءوا الشموع وأوقدوا البخور حتى انتشرت رائحته فيما جاور الكنيسة . وكانت اصوات المرتلين والمصلين تسمع لمسافة بعيدة . والناس يتزاحمون لمشاهدة مركبة الملك حتى كادوا يدوسون بعضهم بعضا . والمطلون من الاسطح والنوافذ اكثر من المارين في الاسواق .

ولما أقبل الملك بموكبه خرج الاساقفة لاستقباله ووراءهم وبين أيديهم الشمامسة والرهبان يحملون المشاعل من الشمع ، وبعضهم يحمل الصليب او الكأس ، وما الى ذلك من شارات النصرانية . فترجل الملك عن بعد وترجل من كان معه . فكان اول من استقبل الملك رئيس الاساقفة محييا، فانحنى الملك على يده وقبلها وقبل صليبا مرصعا كان فيها . ومشوا في

فناء الكنيسة الخارجي والاساقفة ورجال الكهنوت امامهم حتى اقبلوا على واجهة الكنيسة من الغرب فاجتازوا مدخلها ، وهو يتألف من ثلاثة ابواب أوسطها اعظمها ، عتبته العليا بشكل قنطرة مثلثة عليها نقـــوش محفورة تمثل الملائكة وبعض القديسين والانبياء • فمشى الملك وعلى رأسه تاج من الذهب يشبه تاج الرومان وشعره مسترسل على كتفيه وظهره ، وشعر لحيته وشاربيه مسترسل الى صدره . وكل أشراف المملكة بين يديه بالشعور المسترسلة والقبعات المتشابهة ، والكل مبتهجون بما يشاهدونه من الزهو في ذلك العيد • وساروا في صحن الكنيسة بين أعمدة فخمة من الرخام النقي او المرمر ، منصوبة في ثلاثة صفوف من الغرب الى الشرق يزيد عددها جميعا على ثمانين عمودا . وعلو الكنيسة من صحنها الى اعلى قبتها ٤٦ مترا ، وطولها يزيد على مائة متر ، وقد زادها فخامة في ذلك اليوم ما علقوه فيها من الثريات المضيئة بالشموع الملونة والقناديل المنارة بالزيت امام الصور . وقد تصاعد البخور وعلت اصوات المرتلين يتخللها غوغاء الناس بالرغم عن سعي الكهنة في اسكاتهم •

ما زال الملك ماشيا حتى استقر على كرسي خاص به بجانب الهيكل ، واستقر سائر حاشيته في مجالسهم وهم يرسمون علامة الصليب • اما الملك فكان يفعل مثل فعلهم وعيناه شائعتان في حاشيته من الجماهير كأنه يفتش عن ضائع • وكان في كرسي عن يمينه قسيس كان يلازمه دائمـــا فيقيم معه في قصره ، ويصلي له صلاة النوم وصلاة الصبح ، وهو الذي يعرفه ويرشده ويعزيه • وكان الملك لا يذهب في احتفال الا اصطحبه ، ولا يبرم امرا الا بمشورته ، اسمه الاب «مرتين» ، وقد طعن في السن وشاب شعره ، ودق عضله ، وتجعد جلد وجهه ، واستطالت أسرة جبهته ، وغارت عيناه وزادهما ارسال شعر حاجبيه فوقهما غورا واختفاء • وقد تساقطت اسنانه وانخفضت شفتاه حتى اصبح فمه واديا بين جبلين •

وكان في شبابه وكهولته سريع الكلام فلما صار اهتم خالط كلامه تمتمة تتعب السامع في تفهم ما يقول ! ثم هو قصير القامة منتصبها مثل قامة الشبان ، شديد التعلق بكرسي رومية لانه ربي فيها فشب روماني المبدأ والغرض ، ولم يكن يحب جنس القوط على الاطلاق . وكان يحقد على «غيطشة» وأولاده بنوع خاص ، لان غيطشة كان يكرهه لشدة تعصبه لرومية ، فكان لذلك من اكبر المساعدين على تنصيب رودريك ، وكان رودريك لا يقطع امرا الا بمشورته . وكان في جملة مشوراته ان يضيق على ألفونس ولا يسمح بغيابه عن القصر ، وأن يكون دائما بين يديه خوفا من ان ينشىء الاحزاب للسطالبة بالملك .

فلما وصل الملك الى الكنيسة في ذلك اليوم كان اول شيء نبهه اليه «مرتين» ان الفونس لم يكن في جملة فرسان الموكب . فتفرس الملك فيمن حوله فلم يجده بينهم فانشغل خاطره . ولكنه ما لبث ان شغل عن ذلك برسوم الصلاة وما تقتضيه من الانتباه لحركات الكهنة في اثناء القداس . على انه كان يعود برهة بعد اخرى الى البحث عن ألفونس خلسة .

- ٢ -

انقضت الصلاة وخرج الملك الى موكبه ، وعاد الى البحث عن ألفونس فلم يجده ، فركب ودعا الاب مرتين للركوب معه فقضيا مسافة الطريق يتساران في سبب تغيب ألفونس ذلك اليوم . فلما دنا الموكب من القصر رأى الاب مرتين ألفونس مقبلا من ناحيته ، مسرعا على جواده ، وكان

عالما بعلاقته بفلورندا فأدرك انها هي سبب تغيبه ، ولكنه اقتصر على تنبيه الملك الى قدومه •

ولما وصل الملك الى قصره ترجل عند الباب الكبير وصعد بضع درجات عريضة من الرخام تؤدي الى فناء القصر . ثم الى باحة قائمة على أساطين تستطرق الى بهو متفرع يؤدي الى أجزاء القصر المختلفة وفي جملتها قاعة المجلس • فدخل الملك وقسيسه من طريق خاص يؤدي الى تلك القاعة ، ودخل رجال الدولة وفيهم وفود المهنئين من الطريق العام ، فجلس الملك على عرش مرتفع من الفضة قوائمه بشكل قوائم الاسد والملك في الملابس الرسمية وعلى كتفه بردة من الديباج موشاة بالذهب. وعلى رأسه تاج من الذهب مرصع بالحجارة الكريمة . وفي يده صولجان من الذهب ايضا ينتهي بصليب مرصع •

وكان رودريك في نحو الاربعين من العمر . ممتلىء الجسم . بارز الصدر والبطن ، قوي البدن ، تلوح في وجهه امارات البسالة ، عيناه جاحظتان كبيرتان ، وحاجباه غليظان وشعر شاربيه طويل يزيد على طول شعر لحيته ورأسه . فجلس على عرشه وفوق العرش صورة كبيرة تمثل السيد المسيح مصلوبا . وعلى جدران القاعة صور دينية عديدة وجلس بجانبه الاب مرتين . وبين يديه رجال خاصته ، ثم توافد الناس لتقديم التهاني وفي جملتهم ألفونس الذي دخل وحيى الملك وهنأه كما فعل الاخرون ، وجلس في جملة الجالسين . فلما هموا بالانصراف اراد ان ينصرف مثلهم فأشار اليه رودريك ان يبقى . فأوجس خيفة من ذلك الاستبقاء ولكنه صبر ، حتى اذا خلا المجلس ولم يبق في القاعة غير الملك والقسيس ناداه الملك فوقف بين يديه فقال له : «ما الذي أخرك عن مرافقة الموكب في هذا الصباح يا ألفونس ؟»

فبغت ألفونس ولم يكن مستعدا للجواب ، لانه لم يكن يظن الملك

يهتم لغيابه هذا الاهتمام ولكنه تجلد وأجاب : «كنت في شاغل عاقني عن القيام بفروض الصلاة بين يدي جلالة الملك» .

قال الملك : «من الغريب ان يتفق لك هذا الشاغل في تذكار عيد الميلاد ، وفي ساعة خروج الموكب ..!» . قال ذلك ، وحول نظره الى صورة في الحائط تمثل مريم العذراء تحمل طفلها وتشاغل بتمشيط طرف لحيته بأنامله ، فقال ألفونس : «نعم انه اتفاق غريب ، ولكنه وقع ولا حيلة في وقوعه ، واني اتأسف لذلك» .

وكان الاب مرتين في اثناء ذلك مشتغلا بتلاوة بعض الصلوات امام صورة مريم العذراء بصوت منخفض لا يسمعه احد ، ولما فرغ من صلاته عاد وتزمل بردائه وأصلح قلنسوته ، وجلس بجانب الملك وأصغى لما يدور بينهما . فلما رآه ألفونس مهتما بالامر اختلج قلبه لعلمه بما يحمله له من ضغينة . اما الملك فلما سمع الاعتذار لم يقبله ، ولكنه رأى من الحكمة ان يؤجل مناقشته الى ان يقف على رأي القسيس فأراد ان يصرفه ، ولكنه سمع القسيس يقول له : «يظهر ان انشغالك كان في قصر جلالة الملك ، او بجوار قصره» . قال ذلك وتنحنح وتشاغل بمسح فمه بمنديله ، فزاد استياء ألفونس منه ولكنه خاف اذا اجابه ان يصرح بشيء اخر .

وأما الملك فانه توسم في عبارة القسيس شيئا كان يتردد في ذهنه فأراد ان يقف عليه منه على حدة ، فلم يصبر على ألفونس حتى يجيب، بل التفت اليه لفتة الاستخفاف والتهديد والاغضاء معا وقال : «انصرف الآن يا بني ، واحترس ان تفعل ذلك مرة اخرى» .

فأحس ألفونس عند ذلك بفرح سكن له جاشه ، وكأن ثقلا كبيرا نزل عن صدره فتحول نحو الباب ، وخرج وهو لا يكاد يرى شيئا امامه لعظم ما قام في نفسه من اسباب القلق . ولم يكد يخرج من باب القصر حتى

انتبه لنفسه ، وتمثل له مركزه وما آل اليه امره بعد خروج الملك من يده. فقد كان على عهد ابيه اذا مر من هناك تسابق الناس الى تحيته ، ولا يبقى احد لا يقف له . وها هو ذا اليوم يمر والناس يتزاحمون في فناء القصر فلا ينتبه له احد الا الاصدقاء .. حتى هؤلاء اصبحوا يحاذرون الجهر بصداقته خوفا من ان يسيء الملك ظنه بهم !

خرج ألفونس وقد هبت في نفسه عوامل الغيرة ، وكانت ألفاظ فلوروندا لا تزال ترن في أذنيه فتذكر وعده اياها باستعادة الملك فزاده غيظه منه تمسكا بوعده ، فركب جواده وسار توا الى منزله وهو غارق في بحار الهواجس وقد هان عليه ركوب المخاطر في سبيل الانتقام لوالده واسترضاء فلوروندا .

* * *

اما رودريك فلما خرج ألفونس من مجلسه تظاهر برغبته في الاستراحة ، فدخل غرفته الخاصة حيث جاء بعض رجال القصر فنزعوا لباسه الرسمي وألبسوه ثيابه الاعتيادية ، وهو لا يخاطب احدا منهم في شيء لاشتغال خاطره بالعبارة التي سمعها من الاب مرتين عن ألفونس والقصر ! فلما فرغ من لبس الثياب دعا الاب للغداء معه فجاء ، وبينما هما على المائدة لم يخاطبه الملك في شيء لوجود الملكة معهما وهو يحب ان يبعد أمثال هذه الامور عن ذهنها حتى لا تنتابها الغيرة . فلما فرغوا من الطعام قال الملك : «يا أبتاه أطلب اليك بعد ختام المائدة بالصلاة ان ترافقني الى غرفتي ..» ولم تكن هذه الدعوة غريبة على الملكة لان زوجها كثيرا ما كان يخلو بالاب مرتين مثل هذه الخلوة ، للمخابرة او المشاورة او الاعتراف او غير ذلك . فلما خلوا في الغرفة قال رودريك: «ما قولك في صاحبنا اليوم ..؟»

قال : «اذا كنت تعني الفونس فأرى ان جلالة الملك قد بالغ في الحلم والرأفة في معاملته .. كيف يتغيب عن موكب جلالتك لاعذار ما أنزل الله بها من سلطان ؟» . قال ذلك في عجلة ، وبنغمة الاستغراب ، بغية التأثير في الملك . ولو لم يكن رودريك قد ألف لهجته وتمتمته لما فهم منها شيئا !

قال الملك: «ولكنني سمعتك تشير الى عذره اشارة لم أفهمها جيدا !»

فأدرك الاب ان الملك يحتال في استطلاع ما بين ألفونس وفلورندا وهو يتجاهل ويتظاهر بأنه يسأل سؤالا بسيطا . فسايره الاب على فكره وأجابه بنغمة البساطة قائلا : «لم أقل شيئا ، وانما قلت انه تأخر في القصر .. »

قال : «وأي قصر ؟!»

قال : «وأي قصر ؟.. قصر جلالة الملك .. كان مولاي لا يعلم علاقته بذلك القصر ..!»

قال وهو يبالغ في التجاهل : «لا أعلم ان له علاقة بهذا القصر بعد ان خرج الملك من أيديهم الى يدي ..!»

قال : «لا أعني علاقته بالملك .. بل أعني علاقته بفلورندا ابنة الكونت جوليان ، التي أمر جلالة الملك بنقلها الى القصر الصغير منذ بضعة ايام ...»

فلما ذكر اسم فلورندا زفر الملك وخفق قلبه حبا وغيرة ، ولكن أنفة الملك ثبتت عزيمته فتجلد كأن الامر لا يهمه وقال : «أهي علاقة قرابة ؟.. ام ماذا ؟..»

قال : «لا يخفى على جلالة الملك ان بين الكونت جوليان حاكم سبتة والد فلورندا وبين غيطشة قرابة أظنها نسائية ، ولكنني أعني قرابة ألفونس من فلورندا بنوع خاص ...»

قال : «أي قرابة ؟..»

فضحك مرتين وقال : «كنت أحسب الملك عارفا بذلـــك ، لان خطبتهما مشهورة من قبل تولي جلالتكم عرش اسبانيا ..»

فلما سمع رودريك ذلك عظم عليه الامر ، لانه كان يحب فلورنـدا كثيرا ولم يكن يعلم بهذه الخطبة .. ولكنه لم يكن يخاف خروجها من يده اعتمادا على ما له من السيطرة عليها وعلى خطيبها ، وعول على ان يطمعها بالمال والسلطان ، او يتهددها حتى تترك الفونس وتعيش معه . ولم يشأ ان يطلع القسيس على ما يجول بفكره ، فتظاهر باقتناعه بهذا الجواب ووقف ، فأدرك القسيس ان الملك يريد الانصراف فوقف هو ايضا وانسحب ...

وكان بين غرفة الملك والقصر الذي تقيم فيه فلورندا ممر ليس من سبيل اليه سواه . فقد بني على هذه الكيفية لمثل هذه الغاية . فعـول رودريك على مكاشفتها بحبه لعلها تقلع عن محبة ألفونس . ولم ير ان يستقدمها الى غرفته لئلا تشعر الملكة بذلك وهو انما ينوي معاشرتهـا خفية عنها ، فأغلق الباب المستطرق الى قصره وفتح الباب المؤدي الى قصر فلورندا ...

وكانت فلورندا بعد ذهاب حبيبها قد انتقلت هي والعجوز مـن الحديقة الى القصر وأخذ الهيام منها مأخذا عظيما ، ولكنها لم تلبث ان انشغلت بمراجعة ما دار بينها وبين ألفونس في ذلك الاجتماع فندمت لما فرط من أقوالها المهيجة له على طلب الملك ، وعمدت الى الخلـوة بنفسها لعلها تهتدي الى ما يخفف هواجسها ، فدخلت غرفتها وكانت تلك الغرفة تطل على الحديقة من جهة نهر التاج وتحجبها عنه شجرة من شجر اللوز قد تعاظمت أغصانها وتشامخت ، حتى اصبحت فلورندا اذا جلست الى نافذتها لا ترى النهر الا من خلال الاغصان التي كانت قد تجردت في ذلك الفصل من أوراقها ، فما كادت ترسل نظرها خلالها الى النهر وما

وراءه حتى رأت القارب قد بعد عن المكان فأرسلت أفكارها في فضاء الهواجس •

اما العجوز فانها تحولت الى أيقونة بجانب سرير فلورندا فيها صورة المسيح مصلوبا فجثت امامها وقبلتها وجعلت تقرع صدرها وتطلب الى المسيح ان يحفظ الفونس ويوفقه ، ويتم له الزواج بفلورندا ، ولما فرغت من صلاتها قبلت الصورة وخرجت ، تاركة فلورندا في هواجسها ، وأغلقت الباب وراءها ، وأوصت الخدم ألا يقربوا الغرفة لئلا يزعجوها • على ان الخدم لم يكن يؤذن لهم بالصعود الى الطبقة العليا من ذلك القصر ، بل كانوا يقيمون في الطبقة السفلى ، فاذا ارادت فلورندا حاجة بعثت اليهم مع العجوز •

واستغرقت فلورندا في هواجسها امام النافذة حتى نسيت نفسهـــا وتعبت من التفكير ، ثم أحست بالنعاس فاتكأت على سريرها وهي لا تزال في الحالة التي قابلت بها ألفونس ، فرأته في منامها قادما نحوها ووجهه يطفح نورا وأحبت ان تقبله فلم تستطع ، فانزعجت ، وأفاقت وهي منقبضة النفس • وبينما هي تمسح عينيها لتتحقق انها في المنام سمعت وقع خطوات ، فنظرت فاذا بالعجوز داخلة من الباب وفي وجهها علائم الخوف ، فجلست فلورندا وقد بغتت وقالت : «ما بالك يا خالة ! ما وراءك ؟ »

قالت : «ما ورائي الا الخير •• لا تضطربي !» وسكتت •

فازداد قلق فلورندا وصاحت بها : «ماذا جرى هل اصاب ألفونس سوء ؟! »

قالت : «معاذ الله •• ولكن الملك يدعوك اليه» •

فلما سمعت ذلك اضطربت جوارحها ، ونسيت هواجسها ، وتشاءمت من تلك الدعوة وقالت : «اين هو ؟ وما الذي يبغيه مني ؟»

قالت : «لا ادري يا سيدتي ، ولكني كنت في غرفتي أصلح بعض شأني فرأيت الملك بنفسه داخلا دخول السارق فبغت لرؤيته . فسألني عنك وطلب الي ان ادعوك الى الغرفة الشمالية من هذا القصر ، على ان تأتي حالا بالحالة التي تكونين فيها !»

فوثبت فلورندا من فراشها وقد تحققت وقوع الخطر الذي كانت تخافه ، ولكنها اعتمدت على الله وثبتت جأشها ودنت من الايقونة فقبلتها، وصلت الى الله ان يشجعها وينقذها من مخالب الشرير ، وطلبت الى خالتها ان تصلي عنها ايضا ، ثم التفت بالرداء كما كانت ومشت وهي تتوسل الى الله من أعماق قلبها ان ينجيها من هذه التجربة ــ ولا يرتاح المرء في مثل هذه الحالة الا بالتوسل الى القوى العلوية غير المنظورة !

مشت فلورندا كالذاهب الى القتل ! فلا غرو اذا اصطكت ركبتاها وارتعدت مفاصلها وودت ان تكون تلك الغرفة على مسافة أميال منها .. على انها تشجعت باتكالها على الله حتى اذا دنت من الغرفة سمعت وقع خطوات ، واذا بالملك قد خرج لاستقبالها الى الباب وهو يبتسم لها ويرحب بها ، وقد خيل له ان ابتسامته ستجعلها طوع ارادته ، وانه يكفي ان يظهر ارتياحه لمجالستها لتتفانى هي في ارضائه !

اما هي فدخلت الغرفة بخطوات ثابتة ، والانفة والعفة يتسابقان الى قلبها ، والغضب والخوف يتجليان في وجهها ، وهو يسير بين يديها حتى جلس على المقعد ودعاها للجلوس الى جانبه ، فقالت وأمارات الحشمة والرزانة بادية في محياها : «لا يليق بمثلي ان تجلس في حضرة الملك».

فقال وهو يضحك : «اجلسي يا فلورندا ، فاني لم أدعك الي لاحملك مشاق التجمل ولكنني اردت ان ألاقيك وأنت في راحة وسعادة . اجلسي» .

قالت : «العفو يا مولاي ...»

فقطع كلامها وأمسك بيدها وأجلسها ، فأحست لما لمست يدها يده كأن شيطانا يمسها ، فأجفلت ، وجذبت يدها من يده ، وجلست وهي تحاذر ان يلمس ثوبها ثوبه ، فأحس رودريك باجتذاب يدها وكان قد شعر بلمس تلك اليد عكس ما شعرت هي به ، فشق عليه ما بدا من نفرتها ولكنه حمله منها محمل الحياء فابتسم وقال : «لا ألومك يا فلورندا لما يبدو في وجهك من البغتة اذ تقفين لاول مرة بين يدي ملك الاسبان ، ولكن اعلمي يا ملكة الجمال اني لم آت اليك بنفسي الا لادعوك الى السعادة . ولا أريد ان تخاطبيني كما تخاطبين الملك ، بل خاطبيني كما تخاطبين رجلا يحبك ويهواك ، ويريد ان يجعلك أسعد فتاة في هذا العالم ! »

فلما سمعت فلورندا قوله تحققت قصده ، ولكنها احبت التخلص منه بالحسنى فوقفت وهي تقول : «حاشا لمثلي ان تكون غير خادمة حقيرة بين يدي ملك الاسبان الذي يتمثل الناس بشدة بطشه ..!»

فقطع كلامها وقال : «وما يمنع ان تكوني حبيبتي ايضا ؟ بل ان تكوني مولاتي ومالكة زمامي وزمام مملكتي ؟!» . قال ذلك وقد ثارت عواطفه واحمرت عيناه ورجفت شفتاه وهو يحاول التلطف بالكلام والاشارات ، ولكن الخشونة ما زالت غالبة على لفظه وخلقه !

فقالت : «كلا يا مولاي لا يمكن ان اكون كذلك . وأرى جلالة الملك قد فرط فيما وفق اليه في دنياه فان هذا الموقف لا يليق بمثلي !»

فظنها لا تصدق عظم محبته لها ، وانها تخاف ان يكون عاملا على مخادعتها ، فوقف هو ايضا وقال : «يظهر لي انك لم تصدقي قولي .. ويحق لك ان تستغربي ما يبدو من تفريطي .. ولكنني أعترف لك يا فلورندا انك قد ملكت قلبي وروحي ، وتسلطت على كل جوارحي ، فتعطفي علي وتلطفي بالقبول» .

قال ذلك وهو ينظر اليها وقد انحنى نحوها انحناء المتذلل المستعطف وبسط يديه وهما ترتعدان من شدة الهياج .. اما هي فلم تعبأ بهذه الظواهر الخادعة فظلت على هدوئها وثبات جأشها وقالت بصوت هادىء: «أقبل ماذا ؟»

فتوسم من سؤالها قرب قبولها فقال : «ان تكوني شريكة حياتي فتعيشين معي عيش السعادة والرفاء ، وتكونين انت الآمرة الناهية» .

فنظرت اليه نظر التوبيخ والاحتقار وقالت : «وجلالة الملكة ؟!»

وكانت تلك العبارة أشد وقعا من الصاعقة على رأسه ولم يكن يتوقع تلك الانفة من فلورندا ، لانه لم يكن يعرف قيمة العفة ولا يدرك قيمة الحرية الشخصية ، ولذلك كان يظن نفسه اذا ابتسم لفلورندا ابتسامة ترامت عند قدميه وسلمت نفسها له ، وقد فاته ان العفة أثمن مما في خزائن الملوك ، وأسمى مما على عروشهم ، وأرقى مما تبلغ اليه مدنيتهم، بل هي سيف قاطع تقف به الفتاة امام الملوك وتحسب انها اقوى منهم سلطانا وأعز شأنا ! ولذلك كان موقف فلورندا بين يدي رودريك موقف الملك امام الملك ، ولم يكن تواضعها في اول الامر الا رغبة في التخلص بالحسنى ، فلما رأت استرساله في القول أجابته بكلمة اضطربت لها كل جوارحه ، كلمة ذكرته ارتباطه بزوجته الرباط المقدس الذي لا يجيز له مخاطبة سواها بمثل ذلك ...

فساءه ان تخجله بتلك العبارة لما تتضمنه من التوبيخ والتعنيف ، ولكنه تجاهل مرادها وظل على أسلوبه بالملاطفة فقال : «يا للعجب من جهالتك وغرورك ..! ادعوك الى السعادة والشرف ، وأمهد لك الطريق اليهما وأنت تقيمين العقبات ؟! ألا تعلمين يا فلورندا ان الامر الذي ادعوك اليه ليس في هذه المملكة ولا في غيرها فتاة الا وتنذر النذور للحصول عليه ؟! تعقلي ، وارجعي الى رشدك ، واعلمي انك ترفضين

سعادة لا ينالها الا القليلات ، وشرفا تتطاول اليه أعناق ربات الحجال !
وهل تجهلين انك اذا أطعتني تنالين عزا لم يحلم به احد من اهلك ، وانك
اذا ظللت على غيك اسأت الى ابيك ؛ لانني اذا رأيت منك الرضاء بما
عرضته عليك جعلت والدك من اقرب المقربين من البلاط ؟!»

فلما سمعت قوله لم تصبر عن الغضب وأحست بسلطان لها يفوق
سلطانه فخاطبته بما لا يخاطب به الملوك وقالت وهي تشير باصبعها الى
نفسها : «تزعم يا رودريك انك تدعوني الى السعادة والشرف ، وأنت
انما تدعوني الى الشقاء والدناءة ؟ انك بمخاطبتك اياي بهذا القول ولو
تلميحا قد أهنتني واستصغرتني . بل انك بتوهمك قبولي ما تعرضه
جعلتني أدنى خلق الله !.. فأقلع عن ذلك ودعني وشأني ؛ فانك صاحب
عز وسلطان ، ولك الرقاب والاموال ، وأما انا فليس لي الا هذه
الجوهرة .. أفتسلبني اياها ..؟ وهل تظن انك اذا اردت ذلك
تستطيعه ؟!» . وارتعشت يدها وارتجفت شفتاها وابيضتا من شدة
التأثر فاستطردت قائلة : «كلا لا يستطيع احد ان يسلبني هذه الجوهرة؛
فانها أثمن من خزائن العالم بأسره .. وهي سلاحي وترسي ودرعي ، وهي
سبيلي الى السعادة الابدية !»

فعظم على الملك ما سمعه من توبيخها حتى رقصت لحيته في صدره،
ولكن هيبة الحق وسلطان العدل غلبا على غضبه فلم يجسر على اهانتها .
على انه لم يقطع الامل في قبولها فأراد مطاولتها بأن يخلط الجد بالهزل
فقال : «وهل ذلك الغلام أحق بك مني ؟»

فلم يزدها قوله الا عزيمة وثباتا ، وقد ادركت انه يريد الحط من قدر
ألفونس فقالت : «مهما يكن من امره فانه نصيبي في هذا العالم ، وهو
خطيبي بشرع الله» .

فازداد استغرابا لجسارتها وحدثته نفسه ان يجافيها ويستخدم

القسوة في معاملتها ، ولكنه أجل ذلك الى فراغ جعبة حيله من اقناعها بالملاطفة فقال لها : «يظهر يا فلورندا ان صغر سنك لا يزال غالبا على عقلك ، ولولا ذلك لم تفضلي غلاما لا شأن له ولا مقام على ملك ملوك الاسبان ! ولكنني أعذرك على طيشك ؛ وأبيح لك التفكير في امرك حتى ترجعي الى صوابك ، ولا ترفضي النعمة التي ابذلها لك .. فلا تضيعي هذه الفرصة بما تتمسكين به من الاوهام الباطلة والاعتبارات الفارغة.. وهذا اخر ما ابذله لك من النصيحة .. فتدبري امرك» .

فلما رأت ان التوبيخ لم يجد معه نفعا عمدت الى اقناعه بنفس برهانه فسكنت اضطرابها وقالت بنغمة التعقل والرزانة : «يقول جلالة الملك اني أتمسك بالاوهام الباطلة والاعتبارات الفارغة . فما قوله اذا علم ان جلالة الملكة تراود شابا عن نفسه . وتطلب اليه ان يعيش معها ويكون شريك حياتها ..!؟ »

فلما سمع رودريك قوة حجتها مع ما في ذلك البرهان من التحقير له هاج غضبه ، ولاح له ان يستخدم العنف في اقناعها . وهم ان يأمر بالقبض عليها وتعذيبها لعلها ترعوي عن تمسكها بألفونس . لانه ظنها لم ترفض الا لاغترارها به وتوهمها فيه القوة او الثروة ، وما زال يعتقد انها اذا تحققت فقر ألفونس وضعفه تتركه وتطلب الكفة الراجحة ، فلا ترى افضل لها من ملك الاسبان .. وانما توهم رودريك ذلك لانه لا يفهم معنى الحب الطاهر ولا يدرك منزلة العفة الحقيقية . وما درى ان القلبين اذا تعاقدا كانت السعادة كلها في تعاقدهما دون ان يكون للغنى او الشرف دخل في ذلك ، وتوهم ايضا انه اذا حقر ألفونس في عيني فلورندا يزهدها فيه فجاءها من هذا الباب وسكت عما سألته عنه من حيث امرأته فقال : «ألا تعلمين يا فلورندا ان ألفونس من بعض أتباعي ، وان زمامه في يدي افعل به ما شئت ؟! يظهر انك لا تعلمين ذلك .. واملك

لا تزالين على ما كنت تعلمينه قبل خروج الملك من يده ...»

لم يكن ذلك الطعن في ألفونس الا ليزيدها تمسكا به وتفانيا في محبته ، ولكنها خافت اذا أجابته جوابا عنيفا ان يغضب عليه ويعمل على ايذائه . فأحبت ان تقنعه باللطف لعلها تخفف من غضبه . ريثما يفتح الله عليها بالفرج فقالت : «اذا صح ان الانسان لا يجب ان يحب غير الذي يكسبه مالا او شرفا ، فما الذي حبب جلالة الملك في هذه الفتاة الحقيرة حتى اراد ان يجعلها سيدة اهل عصرها كافة ؟ واذا كانت القاعدة ان نهمل الفقراء وألا نحبهم فما أجدر مولاي الملك بأن يرذلني ويطردني من حضرته لاني لا أعد شيئا بجانب سلطانه ورفعة مقامه !.. فأرجو مولاي ان يفعل ذلك فانه أولى بمنصبه وأحفظ لكرامته ..» قالت ذلك وقد توردت وجنتاها من عظم تأثرها وهياج عواطفها واصطكت ركبتاها حتى لم تعد تستطيع الوقوف . ولكنها تجلدت وتشاغلت بملاعبة أطراف جدائلها بين اناملها ولبثت تنتظر جواب رودريك الذي تبين رباطة جأشها وقوة حجتها فرأى ان يأتيها بالحيلة ويترك العنف الى ما بعد فراغه من الحيل .. ذلك انه لما آنس تمسكها بألفونس وتعلقها به تبادر الى ذهنه ان ابعاده عنها يغيرها ويحملها على قبول سواه ، فتظاهر بأمر طرأ على خاطره بغتة فقال : «لا ازال أعتقد اغترارك بالوهم . وقد طرأ علي امر يستعجلني الى القصر الان وما ذاك الا من حسن حظك ، لاني اترك لك بذلك فرصة تعملين الفكرة فيها لعلك ترجعين الى رشدك . فاذا لم ترجعي بعد هذه الفرصة فلا تلومي الا نفسك !» . قال ذلك بلهجة شديدة ومشى حتى خرج من الغرفة وترك فلورندا وحدها .

اما هي فقد سرها هذا التأجيل لعلها تجد سبيلا للنجاة . فمشت نحو غرفتها وقد فاضت أشجانها وعاد اليها الخوف وتزايد اضطرابها ، فلقيتها العجوز بباب الغرفة فابتدرتها بالسؤال عما جرى فلم تجبها ولكنها ظلت

سائرة حتى اقبلت على أيقونة المسيح فجثت امامها وقرعت صدرها وقد خنقتها العبرات ، وتحول تجلدها ورباطة جأشها بين يدي رودريك الى الحزن والكآبة ولم تر لها فرجا بغير البكاء فجعلت تتضرع الى صاحب تلك الايقونة بدموع حارة ، وبعبارات صادرة عن قلب طاهر يتدفق محبة وتقوى .

فلما رأتها العجوز جاثية جثت الى جانبها وصلت معها وكلما قالت فلورندا عبارة أمنت العجوز لها . وكان في جملة صلاتها قولها : «ابعد عني ايها المخلص هذه التجربة ، وغير قلب هذا الملك ليرجع الى طاعتك ويشعر بفظاعة الامر الذي هو عازم على ارتكابه .. ارشدني يا رب الى سبيل انجو به من هذه الاشراك .. واحفظ عبدك الفونس من كل شر ، واحرسه ، وكن معه .. واجمعنا ايها المخلص لنعيش معا بتقوى اللـــه ومرضاته .. تحنن على هذه المسكينة الغريبة .. هذه الفتاة التعسة التي ليس لها ملجأ سواك .. انت ملجأ البائسين والضعفاء .. لا تسمح يا رب بوقوع هذا الشر في تذكار ميلادك المجيد ..»

وكانت كلما قالت عبارة تقرع صدرها وخالتها تقول : «آمين» وهما تذرفان الدموع الثخينة . فلما فرغتا من الصلاة نهضتا ، وأحست فلورندا بانبساط نفسها وارتياح ضميرها ، وشعرت كأن الاخطار قد زالت عنها وقد ألقت متاعبها عند الله .. ومثل هذه الراحة لا يشعر بها غير اهل الايمان الوطيد . فان احدهم اذا أحدقت به مصائب العالم تحملهـــا بالصبر ، وأذهب آثارها بالصلاة . والبكاء من اقوى مذهبات الانقباض . فكثيرا ما يشعر الانسان بضيق فاذا بكى زال ذلك الضيق . ويغلب هذا الشعور في النساء اكثر مما في الرجال .

فلما زال اضطراب فلورندا جلست تفكر في سبيل نجاتها واستغرقت في الافكار والعجوز جالسة القرفصاء تنظر ما يبدو منها .

- ٣ -

فلنترك فلورندا في تأملاتها ولنرجع الى ألفونس ، لنرى ما كان من امره بعد ذهابه الى منزله . ولم يكن منزله بعيدا عن قصر الملك ، فلما وصل اليه ترجل وسلم الجواد الى بعض الخدم وهم بالدخول ، فأحس بشيء استوقفه فوقف لحظة ثم دخل حتى اتى غرفته . فرأى خادمه الخاص واقفا ببابها ينتظر قدومه ليبلغ اوامره الى من يريد .

وكان ذلك الخادم كهلا قصير القامة ، جاحظ العينين ، أعقف الانف. بارز الذقن ، ذا لحية قصيرة منفصلة الى شعبتين مخروطتي الشكل ، بارزتين نحو الامام ، دب الشيب في طرفيهما ولا يزال اصل اللحية عند الذقن اسود او هو كستنائي اللون .. وكان اسمه يعقوب . ولم يكن له عناية بتسريح شعره فكان الاهمال ظاهرا في لحيته حتى لقد تحسبها جذاذة نعجة تلبد صوفها وتشبك ثم نبشت أطرافها ! على ان وجه الرجل كان على الاجمال مضحكا لبروز الانف وجحوظ العينين وبروز اللحية على تلك الصورة . وكان مع ذلك كثير الحركة خفيف الروح لا ينفك وجهه ضاحكا . وكان قد ربي في بيت غيطشة قبل تملكه ، فلما ملك قربه منه وكان يثق به ويعهد اليه بأموره ويسر اليه كثيرا من آرائه ، وأهل القصر يحسدونه على ذلك التقرب خصوصا لانه غير قوطي ، لم يكونوا يعرفون اصله ولا كيفية وصوله الى ذلك المنصب ! حتى اذا ما دنا أجل غيطشة اوصى اولاده به وأوصاه بهم ، خصوصا ألفونس ، فقد اوصاه بالاعتماد على يعقوب في كل مهماته . وكان ألفونس قد تعود احترامه والوثوق به من عهد والده ويعقوب يتفانى في خدمته . وقد لا يظهر لمن يراه لاول وهلة انه ذو رأي او همة لما يبدو في وجهه من ملامح المجون مع خفة الروح ، ولكنه كان في مقام الجد من أكثر الناس جدا وهمة !

فلما وصل ألفونس الى غرفته استقبله يعقوب ضاحكا وفتح له الباب فدخل دون ان يكلمه على خلاف عادته من ممازحته ومداعبته . فأدرك يعقوب انه في شاغل مهم فوقف لا يخاطبه في شيء لئلا يعترض مجاري افكاره او يثقل كلامه عليه .. اما ألفونس فأول شيء فعله عند دخوله الغرفة ان خلع قبعته عن رأسه . ونزع سيفه وعلقه على الحائط ، وجلس على كرسي من الخشب بجانب نافذة تطل على مغارس طليطلة عن بعد . وأرسل بصره في ذلك الفضاء وما زال النهار صاحيا والجو صافيا .. لبث برهة لا يتكلم ثم التفت بغتة وصاح : «يعقوب !» فاذا هو بين يديه . فقال له : «هل جاء عمي الى هنا في اثناء غيابي ..؟»

قال : «كلا يا مولاي انه لم يأت .. ألم تجده في الكنيسة ..؟»

فتذكر ألفونس الصلاة فتبادر الى ذهنه ان عمه كان في جملة المصلين لانه مطران (متروبوليت) ولكنه عاد فتذكر انه بالنظر لما بين عائلته وبين عائلة الملك من التباعد سار للصلاة في كنيسة اخرى . فقال ليعقوب : «أتظنه سار الى الكنيسة ؟ ولماذا لم تذهب انت للصلاة ايضا ..؟ »

قال : «كنت مشتغلا بأمور البيت .. وقد صليت هنا .. ألا يكفي ذلك ؟.. »

قال ألفونس وكأنه تذكر امرا كان قد ذهب عن خاطره : «سامحني فاني نسيت وصية والدي ألا اسألك عن الصلاة .. ما رأيك في عمي المطران ؟ اني في حاجة اليه» . قال : «مر ، وأنا أستقدمه على عجل ولو كان في رومية !» . قال ذلك وتبسم فأدرك ألفونس انه يلمح الى ما بينهم وبين رومية من التنافر . فاستحسن منه هذا المجون وقال له : «لا أظنه بعيدا بهذا المقدار .. الي به» .

فخرج يعقوب الى غرفة الخدم فبعث خادما يفتش عن المطران في

الكنيسة وآخر يفتش عنه في بيته ، وثالثا في مكان آخر من مظانه ، ورجع وهو في شاغل من امر ألفونس ولكنه لم يتجاسر على استطلاع امره •
فلما وصل الى الغرفة أخبر ألفونس بما فعله وظل واقفا وهـــو يلاعب أطراف لحيته بين اصابعه وينتظر امره ، فلم ينتبه ألفونس له لاستغراقه في هواجسه ، وقد تزاحمت الافكار في مخيلته وأكثرها بروزا امر الملك وكيف استبد رودريك فيه واستخف به ، وكيف انه بعد ان كان مطمح أنظار وجهاء المملكة اصبح مثل أحقرهم •• وفكر في وسيلة لانتزاع الملك منه فاذا هو قاصر من كل وجه . لا مال عنده ولا رجال . ولا شـــيء يقاوم به • ثم تذكر فلورندا وانه عاهدها على اخراج الملك من يــــد رودريك ، فكيف يرجع عن عهده عاجزا مقهورا ؟! فتجسم لديه المصاب وثقل عليه الفشل ، وندم على ما فرط منه بين يدي حبيبته من القسم ، فضاق صدره ، وصغرت نفسه ، وغلب عليه اليأس . فتناثرت الدموع من عينيه بالرغم منه والدمع يفرج الكرب حيث لا يرى المرء مخرجا مـــن ضيقه !

وكان يعقوب ما يزال واقفا فسمع تنهد الفونس ، ثم لحظ من بعض الحركات انه يبكي ، فأدرك انه يفعل ذلك وهو يحسب نفسه في خلـــوة فانسل دون ان يشعر به الفونس حتى جلس على كرسيه بجانب الباب . وقد اشتغل خاطره بألفونس فعزم على استطلاع امره من المطران بعـــد مجيئه وقد كانت له عليه دالة كبرى •

ومضت برهة ثم عاد احد الرسل وأنبأ يعقوب بقدوم المطران ، فتذرع بذلك لمخاطبة ألفونس فدخل عليه وأخبره بقدوم عمه • وكان ألفونس قد فرغ من بكائه وذهب بعض انقباضه ، فلما علم بقدوم عمه لم يسعه الا الابتسام لشدة ما كان له من الثقة فيه لاشتهاره بسداد الـــــرأي والتعقل ، مع محبته لالفونس •

وكان اسمه أوباس (عباس) وهو طبعا مثل الفونس يعتبر رودريك مختلسا ، وكان قد بذل جهده في عدم انتخابه فلم يفلح . لان حـــزب الاساقفة الرومانيين غلب على رأيه ، ولانه المطران الوحيد من أمـــة القوط ، بينما سائر اساقفة طليطلة من الرومان او الذين ينتمون لرومية، ولذلك غلب رأيهم .. وكان أوباس منذ تولي رودريك معتزلا الاعمال الا عند الضرورة . وكان في ذلك اليوم قد صلى صلاة العيد في منزله، ثم خرج بعد الصلاة للجلوس في حديقة المنزل لانه لم يكن يطيق ان يرى رودريك في ذلك الموكب بدلا من ابن اخيه . فلما جاءه الرسول يدعوه الى الفونس لبس رداءه وقلنسوته وجاء مسرعا .

وكان أوباس حيوي المزاج . طويل القامة طويل الاطراف ، عريض المنكبين والجبهة بارز الوجنتين والفكين ، واسع الصدر ، اسمر اللون، غزير الشعر ، خصوصا شعر لحيته فقد كان مرسلا على صدره الى اسفل منطقته . وأصحاب هذا المزاج في الغالب اقوياء الارادة مع علو الهمـة وقوة البدن وعظم الهيبة . وهم كبار في كل شيء مارسوه من الحرب او التجارة او السياسة ، لانهم يمتازون غالبا عن اصحاب الامزجــــة الاخرى ويفوقونهم في كل شيء . وكان اوباس مع ذلك بطيء الخطوات كثير التفكير ، قليل الكلام جهوري الصوت ، وكان قوله سديدا ورأيه صائبـا .

وبعد قليل سمع الفونس خطوات عمه وكان يعرفها ببطئها وثباتها وشدة وقعها فوقف لاستقباله ، فلما دنا من باب الغرفة تقدم اليه وقبل يده فباركه ، وتقدم يعقوب فقبل يده فباركه وهو يبتسم له مع انه كان قلما يبتسم لاحد ، ثم دخل الغرفة مع الفونس الذي اسرع باغلاق الباب التماسا للخلوة ، فنزع المطران قلنسوته فاسترسل شعر رأسه الى كتفه وكان غزيرا جدا ولم يوخطه الشيب مع انه في نحو الخمسين من عمره.

ونظر أوباس في وجه الفونس فرآه يبتسم ، ولكنه تبين الدمع في عينيه وأثر الانقباض في أسرته فأثر منظره في نفسه فقال له : «مالـــي اراك كاسف البال يا بني ..؟»

فلم يتمالك الفونس من ارسال دمعتين أخريين وهو لا يزال مبتسما ولكنه تجلد وقد ارتاح لرؤية عمه فقال : «لا أظنني اشكو اليك امرا لا تعرفه .. بل أظنك تشكو مثل شكواي ايضا ..»

فقال : «فهمت مرادك يا ولدي .. ولكن هذا الامر الذي تشكو منه قد اصبح قديما فلا بد من امر حدث لك وجدد احزانك» .

قال : «صدقت يا عماه .. وأما ما جدد احزاني فوقوفي بين يدي ذلك الوحش الكاسر في هذا الصباح وقفة خادم بين يدي سيده .. وقفت وقد استصغرت نفسي حتى حسبتني ذبت حياء ، ولا ادري ماذا كان يصيبني لو طال وقوفي .. ولما خرجت من القصر رأيت رجـــال الحاشية لا يعبأون بمروري بعد ان كانوا اذا مررت يتسابقون الى تقبيل يدي ..! »

فقال أوباس : «وما الذي دعا الى وقوفك هذا الموقف وعهـــدي برودريك قلما يدعوك اليه ؟!»

فقال : «لاني تأخرت عن موكبه في هذا الصباح ، فلم أدركه الا وهو راجع من الكنيسة» .

قال : «ما كان أغناك عن هذا التأخير فلم تكن تسمع تعنيفا ولا تتحمل ملاما حتى يقضي الله امرا كان مفعولا .. وما الذي أخرك عن الاحتفال؟»

فلم يخجل الفونس ان يقص على عمه سبب تأخره لان عمه مطلع على ما بينه وبين فلورندا من المحبة المتبادلة ، وهو الذي وضع عربون الخطبة بينهما فقال له : «سبب تأخري اني زرت فلورندا في هذا الصباح بعد ان طال غيابي عنها . وأنت تعلم انقطاعي عن ذلك القصر وضواحيه منذ ابتليت

بمصيبة ابي . وكنت أحسب فلورندا تغيرت فزرتها لاتحقق امرها فطال الحديث حتى نسيت الموكب ، فلم أتنبه الا وهم عائدون من الكنيسة ، فأسرعت للانضمام اليهم ولم اكن أظن الملك يرقب حركاتي الى هذا الحد. فلما دخلت عليه استبقاني الى ما بعد خروج المهنئين وعنفني تعنيفا لم يكن شديدا في ذاته ، ولكنه وقع على رأسي وقوع الصاعقة ..»

قال ذلك وكاد يشرق بدموعه ، فلم يبال أوباس بهذه الدموع لاستصغاره مثل تلك الظواهر — ظواهر الضعف البشري — بل ظل ساكتا في انتظار بقية الحديث . اما الفونس فلما رأى عمه لا يزال مصغيا له استطرد الكلام فقال : «ومما زادني قهرا ان ذلك القسيس الهرم كان يحاول ايقاعي في الشرك حتى نبه رودريك الى علاقتي بفلورندا ... وكنت اقرأ سوء القصد خلال عينيه الغائرتين ، ومن وراء ألفاظه المختلطة ... »

قال : «اراك يا الفونس متهيج العواطف كثيرا ولا فائدة من ذلك .. ولا عبرة بلفظ تسمعه او اشارة تراها . فانها حركات طائرة في الهواء . وما هي من الحقيقة في شيء .. فخفف عنك وارجع الى صوابك . وابحث في الامر بحثا معقولا » .

فعجب الفونس لقول عمه ، وشعر بصغر نفسه وضعفه ، ولكنه لم يستطع امتلاك عواطفه فقال : «وكيف لا نعبأ بالاقوال .. وكيف استطيع الصبر على الاهانة والاحتقار ؟! أترضى يا عماه ان نكون أرقاء لذلك المختلس ؟!» . قال ذلك والحدة بادية في صوته ، فأجابه أوباس بصوت هادىء : «لا» .

قال : «فكيف تقبل هذه المعاملة وتقول انها حركات طائرة في الفضاء؟ انني لا استطيع الصبر على ذلك .. ان الموت لخير من الحياة مع هذه الاهانة ! »

فقال أوباس : «لا اقول ان الاهانة حركات في الهواء ، ولكنني ارى الكلام الصادر عن الحدة والغضب بلا روية ، أشبه بحركات طائرة في الهواء لا فائدة منها ..»

فخجل الفونس من ذلك التوبيخ اللطيف ولكنه ظل مندفعا في تيار العواطف فقال : «أتلومني يا عماه على غضبي وقد قتلوا ابي واختلسوا ملكي . ثم ضيقوا علي في ذهابي ومجيئي كأني بعض عبيدهم !؟ ماذا تريد ان أفعل بعد ذلك ..؟»

قال وصوته لم يرتفع : «أريد ان تنظر في الامر بعين العقل وبالروية، لان الحدة تذهب الرشد وتسوق الى الخطأ . وربما يخيل لك اذا رأيت هدوئي وصبري اني أقل منك استنكافا من أحوال هؤلاء . ولكنني أفكر كثيرا وأقول قليلا .. وسترى متى سكن جاشك ودار الحديث بيننا اني قضيت العامين الماضيين وأنا اسعى في الامر الذي لم يخطر ببالك الا اليوم .. وأنت انما ذكرته على أثر انفعالك وغضبك ، بعد ان لاقيت خطيئتك وعنفتك على ضعفك . وأما انا فاني لا أندفع بالغضب ، ولا اغضب للكلام الفارغ . ولكني انظر بعين الحقيقة .. فقد كنت أتوقع منك هذه الحمية في اول يوم خرج فيه الملك من يدك ، بقطع النظر عما يلحق بك من الاهانة ، او ما قد تسمعه من التعريض او التوبيخ ..!»

فلما سمع الفونس كلام عمه تهيب واتعظ لما آنسه فيه من الرزانة والجد وقوة العزيمة ، وشعر بصغر نفسه لما تحمله من الضغط في السنتين الماضيتين دون ان يشكو فأراد ان يصلح ما بدر منه من دلائل الضعف فتحمس وقال :

«لقد أصبت يا عماه .. اني تهاونت في هذا الامر ولم اكن احسبك على هذا العزم ، اما الان فأشر علي . أشر علي بالذي أفعله لاسترجاع ما اختلسه هذا الرجل منا» .

وكان أوباس منذ شرع في هذا الحديث قد اخذت علامات الانقباض تبدو في محياه فازداد هيبة وجلالا ، واستغرق في الافكار وقد ارسل بصره من النافذة الى الفضاء ، فكان الناظر في وجهه يتبين استغراقه في الهواجس من ثبات بصره على لا شيء ، كأنه ينظر الى صور تمثلت في مخيلته منها المخيف المغضب ، والمفرح المنشط .. وكانت ظلال تلك العواطف تتجلى في عينيه البراقتين . ولو احسن الفونس الفراسة لقرأ افكار عمه في عينيه وأسرته ، وكفى نفسه مؤونة الاستشارة والمداولة . ولكنه لم يكن على شيء من ذلك فلما فرغ من كلامه صبر لسماع ما يقوله عمه ، فاذا هو ما زال غارقا في الهواجس وهو يلاعب اطراف جدائل شعره بأنامله كأنه لم يسمع شيئا من ابن اخته . فتهيب الفونس منظره، ولم يجسر على ان يشوش عليه افكاره فظل صامتا .

مضت لحظات قليلة وكلاهما صامتان ثم فتح أوباس الحديث فقال : «هل ادركت يا الفونس المشروع العظيم الذي تعرض نفسك له وما هو الامر الذي تطمح أنظارك اليه ..؟»

قال : «كيف لا ..؟ اني ألتمس امرا هو حق لي لا ينازعني فيه احد» .

قال : «فهمت ذلك .. ولكن هل دبرت الطريقة التي تستطيع التغلب بها للقبض على ازمة الاحكام ..؟»

قال : «أعرض لديك رأيي وأنت صاحب الرأي» .

قال : «قل» .

قال : «لا يخفى على عمي العزيز ان القوة التي ساعدت رودريك على تسنم ذروة الملك انما هي قوة الرومان خصوصا الاساقفة . وأما رجال القوط اهلنا وعشيرتنا فانهم لا يريدونه ، وهؤلاء جماعة كبيرة اذا اتحدوا هم ورجالهم وأتباعهم تألف منهم جند كبير يغلب جند رودريك ، فلا يصعب علينا اذ ذاك اخراج الحكم من يده ، اما بالتنازل واما بالقتال» .

فابتسم أوباس ابتسامة مغتصبة دلت على استخفافه برأي ذلـــك الشاب قليل الاختبار ثم قال : «صدقت يا ولدي ان القوط اكثرهم على دعوتنا ، ولكن هل تظنهم اذا دعوتهم الى الحرب ينهضون ؟ لا اظـــن شكواهم من هذا الملك تخرج عن حدود الكلام . ولا لوم عليهم ، فهم يخافون على أرواحهم وأموالهم ، على ان اكثرهم لا يرون بأسا من بقاء رودريك وغيره من صنائع الرومان لاشتراكهم معهم في المذهب ، فانهم جميعا تابعون لكنيسة رومية ، وقد تغلب الاساقفة الرومان على آرائهم وعلى قلوبهم كما تغلبوا على حكومتهم ، حتى نسوا جنسيتهم» .

وكان أوباس يتكلم بصوت هادىء وتأن ولم يبد الهياج في عينيه الا لما وصل الى هذا القول ، على ان الرزانة ظلت غالبة على حركاته . ولكنه سكت هنيهة وألفونس ينظر اليه ويتوقع اتمام الحديث ، فقال أوباس وهو يجدل شعر لحيته بين انامله على سبيل التشاغل : «سامح الله ريكارد ، فانه هو الذي جر علينا هذا البلاء !»

فلم يفهم الفونس معنى هذا الكلام ، اي ان ريكارد احد ملـــوك القوط وكان من رجال الحرب والسياسة ، حكم اسبانيا زمنا طويلا في أواخر القرن السادس للميلاد .

فقال : «ما الذي ارتكبه ريكارد يا عماه حتى استوجب هذا الملام ، والذي اعلمه انه هو الذي حفظ لنا مملكة الاسبان ودفع الافرنـــج (الفرنك) عنها ؟»

قال : «صدقت يا ولدي انه نجانا من الفرنك ، ولكنه القانا فيما هو اعظم خطرا منهم» .

قال : «وما هو ذاك ؟»

قال : «ألا تعرفه ؟ ألا تعرف ان ريكارد هو الذي اضاع جنسيتنا ، وحل جامعتنا ؟!»

ولم يفهم الفونس مراده فقال : «لا يا مولاي ، فكيف كان ذلك ؟»

قال : «ألا تدري يا الفونس ان ريكارد هو الذي جعل مذهب كنيسة رومية (الكاثوليكية) مذهب حكومة اسبانيا ؟»

قال : «نعم . ألا تظنه فعل حسنا ؟»

قال : «نحن الان على مذهب هذه الكنيسة ايضا ، وقد ربينا في حبها ولا بأس منها . ولكنني انظر في الامر من وجهه السياسي . انظر فيه من حيث جامعتنا القومية . فقد جاء أسلافنا القوط منذ بضعة قرون ، وكانت هذه البلاد في حوزةالرومان فانتزعوها من أيديهم بالقوة وتسلطوا عليها . ولا يخفى عليك ان مذهب أسلافنا الذي جاءوا به الى البلاد ليس الكاثوليكية مذهب كنيسة رومية ، بل هو المذهب الاريوسي نسبة الى آريوس الشهير . وكان ذلك مذهب معظم قبائل القوط قبل خروجهم على المملكة الرومانية ، ففتحنا هذه البلاد وقضينا فيها نحو مائتي سنة ونحن على مذهب آريوس ، وأهل البلاد على مذهب كنيسة رومية .

«ولا اخفي عليك ان ملوكنا الاقدمين لم يهتموا بنشر مذهبهم ولم يفقهوا علاقة الدين بالسياسة ، ولكن الرومان لم يغفلوا عن اغتنام الفرص لاسترجاع سلطانهم بطريق الدين ، فجعلوا يتدخلون في مصالح الدولة رويدا رويدا ، ويبثون مذهبهم في الرعايا بوسائل مختلفة حتى تولى ريكارد المذكور منذ قرن وبعض القرن ، فاستولوا على عقله حتى نبذ ديانة أجداده واعتنق المذهب الكاثوليكي وجعله مذهب الحكومة الاسبانية ، فاقتدى به رجال دولته وسائر أشراف المملكة ، فتم النفوذ لرومية حتى اصبح مجمع الاساقفة الذي يجتمع في هذه المدينة يدير دفة الملك كما يشاء ، وربما اتوا بالاوامر من رومية نفسها . وما زالت الكاثوليكية ديانة هذه المملكة الى اليوم ، ولم يبق للاريوسية الا أثر قليل جدا . ولا ريب عندي ان الذين استبدلوا الكاثوليكية بمذهبهم

في اول الامر انما صنعوا ذلك مسايرة لريكارد لا عن اقتناع بالبرهان ، لان مذهب آريوس اقرب الى أحكام العقل من سائر مذاهب النصرانية» .

فلما وصل أوباس الى هنا أحس بأنه أفرط في الكلام بين يدي ذلك الغلام ، وقد تحقق تفريطه مما بدا في وجه الفونس من دلائل الاستغراب لما غرس في ذهنه منذ طفولته من تقبيح الآريوسية ، حتى انه كثيرا ما سمع تقبيحها من عمه نفسه . وأدرك اوباس ما جال في خاطر ابن اخيه فاستدرك قائلا :

«لا يغرب عن ذهنك يا ولدي اني لا أحبب اليك الآريوسية دون سواها ، فاننا لا نفضل مذهبا على مذهبنا الحالي ، ولكنني أخاطبك بلسان السياسة لا الدين ، لابين لك نتائج الخطأ الذي ارتكبه ريكارد سامحه الله . لانه باعتناقه المذهب الكاثوليكي اضاع الجنسية القوطية — لان الدين يا عزيزي اثبت الجامعات وأشملها . اذ قد يجتمع القوطي والفندالي والروماني واليوناني والسكسوني والعربي وغيرهم في بلد وهم أخلاط ، فاذا تمذهبوا بمذهب واحد ضاعت جنسياتهم الاصلية بتوالي الازمان وصاروا أمة واحدة !

«وهناك جامعة اخرى ربما كانت مثل جامعة المذهب ، أعني بها جامعة اللغة . فهذه ايضا شاملة ولكنها في الغالب تابعة للدين . ألا ترى اننا بعد ان اعتنقنا المذهب الكاثوليكي اصبحت اللغة اللاتينية هي المتغلبة في كنائسنا ومجالسنا ، لانها لغة ذلك المذهب ، وأخذت لغتنا القوطية في الانقراض او الضياع .؟ فلو ظللنا على الآريوسية واستبقينا لغتنا وعممناها في الشعب وحولنا اهل هذه البلاد عن مذهبهم الكاثوليكي الى مذهبنا الآريوسي ، لكانت لغتهم لغتنا ، ومذهبهم مذهبنا ، وصاروا من أنصارنا . ولكننا غفلنا عن ذلك فانعكس الامر ، وأصبح اولئك الرومان بعد ان أخرجونا من مذهبنا ولغتنا يحاولون اخراجنا من سلطتنا بما

اكتسبه الاساقفة الرومانيون من النفوذ في أمور الدولة ، حتى لا ترى في اوربا كلها مجمعا دينيا له على حكومة البلاد من النفوذ مثل ما لمجمع طليطلة على حكومة اسبانيا !

«وأول من أحس بهذا الخطر من ملوك القوط والدك طيب الله ثراه، فانه سعى في انقاذ حكومته من نفوذ رومية حتى لقد سمعته يصرح برغبته في الخروج من مذهبها او سلطانها الكنائسي ، وكان معظم اساقفة اسبانيا ممن تثقف في رومية وأشرب حبها وحب أسقفها الاكبر ، فأكبروا غرض والدك وما لبثوا ان انفذوا أغراضهم التي اتحاشى التصريح بها لانها تؤلمني كما تؤلمك ، ونصبوا رودريك هذا وهو روماني الغرض وان ادعى انه قوطي الاصل . وكان ذلك افسادا لما كان المرحوم والدك قد أسسه» .

* * *

وكان الفونس يسمع هذا الكلام باصغاء وقد التذ بسماعه لذة عظيمة لما آنسه فيه من الفلسفة والحكمة مما لم يكن يخطر له من قبل . فلما بلغ الى خروج الملك من ابيه لم يتمالك ان سأل قائلا : «كيف استطاع هؤلاء تولية رودريك وأبناء غيطشة أحياء ..؟»

قال : «حجتهم في ذلك ان حق الملك عندنا انتخابي وليس وراثيا . اذ لو كان وراثيا لكنت انت أولى الناس بهذا الامر . على ان كونه انتخابيا لا يقضي بحرمانك منه ، وكان يجب ان ينتخبوك لانك ابن الملك ، وقد فعلوا ذلك غير مرة . ثم لولا ما ظهر خلال انتخابهم رودريك هذا من الاغراض القومية التي مرجعها ضياع جنس القوط قاطبة لما شق ذلك علينا» .

ثم استأنف أوباس الحديث كأنه أفاق من غفلة وقال : «اراني خرجت من دائرة الموضوع الاصلي . وخلاصة ما قدمته لك ان الذين تمذهم

قوطا وترجو ان ينصروك في قيامك ضد هذا الرجل ، قد ضاعت جامعتهم الجنسية في الجامعة الدينية واللغوية ، فربما كانوا اقرب الى نصرته منهم الى نصرتنا ، فمثل هؤلاء لا يعتد بأقوالهم ، ولا يعتمد على احزابهم» .

فلما سمع الفونس نتيجة البحث خاب امله ، لانه انما كان يتوقع شد أزره بأهل عترته . فلما تحقق ضياع امله أحس بضعف عزيمته ، وظل مطرقا لا يبدي حراكا ولسان حاله يقول : «عجزت عن الحيلة !»

فلما رآه اوباس مطرقا ادرك ضعف عزيمته فأراد ان يسبر غوره فقال له : «كأنك يئست من النجاح ؟»

قال : «كيف لا أيأس وقد فرغت يدي من الرجال فضلا عن فراغها من المال ، ولم يكتف هؤلاء باختلاس الملك ولكنهم اخرجوني منه صفر اليدين . فهل تعلم الى اين ذهبوا بأموال والدي ؟!»

قال : «ان أموال والدك قد أخذت بحق ، لان الملك رسيسويت الذي تولى هذا العرش منذ نحو ستين سنة سن قانونا يقضي برجوع أموال الملك وكل ما يقتنيه الى خزانة المملكة ، فلا ينبغي لنا ان نبالغ في القاء التبعة على عدونا بالباطل . اما السبيل الى بلوغ منانا ، فاذا ظننت قد فرغت يدك من الحيل فأخبرني لابدي رأيي ، وأرجو ان يكون سديدا» .

فاستغرب الفونس تنازل عمه بهذه العبارة ، وأشار بيديه وعينيه معبرا عما عجز لسانه من تفويض كل الامر الى عمه ، لانه اكبر عقلا وأوسع اختبارا . فأصلح أوباس مجلسه استعدادا لحديث طويل ، والتفت الى ما حوله كأنه يحاذر ان يسمعه احد وان كان على ثقة من انفرادهما هناك . ثم وجه كلامه الى الفونس قائلا :

«اعلم يا بني ان الانسان اذا عزم على امر فلا بد له من النظر في عواقبه قبل الاقدام عليه ، والا كانت العاقبة وخيمة . انت تعلم ان الناس في اسبانيا طبقات منها : طبقة الاشراف ، وهم أرباب الاموال والمناصب،

ومنهم حكام الولايات وحكام المدن وأصحاب العقارات وغيرهم ، ومنها رجال الاكليروس ، ومنها طبقة المستخدمين وهم رجال البلاط وخدمة الحكومة ، ومنها اهل الحرف وهم من أواسط الناس وسكان المدن . وهناك الخدم والعبيد وهم كل ما بقي من اهل المملكة . ولا يخفى عليك ان هؤلاء هم القسم الاكبر ومنهم حراث الحقول وخدمة المنازل ومعظم رجال الحرب . فاذا شئنا ان ننهض لانتزاع الحكم من هذا الرجل فلا بد لنا من الاستعانة ببعض هذه الطبقات . فلنبحث في أيها اقرب الينا» .

«ان الاشراف اما رومانيو الاصل ، او قوطيون . فالرومان طبعا ضدنا . وقد بينت لك حال القوط فهم قد اضاعوا قوتهم في مذهبهم الجديد . فالاشراف لا فائدة لنا منهم . وكذلك اهل البلاط . اما الاكليروس فأنت تعلم انهم علة هذا التغيير . وأهل الحرف بالنظر الى اقامتهم المستطيلة في المدن قد اضاعوا الحماسة اللازمة في مثل هذه النهضة ، زد على ذلك ان كلا منهم مشتغل بعمله وتجارته ويخاف ضياع أمواله القليلة ، اذ لا يخفى عليك ان بلاد اوربا كلها تقريبا مؤلفة من المدن والحقول . فأهل المدن لا يكادون يهتمون بما هو خارج مدنهم، وكل مدينة تهتم بنفسها ، ونحن لا يكفينا القيام بأهل مدينة واحدة لان رودريك صاحب جنود وأعوان ، وسيستنجد بحكامه في الولايات . فنذهب ضياعا .

«بقي علينا النظر في الطبقة الاخيرة من هذا الشعب وهي طبقة الخدم والعبيد ، فهؤلاء هم الجانب الاكبر ولا تستغني عنهم سائر الطبقات ، ومع ذلك فانهم مستبدون فيهم استبدادا عظيما . ولا يخفى عليك ان معظم هؤلاء العبيد انما دخلوا في الرق على أثر الحروب ، وهم رجال أشداء خصوصا بعد ان تعودوا العمل وعانوا الشقاء لاشتغالهم في الحقول . فان عقارات الاشراف وبيوتهم وأموالهم كلها في قبضة هؤلاء

العبيد ، ومع ذلك فانهم مظلومون يقاسون من أسيادهم عذاب الـــذل ـ وناهيك بعذاب الرق ـ وأنت تعلم ان هؤلاء الارقاء لا ينقصون عن أسيادهم شيئا من المواهب الطبيعية ولكنهم تعودوا الخضوع لهــــم والخوف من اصواتهم . حتى اصبحوا أطوع لهم من أيديهم . فكل ما للعبد فهو لسيده . لا يقدر ان يعمل عملا الا بأمره حتى الزواج !. وكل ما اكتسبه العبد بالقصد او بالاتفاق او بالتجارة او بالحرب ـ حتـى اولادهم ـ فانها كلها لسيده الذي له ان يبيع العبد او امتعته او اولاده بدون معارض !

«على ان اولئك الاسياد قد ينعمون على بعض عبيدهم بالحرية مكافأة على عمل عظيم صدر منهم . غير ان هذه الحرية قلما تمتاز من الاستعباد فان المعتق لا يزال تحت امر سيده . فان عمل عملا فلسيده نصف مـــا يكسبه من ذلك العمل . وان اراد ان ينتقل من خدمته وجب عليه ان يرد له كل ما معه من الاسلحة او الاثاث . ولا يعد ذلك المعتق من زمرة الاحرار الاصليين الا في الجيل الرابع من اولاده .. ولست اطيل الكلام عليك لانك تعلم كثيرا من أفعال هؤلاء الارقاء . ولكنك قلما فكرت فيما يقاسونه من الخسف والظلم ، وربما لم يخطر لك انهم من جبلة مثل جبلتنا . ولا لوم عليك لانك شببت وأنت تراهم على هذه الحال» .

* * *

فلما بلغ أوباس الى هنا وقف وتنحنح ، وتفرس في الفونس ليرى أثر اقواله فيه فرآه منصتا بكل جوارحه لسماع ما يقوله عنه ، فعاد أوباس الى حديثه فقال : «فالامر الذي أوجه التفاتك اليه يا ولدي ان اقوى طبقات الشعب هم اولئك الارقاء المظلومون ، وهم اكثر عددا وأقــوى أبدانا وأصبر على الشقاء ، فاذا اتخذناهم أعوانا لنا في هذه النهضة قلبوا

المملكة رأسا على عقب . وقد لا نحتاج الا الى تظاهرهم بالقيام ، واذا اتحدوا أرعبوا الملك وحكامه وأشراف مملكته فننال المراد بلا حرب ولا سفك دماء . ولكن ما الذي يجمعهم ، او كيف يمكننا ان نجعلهـــم حزبا لنا ؟»

وكان الفونس يتطاول بعنقه لسماع حديث عمه وقد رأى الصواب باديا في كل كلمة من كلماته ، لكنه لم يكن يتوقع منه هذا الاستفهام ، ولذلك ارتبك في الجواب !. اما عمه فانه لم يطرح السؤال عليه لاستماع الجواب ، ولذلك عاد يقول : «اعلم يا بني ان الوسيلة التي يجب ان تتخذها لجمع كلمة هؤلاء الآدميين المظلومين تحت لوائنا انما هي من افضل الوسائل وأشرفها ، بل هي فضيلة تبقى لنا ذكرا مدى الدهـــور ويحسدنا عليها كل من ملك هذه البلاد قبلنا . وننال عليها الجزاء الحميد من الله سبحانه وتعالى . أتعلم ما هي ؟»

فلم يهتم الفونس بالجواب هذه المرة ، لان ملامح عمه كانت تشير الى ان الجواب آت . ثم قال أوباس : «ان الوسيلة يا بني لجمع كلمة هؤلاء انما هي ان نهبهم الحرية ونجعل لكل من ينضم الينا منهم حقا في نيل حريته بعد أجل معين ، واذا نال تلك الحرية كان كسائر الاحرار مرة واحدة لا يقاسمه احد في أتعابه او مكاسبه ، على ان يكون ذلك مرتهنا برجوع الملك اليك، وانك متى توليت عرش اسبانيا هويت الاعناق، وسهلت الطريق اليه على كيفية ترغب اولئك المظلومين في نصرتك» .

فسحر الفونس بما سمعه من عمه ، وأحس بما بينهما من التفاوت في المدارك والقوى ، وخيل له ان الامر قد تم له ما يروم حتى اصبح كأنه يرى زمام الملك ويهم بالقبض عليه !. ولم يكن الفونس بليد العقل الا بين يدي عمه ، وذلك لما له من السلطان على عقله ورأيه ، فلم يتمالك ان تناثرت من عينيه دمعتان من دموع الفرح وانحنى على يد عمه ليقبلها ،

فاجتذب أوباس يده وهو لا تهزه عاطفة فرح ولا غضب ، ولكنه اطلق ضحكة اصطنعها ، ثم القى يده على كتف الفونس وقبض عليها بقوة . فأحس هذا بشدة تلك القبضة ، وتوقع ان يسمع شيئا بعدها ، فاذا بأوباس يقول : «رأيتك اقتنعت بما سمعته ولم تعمل فكرتك للبحث فيما يحول دون عملنا هذا من الحواجز !»

* * *

فأجفل الفونس وخاف ضياع آماله بعد ان اوشك ان يعتقد نيل بغيته ، وفكر فيما عسى ان تكون تلك الحواجز التي قد تقف في سبيل ذلك المشروع . ولكنه قبل ان يهتم بالجواب سمع عمه يقول : «لا أظنك تجهل ما يحتاج اليه مشروعنا هذا من الاموال للانفاق على الجند ، وابتياع الاحزاب ، وانشاء المعاقل واغراء الاعداء» .

فلما سمع الفونس ذلك عاد الى اليأس لعلمه بخلو يديه ويدي عمه وسائر اهله من مال يكفي لهذا العمل . واستغرب اغتراره برأي عمه الاول وتخيله وصوله الى الغرض المقصود مع ان مسألة المال لم تكن لتخفى عليه ، وقد كان قبل هنيهة يشكو الى عمه خروجه بعد موت ابيه صفر اليدين ! على انه انما اغتر بذلك لشدة اعتقاده — منذ طفولته — بسداد رأي أوباس ، لانه ما برح منذ كان يدب ويحبو يرى عمه يأتي الى ابيه بلباس الكهنة ، والكل يحترمون رأيه ويهابونه فشب على الاستسلام له ، فاذا قال اوباس قولا سلم هو به واعتقد صوابه بلا روية ولا تبصر .. وكذلك كان شأنه معه فيما دار بينهما في ذلك اليوم ، فلما سمع الفونس ذكر المال تحقق انهم يتداولون عبثا ولم يتمالك ان بدا اثر القنوط في وجهه فظل ساكتا وفي سكوته ما يغني عن الجواب !

اما اوباس فلما رأى ابن اخيه قد سقط في يده وضاقت المذاهب عليه،

ابتسم ابتسامة اخرى وقال : «هل يئست يا الفونس ؟» ما أسرع ما ترجو وما أسرع ما تقنط ! » لا تيأس يا بني اني لا ادع ثقتك العمياء في عمك تذهب هدرا • واني لم أقض هذين العامين نائما • نعم اني أخاطبك على سبيل المداولة ولكنني في الحقيقة اعرض عليك مشروعا رتبته وسبرت أغواره ودبرت كل شؤونه ، ولولا ذلك لم ارض بالخوض فيه معك !»
قال ذلك ونهض ، فنهض الفونس معه وهو لا يدري معنى ذلك النهوض، ولكنه اصبح لا يطيق صبرا عن سماع تتمة الكلام ليرى ما دبره عمه من الوسائل للحصول على المال • على انه لم يجسر على سؤاله فظل صامتا في انتظار الجواب • اما أوباس فانه تناول قلنسوته ووضعها على رأسه، فظنه الفونس يهم بالخروج ، ولكنه ما لبث ان سمعه ينادي «يعقوب»• وما عتم ان رأى يعقوب داخلا يهرول ولحيته وأنفه يسبقانه حتى وقف بين يدي اوباس وفي وجهه ابتسامة تدل على ما في نفسه من الاطمئنان• فلما دخل جلس أوباس وأشار الى الفونس ان يجلس ففعل ، ثم قال ليعقوب : «اجلس» •

فأظهر يعقوب البغتة وقال : «حاش لي يا مولاي ان أجلس بين يديك او يدي سيدي ، (وأشار الى الفونس) وانما يكفيني ان تأذن لي في الوقوف » •

فضحك أوباس ـــ ويندر ان يضحك لغير يعقوب ـــ ومد يده اليه حتى أمسك باحدى شعبتي لحيته وشده بلطف حتى أقعده على طنفسة في ارض الغرفة ، ثم تظاهر بالاجفال وأرجع يده ومسح أطراف انامله بمنديله وهو يقول : «متى تغسل هذه اللحية يا يعقوب ، أما آن لك ان تغتسل ؟! »

فلما سمع يعقوب ذلك السؤال تبدلت سحنته بغتة ، وذهبت عنها ملامح المجون وبدا الجد في عينيه وقال : «سيادتكم أعلم مني • ولكنني

ارجو ان يكون ذلك قريبا !»

فلم يفهم الفونس معنى هذا الجواب ، خصوصا بعد ان رأى دلك التغير في وجه يعقوب ، ولكنه صبر ليرى ما يبدو منه فسمع عمه يقول: «وأنا ارجو ذلك ايضا . ولكن غسل لحيتك يا صاح يكلف نفقات طائلة، فهل تدفعها ؟!»

قال : «نعم اني لا أدخر مالا ولا ولدا ولا نفسا في سبيل غسلها كما تعلم !»

فلم يزد الامر لدى الفونس الا غموضا وابهاما ، ولم يفهم لاستدعاء ذلك الخادم معنى . ولا لتلك الالغاز مغزى ، وشق عليه ان يتحــــول موضوع المداولة من الجد الى الهزل وهو لا يعرف عمه يميل الى المزاح الا قليلا . وأكثر ما يفعل ذلك مع يعقوب . فحمل كلامهما محمل المزاح وظل ساكتا يتوقع العود الى الموضوع الاصلي .

اما اوباس فقال : «اني اعلم ذلك يا يعقوب وقد آن لي ان اسعى في غسل لحيتك ، فهل انت واثق من المال مهما كبر مقداره ؟»

قال : «نعم يا سيدي وأنت تعلم ذلك» .

قال : «قد كنت اعلمه ، ولكن هل حدث تغيير او تبديل ؟»

قال : «كلا يا مولاي . نحن على ما نحن عليه» .

فأطرق أوباس مدة طويلة لا يتكلم ، واستغرق في الافكار كأنه يحل معضلة ، ويفكر في امر طرق ذهنه في تلك الساعة ، ثم وقف فوقف يعقوب وألفونس . فقال للاول : «احب ان اراك الليلة في منزلي» .

فأشار بيديه وعينيه وشفتيه ان «سمعا وطاعة» . وخرج وأغلـــق الباب وراءه .

* * *

توقع الفونس بعد خروج يعقوب ان يسمع من عمه ما يزيل ذلك القلق عنه ، فلما رآه جلس ، جلس مثله ، وأصاخ بسمعه وهو ينظر اليه كأنه ينصت لما يقوله ، فسمعه يقول : «طب نفسا يا الفونس . ان المال تحت يدي عند الطلب ، ولا بد من جلسة اخرى أشرح لك فيها التفاصيل وأرتب الخطة التي يجب ان نسير عليها في هذا العمل الخطير» .

فقال : «ولكنني لم افهم علاقة ذلك بخادمنا هذا وبلحيته !»

قال : «ستطلع على سر ذلك الليلة ان شاء الله .. هل تأتي معي منذ الان الى منزلي فنتناول الطعام معا ؟. ولكن لا .. فاني أفضل ان تبقى هنا لاخلو بنفسي وأرسم الخطة التي يجب اتباعها في هذا المشروع» .

قال ذلك ونهض وتحول نحو الباب وهو يمشي الهوينى على عادته ، وألفونس يقتفي أثره ليودعه عند خروجه . وقبل وصولهما الى بـــاب الغرفة سمعا قرعا عليه ثم دخل يعقوب وفي يده كيس صغير من الحرير الارجواني ، مسطح الشكل كان فيه كتابا ، وقد عقد بشريط من الحرير الازرق ، ما كاد الفونس يراه حتى خفق قلبه لعلمه انه من فلورندا ، اذ كثيرا ما كانت ترسل اليه الكتب فيه فأسرع الى الكيس وتناوله وسأل يعقوب عمن حمله اليه فقال : «احد خدم القصر الملكي» .

وكان قد شرع في فضه قبل سماع الجواب ، فلما فتحه استخرج منه قطعة من الخشب مربعة الشكل ، قد كسي سطحاها بالشمع وكتب عليها حفرا بقلم من حديد ـ وقد كانت هذه احدى وسائل المكاتبة في تلك الايام قبل اختراع الورق بأجيال ـ فتناولها وتحول نحو النافذة وقد نسي وداع عمه وأخذ يتلوها بنفسه ، ولم يكد يصل الى آخرهـــا حتى ارتعشت انامله ، وتغيرت سحنته . وكان أوباس لما رأى الكتاب توسم فيه جديدا فتغافل عن الفونس ريثما يقرؤه ، لكنه ما لبث ان رآه يقلبه ويعيد تلاوته وهو يوجهه نحو النور الداخلي من النافذة ويتفرس في

الكتابة بعينيه كأنه يشك في قراءتها ، وقد امتقع لونه وارتعدت انامله وبان الغضب في أسرته ، فظل اوباس ينظر اليه ثم أغلق الباب ليخلو به من جديد • وكان الفونس قد شعر بحركة اغلاق الباب فانتبه ، فاذا عمه يمشي نحوه في هدوء وينظر اليه نظرة خففت ما قام في نفسه على اثر تلاوة الكتاب ، فحاول التجلد تشبها بما كان عليه عمه من سعة الصدر ، ولكن التأثر كان غالبا على منظره ، فتقدم نحو عمه وبيده ذلك الكتاب فقدمه له وهو يقول : «ويلاه لا ننجو من شر الا ونقع فيما هو شر منه• وكل مصائبنا من ذلك المختلس السافل !»

فمد أوباس يده وتناول الكتاب بكل رزانة ، وتفرس فيه فاذا هو مكتوب باللغة اللاتينية المشوشة بألفاظ قوطية حفرا في الشمع على الخشب فقرأ فيه ما معناه :

«حبيبي الفونس

«ان الامر الذي خفته من انتقالي الى هذا القصر قد اوشك ان يقع، فأنا في خطر بين براثن الاسد ، الا اذا اسرعت الى انقاذي !• انت تزعم انك تحب فلورندا فأسرع الى انقاذها قبل ان تفوت الفرصة • والا فان ما بقي من حياتها لا يتجاوز ساعات قلائل اذا انقضت قبل خروجها من هذا القصر • فاذا لم يكن لي نصيب من النجاة فاني أستودعك الله ، وأطمئنك اني ذاهبة شهيدة العفاف والطهر • فاذكرني بين يدي الهي، وموعدنا الامجاد السماوية في أحضان الآباء القديسين •

«كتبته فلورندا المسكينة»

فلم يكن أوباس أقل تأثرا لما قرأه من الفونس ، ولكنه كان أثبت منه جاشا وأصبر على الطوارىء • وقد أحس انه مسؤول عما قد يصيب فلورندا من السوء وهو الذي وضع عربون الخطبة بينها وبين الفونس

الذي لم يعد يستطيع صبرا فقال : «اعذرني يا عماه فقد نفد صبري ونسيت كرسي الملك ، وأنت الذي باركت عربون الخطبة بيننا فأنت مطالب باتمام العقد ، فضلا عما انت مكلف به من ذلك بواجب القرابة . ومهما يكن من الامر دبرني برأيك» .

فالتفت اليه بهدوء ورزانة ويده على لحيته يسرحها بأصابعه وقال «طب نفسا يا ولدي .. انني مخرج فلورندا من قصر الملك وهي في خير ان شاء الله» . ثم أطرق وأعمل فكره وهو يصعد بحاجبيه ثم يقطبهما بما يدل على استغرابه وحيرته ثم قال : «اني لاعجب من امر هذا الرجل واشتغاله عن امور رعيته بما لا يرضي الله ولا عبيده . ولكن ذلك من الادلة القاطعة على قرب سقوطه وذهاب ملكه ، لان الله لا يؤيد ملكا يخالف وصاياه !» . وكان الفونس غارقا في بحار الهواجس ، وقلبه يتقد غيرة على فلورندا . ولما تشاغل عمه عنه بمناجاة نفسه اعاد النظر في كتابها فوقف بصره عند قولها : «اني ذاهبة شهيدة العفاف والطهر !» . وفكر فيما ينطوي تحت هذه العبارة من المعاني المثيرة للغيرة ، ثم سمع عمه ينادي يعقوب ، ورأى هذا يدخل وقبعته في يده قائلا : «لبيك يا مولاي» .

قال : «هل تعرف اثنين من خدم هذا المنزل يسكننا الوثوق من أمانتهما اذا كلفناهما القيام بمهمة ، ولو كانت ضد هذا الطاغية صاحب كرسي طليطلة اليوم ؟!»

قال : «انا يا سيدي» .

قال : «انا ادخرناك لمهمة اخرى ، ولكننا نحتاج الى شابين او ثلاثة تثق بأمانتهما ونشاطهما وبسالتهما . لان الامر يحتاج الى الاقدام والشجاعة والامانة» .

فأطرق يعقوب وقد امسك طرف لحيته بأنامله وجعل يفتله بين

السبابة والابهام حتى اصبح مثل طرف الحبل لما كان يتخلل الشعر من الاوساخ !. فعل ذلك وهو مستغرق في الافكار ، ثم حرك انامله بغتة فأعاد اللحية الى ما كانت عليه والتفت الى أوباس وفي وجهه امارات البشر وقال : «قلما أثق بأحد من هؤلاء ، وان يكن معظمهم نشأوا في بيت مولاي وعاشوا على مائدته ، لان الانسان أضعف من ان يضحي نفسه في سبيل صدق ضميره . ولكنني اعرف اثنين فقط أظنهما اهلا لهذه الثقة» .

قال : «ومن هما ؟»

قال : «هما اجيلا ، وشنتيلا» .

فقال أوباس : «وكيف اخترت هذين وليس منهما من ربي في بيت الملك ؟ »

قال : «اخترتهما لاعتقادي باقتدارهما على هذه المهمة ، ولانهما ما زالا طامعين في الارتقاء ، اذ لا يخفى على مولاي انهما كانا من طبقة العبيد وقد حررهما المرحوم اخوك وألحقهما بحاشيته لما آنسه فيهما من الكفاءة والشهامة . وقد ظهر لي بعد تخلصهما من العبودية انهما طامعان في المزيد من شأن من يذوق طعاما لا يعرفه ، فاذا استطابه زاد في اشتهائه فطلب منه المزيد . وهذان الشابان ولدا في مهد العبودية ونفساهما من أنفس الاحرار ، فرأى الملك المرحوم عظم نفسيهما في حديث يطول سرده فمنحهما الحرية وألحقهما بحاشيته . فاذا كان في المهمة التي تنتدبهما لها ما يحقق أمنيتهما ، تفانيا في سبيلها والا اعتذرا عنها دون ان يخونا» .

قال : «اراك بارعا في فلسفة الاخلاق ، واذا كان الغروب تعال الى منزلي وهما معك» .

قال ذلك وحول وجهه الى الفونس ، ففهم يعقوب انه يطلب خروجه

فخرج • اما الفونس فكان قد عاد الى هواجسه فلما أقبل عمه اليه سأله : «بماذا نرد على هذا الكتاب ؟»

قال : «اكتب اليها ان تكون على أهبة السفر في الساعة الثانية بعد الغروب ، وانك ستلاقيها في القارب بجانب القصر !»

فتناول الفونس قطعة من نسيج غليظ كانوا يكتبون عليه ايضا وكتب اليها ويده ترتجف ما معناه :

«الى مليكة القلب فلورندا

«لبيك يا حبيبتي ، اني موافٍ القصر في الساعة الثانية من الليل القادم • فتهيئي للخروج بما تستطيعين حمله ، واشرفي من النافذة المطلة على النهر ، فاذا رأيت نورا مثلثا فاعلمي انني في انتظارك • تشددي وقوي قلبك ولا تخافي •

«كتبه محبك الذي يفديك بروحه»

وطوى الكتاب وخاطه ، وجعله في الكيس الارجواني وختمه ودفعه الى يعقوب على ان يرجعه الى الرسول الذي جاء به ، ويوصيه بالاحتفاظ به لئلا يطلع عليه احد • فتناول يعقوب الكتاب وخرج •

* * *

وكانت الشمس قد تجاوزت الاصيل . فأخذ الفونس يتأهب للخروج مع عمه الى منزله للمفاوضة هناك فيما يفعلونه ، ولشدة ما اصاب الفونس من البغتة كان ما زال مستغربا ما سمعه عن يعقوب من الاسرار المكتومة• وكان الطقس قد تبدل فتلبدت الغيوم وتغلب البرد ، فلبس الفونس قباء من الفرو السميك ، والتف عمه بردائه الاكليريكي وكان البرد قلما يؤثر فيه • وفيما هما يتأهبان للخروج وكل منهما يفكر في امر على حدة ، فتح الباب بغتة ودخل يعقوب ، وفي يده اسطوانة من جلد بلون القرمز،

فعلم أوباس ان فيها كتابا من رودريك فقد كانت كتبه الى عماله وأمرائه تكتب على الجلد وتلف وتوضع في اسطوانة من جلد المعجول المدبوغ بلون القرمز • فلما وقع نظر الفونس على تلك الاسطوانة تقدم لتسلمها فاعترضه عنه وتناولها وقال ليعقوب : «من جاء بها ؟»

قال : «جاء بها شرذمة من فرسان الملك وقد سألني رئيسهم عن سيدي الفونس هل هو هنا فأردت استمهاله لاعود اليه بالجواب فابتدرني قائلا: «اخبرني حالا فاني مأمور بايصال هذا الكتاب اليه على جناح السرعة حيثما كان ، فقلت انه هنا ، فدفع الي الكتاب وقال انه ينتظر» •

فنظر اوباس في ختم الاسطوانة فاذا هو ختم الملك نفسه ففضه وأخرج الكتاب فاذا هو قطعة من الرق مما كانت الحكومة تستخدمه لكتابة الاوامر ، وكانت الرسالة مطوية فنشرها وقرأ ما فيها ، وألفونس واقف الى يساره يتطاول لقراءتها ، فاذا هي امر رسمي من رودريك اليه يقول فيه ما معناه :

«من رودريك ملك القوط

«باسم الاب والابن والروح القدس

«الى الشجاع الباسل عزيزنا الفونس ، سلام ، وبعد فقد بلغنا ايها العزيز ان بعض العبيد والموالي في كوتتية (•••) قد تمردوا وتواثقوا على مقاومة حكومتنا هناك • فاذا اتاك كتابي هذا فأسرع الى مقر جنودنا في طليطلة ، فان فرقة من الجند في انتظارك لتذهب تحت قيادتك الى تلك المدينة لاخماد الثورة • ولا بد من العجلة ويدلك على استعجالنا اننا كتبنا هذا الامر في يوم العيد الذي لا يجوز العمل فيه ، فلا تتوان في انفاذ امرنا هذا والسلام •

«كتب في قصر طليطلة في الخامس والعشرين من شهر ديسمبر سنة ٧١٠ » •

وما جاء الفونس على اخر الكتاب حتى اسودت الدنيا في عينيه وصاح لشدة هياجه : «لا أذهب . لا أذهب ..!»

فالتفت أوباس اليه لفتة الاستصغار وقال له : «كيف لا تذهب ؟ وهل تستطيع ذلك ؟. ألا ترى انه كتب اليك هذا الكتاب وفيه ما فيه من الملاطفة ، فاذا عصيت امره جررت على نفسك البلاء ؟!»

قال : «وأي بلاء أجره على نفسي ؟»

قال : «اذا تخلفت عن المسير اتهمك بالعصيان وأمر بالقبض عليك . وليس عندك من الرجال ما تدفع به قوة الحكومة الان ، فلا تكون النتيجة الا ايقاع الاذى بك وبنا كلنا اذ يرى المجمع المقدس مسوغا لذلك بعصيانك ؟ فالحكمة تقضي علينا بالملاينة والمسايرة حتى يقضي الله امرا كان مفعولا» .

ولم يكن الفونس يجهل ذلك ولكن غضبه لفلوروندا ولخروجه من طليطلة وهي في ذلك الضنك أغلق ذهنه . فلما سمع كلام عمه قال له : «ولكن ما العمل ؟ وكيف أجتمع بفلوروندا ؟!»

قال : «اترك امرها الي ، فسأتولى انقاذها الليلة وأخفيها في مكان . ثم أكتب اليك حيثما تكون ونرى ما تأتي به الحوادث . ولا تجزع بل ابشر بما ترجوه من وراء سفرك هذا من تمهيد السبيل لمشروعنا . اتكل على الله ، وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم» .

فالتفت الفونس الى يعقوب وقال له : «اخبر حامل الرسالة اني ذاهب بعد قليل» .

قال : «قلت لك يا مولاي انهم كوكبة من الفرسان ، وقد علمت انهم مأمورون ألا يعودوا الا بك» .

فقطع أوباس كلام يعقوب وقال لالفونس : «اذهب يا بني . اذهب الان وأنا أتولى كل شيء في غيابك ، ولكني أيصح لك ان تصطحب

يعقوب وتعتمد عليه ، وسوف يطلعك على أمور تهمك !»

فقال يعقوب : «سمعا وطاعة» . وأسرع الى أثوابه فلبس منها ما يصلح المسفر ، وكذلك فعل الفونس .. وخرجا وألفونس يتجلد وقد القى كل حمله على عمه .

- ٤ -

فلندع الفونس يتأهب للسفر ، ولنعد الى قصر رودريك حيث تركنا فلورندا في غرفتها تفكر في امرها بعد الفراغ من الصلاة وتسليم امرها الى الله .. فقد خرج رودريك من عندها وهو يضمر لها الشر العاجل، وكان اول شيء فعله انه لقي الاب مرتين في غرفته يتلو بعض الصلوات . وكان مرتين قد شعر بذهاب الملك الى قصر فلورندا وتحقق انه لا يعود من هناك الا وهو مقتنع بوجوب التخلص من الفونس او ابعاده ، فلما لقيه عائدا آنس الغضب والانفعال في عينيه وجبينه ، حتى لقد يعجب الذي يراه لصبره عن قتل تلك الفتاة وهو اذا غضب لا يبالي بقتل المئات !. ولكن الحب .. الحب يخفف الغضب ويلجم القلب والعقل . الحب يذلل الاسود ويستأسر الجبابرة ، وهو الذي يبعث الى الشفقة والحنو ! فاذا رأيت رجلا في خلقه جفاء وخشونة فاعلم ان الحب لم يستول على قلبه بعد . نعم ان حب رودريك لم يكن خالصا من شوائب المنكر ، ولكن ذلك لا يمنع تأثيره في القلب ، لان سبب الحب واحد ، وان كان أثره يظهر في الناس مختلفا باختلاف اخلاقهم وأحوالهم .

ولا يبعد ان يكون رودريك قد هم بقتل فلورندا وهي تمنعه وتقاومه،

ولكنه امسك نفسه طمعا في استرضائها واستبقائها ، فتحمل من عواقب الكظم ما ظهرت آثاره في وجهه ، حتى خيل لمرتين لما رآه انه في اعلى درجات الغضب ، فاستقبله ضاحكا ، فتجلد رودريك وحياه وهو يحاول اخفاء انفعاله عبثا ، ولم ير خيرا من ان يشاغل الاب بالحديث فقال له وهو يظهر الاستخفاف : «يظهر ان لذلك الغلام مأربا عند بعض اهـــل القصر ! »

فأجاب الشيخ وهو يتلجلج على عادته : «كأني بالملك لم يفهم اشارتي الى ذلك في هذا الصباح ؟»

قال : «بلى فهمت ، ولكنني ..» وسكت ، فأدرك القسيس انه يضمر شيئا فظل ساكتا وهو ينقر بسبابته على شفته الغائرة ، وعيناه تنظران الى الملك كأنه يتوقع تتمة حديثه . اما رودريك فلم ير بأسا من اطلاع مرتين وهو مستودع اسراره على قصده ، الا حبه فلورندا فانه نـــــوي البقاء على كتمانه ، حياء من الناس وخوفا من امرأته ، وهو يعلم تسلط القسوس على النساء فخاف ان يقع حبه لدى القسيس موقع الاستهجان فيطلع الملكة عليه فتقف في سبيله .! على انه اراد اطلاع مرتين على ما بقي من عزمه فقال : «ارى ان اسعى في ابعاد هذا الشاب عن هذه المدينة بالحسنى فنشغله عن القصر وأهله» .

فطأطأ الشيخ رأسه استصوابا كأنه رأى الجواب بتلك الاشارة أهون عليه من التكلم ، ثم قال : «واذا ابعدته فقد ننتفع بخدمته وتتخلص، ولكن الحية لا تموت اذا ظل رأسها سالما !»

فعلم رودريك انه يشير الى أوباس ويود ابعاده فقال : «ان ابقاء رأس الحية بين أيدينا أسلم عاقبة لنا ، خصوصا اذا كان الذنب بعيدا !» ففهم مرتين اشارته وسكت . فنهض الملك للحال وكتب ذلك الكتاب وبعث به الى الفونس كما تقدم ، وصبر حتى انبأوه بنفاذ امره وان الفونس جاء

المعسكر وتهيأ للسفر .

وكانت الشمس قد توارت وراء الافق وأقبل الظلام ، وكأن اقباله زاد ذلك الملك تعاميا عن فظاعة ما نواه ولم يعد يستطيع صبرا الى اليوم التالي ، فتناول طعام المساء مع امرأته ، وأكثر من تعاطي الخمر على المائدة تشاغلا عما ثار في نفسه من النيران الشيطانية فهان عليه ارتكاب كل فظيعة ولذلك قالوا : «السكر رأس كل المعاصي !»

نهض رودريك عن المائدة وقد امتلأ جوفه ودارت الخمر في رأسه ، وتحول توا الى غرفته والقسيس لا يزال على المائدة مع امرأته ، فلما دخل الغرفة أغلق بابها وراءه وفتح الباب الاخر وسار في الممر نحو غرفة فلورندا !

اما فلورندا فكانت بعد اعمال الفكر قد كتبت ذلك الكتاب الى الفونس ، ودفعته الى العجوز فأرسلته مع خادم تعتقد اخلاصه ، ولبثت تنتظر الجواب ، فشغلها ذلك الانتظار عن كل فكر . وظلت على هذا الحال ساعة ظنتها شهرا او سنة ، فكانت تارة تطل من الباب ، وأخرى من النافذة المشرفة على النهر ، وآونة تدعو خالتها وتستفتيها في سبب التأخير ، وهذه تهون عليها حتى عاد الرسول بذلك الجواب فخفق قلبها سرورا ، وكان اول شيء فعلته انها قبلت الايقونة وشكرت الله على اجابة صلواتها ، وأخذت تجمع ما خف حمله من الحلي ونحوها ، والعجوز تساعدها حتى غابت الشمس ، فعند ذلك تركت كل شيء وتحولت الى النافذة فجلست اليها وأخذت ترسل بصرها الى مجرى النهر تنتظر ظهور النور المثلث ، مع علمها ان الاجل المضروب ما زال بعيدا ، ولكن القلق اوهمها قربه ! وكان الطقس قد برد ، وتلبدت الغيوم فأغبرت السماء وعصفت الرياح ، وأومض البرق وقصف الرعد ، ولم يمض قليل حتى تساقطت الامطار . ولكن ذلك كله لم يشغلها عن التفرس في النهر

وركبتاها ترتعدان وجلا وفرحا • وكانت كلما لاح برق ظنته مشعال حبيبها • وقد تنفرج الغيوم فيقع بعض ظل الكواكب في مجرى النهر فتحسبها نورا مثلثا ، وربما كانت عشرين كوكبا فتظن تعددها ناتجا عن تكسر سطح النهر بالامواج ، او تتوهم السبب في ذلك اعتراض بعض اغصان الحديقة بينها وبين النهر ، خصوصا الاغصان الضخمة القائمة تجاه النافذة !

* * *

وفيما هي تعلل نفسها بقرب الفرج ، وقد وجهت كل حواسها وعواطفها الى ما هو خارج تلك النافذة نحو النهر ، انتبهت بغتة فسمعت وقع أقدام رودريك في الممر ، فخارت قواها ، وتسارعت ضربات قلبها حتى كاد يغشى عليها ، وأحست بما يحدق بها وكانت في غفلة عنه ، فجلست على البساط وجعلت تتضرع الى الله ان يساعدها وينقذها هذه المرة • ولم تجد امامها الا خالتها فسألتها : «أليست هذه خطوات الملك؟» ولم تتم كلامها حتى خرجت العجوز ثم عادت وهي تقول : «الملك يدعوك الى تلك الغرفة» •

فصاحت فلورندا : «ويلاه ما هذا المصاب يا الهي !؟» ولطمت وجهها وأخذت في البكاء ، فتقدمت العجوز اليها وجعلت تخفف عنها وهي لا تدري بماذا تعزيها هذه المرة • على انها لم تر خيرا من الرجوع الى المعزي الاكبر — وهو الدين — فقالت : «اتكلي على الله وهو الذي انقذك في المرة الماضية وسينقذك الان ، وما عليه امر عسير» •

وكانت فلورندا من اهل الايمان الوطيد كما رأيت ، فتضرعت الى الله ان يساعدها هذه المرة ايضا ، والتفتت الى خالتها وقالت لها : «أتوسل اليك يا خالة ان تصلي من اجلي وتطلبي الى الله ان ينقذني من

هذه التجربة» •

فقالت : «اني باقية هنا جاثية امام هذه الايقونة الى حين رجوعك ، لاني لو صحبتك ما نفعتك ، ولا يساعدنا على هذا العدو غير الله وحده!»

فاطمأن بال فلورندا لهذه العبارة ومشت كالشاة التي تساق الى الذبح، وهي تقدم قدما وتؤخر اخرى حتى دخلت تلك الغرفة • وكان رودريك جالسا في صدرها جلوس من لا يهمه النهوض ، ورأت في وجهه من دلائل الغضب ما لم تره في المرة الماضية ، وقد احمرت عيناه واكمد لون وجهه من السكر ، وأسرع تنفسه واشتد • فظنت فلورندا لاول وهلة انها ترى هذه الملامح في وجهه بسبب نور المصباح ، على انها لم تكد تقع عيناها عليه حتى اسرع قلبها بالخفقان ، ولكنها استعانت بالله وتجلدت، وتقدمت حتى وقفت على بضع أذرع منه وأطرقت • وكانت قد ضفرت شعرها ولملمته وغيرت ثوبها تأهبا للسفر • فرأى رودريك فيها ما زاد شغفه بها ، وتضاعف ذلك الشغف لتنبه عواطفه بالمسكر فخاطبها وهو لا يزال جالسا وقد مد رجليه ، وبسط ذراعيه على الوسائد في الجانبين فقال : «هل حدثتك نفسك بشيء جديد ؟»

فظلت ساكتة ولكنها بالغت في الاطراق ، فأعاد السؤال وقد توكأ على ركبتيه كأنه يتحفز للنهوض قائلا : «اجيبي يا فلورندا ، يظهر انك ادركت السعادة التي ادعوك اليها ، خصوصا اذا علمت اني انقذتك من يدي ذلك الغلام الذي كان يغريك بحبه ، وهو لا يحبك ولا يستحق قلبك !»

ثم وقف بسرعة تمازجها عربدة ، وأخذ يسرح لحيته قائلا : «لماذا لا تجيبينني ؟ كأنك تخجلين من الندم بين يدي الملك ! ألا فاعلمي اني سامحتك على ما مضى ••» قال ذلك وخطا نحوها ويمناه مرفوعة كأنه يهم ان يلقيها على كتفها تحببا !

اما فلورندا فلما رأته يدنو منها تقهقرت ورفعت ذراعيها تتحامى بهما،

ونفرت منه كأنه ذئب كاسر يهم بافتراسها ، فتراجع رودريك وأظهر الاستغراب وهو يقول : «ما بالك تنفرين كأنك تخافينني ، ادني مني . انني أريد رضاك ؟!»

وكانت فلورندا لا تزال في ريب من امره ، فأرادت ان تحقق ظنها . وكانت الامطار قد تعاظم تساقطها ، واختلطت اصواتها بأصوات المياه المنحدرة من الميازيب وهبوب العواصف وقصف الرعود ، وفلورندا في غفلة عن كل ذلك لعظم ما قام في نفسها من الخوف . على انها لما عولت على مخاطبته انتبهت لما يحول بين صوتها المنخفض وبين أذنه من هذه الاصوات المختلطة فقالت بصوت عال لكنه مرتعش : «قد قلت لمولاي الملك ان هذا الموقف ليس موقفي ، وان الله قد جعل نصيبي سواه» .

فقال لها : «كأنك لم تفهمي كلامي ! قلت لك ان الغلام الذي تسمينه نصيبك قد مضى ولا سبيل اليه» .

فلما سمعت قوله توهمت انه قتله فصاحت وقد وقف شعرها وارتعشت وأحست كأنه صب ماء غاليا على بدنها وقالت : «ماذا تقول ؟. ماذا فعلت بألفونس . ماذا ؟. ماذا ؟. هل قتلته ؟»

فلما رأى رودريك ما اصابها خاف ان يقضي عليها بغتة وهو يريد استبقاءها لنفسه ولو ساعة فقال : «لا . لم اقتله ولكنه بين يدي ، وحياته طوع ارادتي ، اذا شئت قتلته بكلمة ولا أتكلف لذلك خطوة واحدة ! يظهر انك لا تزالين تجهلين من هو الذي يخاطبك ، ومن هو ذاك الذي تسمينه نصيبك ؟ نعم اني لم اقتله بل اكتفيت بابعاده ، ولكن اذا بقيت على اصرارك اقتله ، واذا ظللت على غيك بعد قتله اقتلك انت . وأنا الان لا أسترضيك ولا أستعطفك بعد ما رأيته من وقاحتك ، واعلمي ان هذه الساعة هي الحد الفاصل بين تمنعك وبين ما اريد !» قال ذلك بصوت عال ومشى مسرعا الى باب الغرفة وأغلقه ورجع وهو يقول :

«فاختاري الحائط الذي تريدينه واخرجي منه !» ثم القى نفسه على المقعد وهو يلهث من الغضب كأنه ثور يخور ، وقد زادت عيناه احمرارا وأوداجه انتفاخا .

وعندما سمعت فلورندا تصريحه بالمنكر ، وتحققت دنو الخطر ، التفتت الى ما حولها كأنها تفتش عن ضائع او تستنجد رفيقا — فعلت ذلك وهي لا تعلم لماذا فعلته وهمت بالجواب . فقطع رودريك كلامها قائلا : «عمن تبحثين ؟ اننا في غرفة ليس معنا ثالث . وليس على وجه البسيطة من يستطيع ان يحول دون مرادي . فأقبلي طائعة . انه أحفظ لحياتك وأدعى الى سعادتك !»

وكانت فلورندا لما سمعت قوله «وليس معنا ثالث» قد تذكرت ما كانت تقرؤه وتسمعه من أقوال الكتاب المقدس ، من ان من يتكل على الله لا يفشل ، وان الله موجود في كل مكان . فأحست بلطمئنان كأنها محاطة بملائكة يحرسونها ، وتشجعت ونظرت الى رودريك وهي تتفرس فيه وقالت : «تزعم اننا منفردان ، وان الجو خال لك ، وقد فاتك ان الله موجود في كل مكان لا يدع لاحد سلطانا يغلب سلطانه ! ثم اني سمعتك تهددني بالقتل . فاقتل ثم أقتل ! اقتلني فاني لا أبالي بحياتي . ولكن أتوسل اليك ألا تمس الفونس بسوء .. آه يا الفونس ..!» قالت ذلك وخنقتها العبرات وأطلقت لنفسها عنان البكاء .

فلما سمعها رودريك تبكي لم يزدد الا حنقا خصوصا بعد ان سمع ذكر الفونس . على انه لما رأى توبيخها وثباتها مع شدة تعلقها بحبيبها ورغبتها في بقائه ، تراءى له ان يعرض عليها استبقاءه فقال : «اذا كانت حياة الفونس تهمك بهذا المقدار ، فاني اكراما لعيونك ابقيه ، وأرقيه ، وأجعله من اسعد اهل طليطلة . ولا يكلفك ذلك الا ان تقلعي عن عنادك ! »

فابتسمت استخفافا بذلك الرأي وقالت : «ان الامر الذي يرضيك مني بذله انما هو أثمن ما لدي في هذا العالم ! أثمن من حياتي ! بل أثمن حتى من الفونس نفسه • لاني بدون ذلك الاكليل المجيد وتلك الجوهرة الثمينة لا أستحق نظرة من الفونس ولا من سواه • بل لا أساوي شيئا ! وهل تظنني لولا ذلك استطيع مخاطبة الملك بهذه الجسارة ؟»

فرأى رودريك انها تطيل الجدال ولا يجد ما يدفع به حجتها ، ولا هو يريد الاقتناع بقولها لان ميوله البهيمية غلبت على عقله وارادته •• وقد يكون ــ وهو يجادلها ويراودها ــ مقتنعا بأنه يلتمس امرا منكرا وانها مصيبة بتوبيخه ، ولكنه لا يملك عنان شهواته •

* * *

وكان رودريك مع قوة بدنه ضعيف الارادة • فلما سمع تقريع فلورندا ادرك خطأه ، ولكنه تجاهل وتعامى وتصامم ، وعاد الى المغالطة، فأظهر الغضب ووقف بغتة وقال لها : «اراك تحبين المدافعة بلا فائدة ، ولم يبق لي صبر على اقوالك • ألا تشعرين بما تعرضين نفسك له من الخطر ؟• ومع ذلك فما لا يمكن ان يكون برضاك لا بد منه رغم انفك !»
قال ذلك ودنا منها وقبض على ذراعها ويده ترتعش ، فاقشعر بدن فلورندا وأحست كأنه ممسك ذراعها بقبضة من حديد فصاحت : «ويلك يا ظالم• تبا لك يا فاسق •! ألا تخاف يوم الحساب ؟ ألا تخاف الله ؟ قبح الله ملكا يتولى انصاف المظلومين وهو اكبر الظالمين • ولعن الله رجلا يزعم انه أقيم لكبح جماح المتمردين وهو لا يقوى على كبح شهواته !» • ثم ارسلت بصرها نحو السماء ورفعت يدها الاخرى وقالت : «اليك أتوسل ايها المخلص الحبيب ، وأعوذ بك من هذا الظالم الخائن !»
وكان رودريك في اثناء ذلك يحاول القبض على يدها الاخرى وهي

تحاول التخلص منه ، فوقع نفسه في وجهها فاشتمت رائحة الخمر فهمت ان تقول شيئا ولكن اعترض قولها رعود قاصفة توالت بضع ثوان ، اعقبها صوت صاعقة انقضت بالقرب من ذلك المكان ، فارتج القصر من اساسه ، ونفذ وميض البرق من شقوق النوافذ كأنه حراب من نار ! فكان لتلك الحركة تأثير شديد في نفس رودريك شغله لحظة عن فلورندا ، وتولاه الرعب لانه توهم لاول وهلة ان القضاء يتهدده ــ كما يفعل بعض الذين يربون في مهد الدين فيعتقدون ان الاقدار تراقب حركاتهم وسكناتهم ، وان الطبيعة لا تعمل عملا الا وهي تتعمد به خيرهم او شرهم ، على ان ذلك الخاطر لم يمر في ذهنه الا مرور البرق ثم عاد الى ما كان عليه !

وأما هي فانها اغتنمت تلك الفرصة وانتزعت يدها من يده ، وقد اعتبرت انقضاض تلك الصاعقة نصيرا لها عليه اجابة لصوت دعائها والتفتت اليه وهي تقول : «ألا تعلم ان في الكون من ينتصر للضعيف على القوي ؟ ألا يستطيع ذلك الجبار ان ينزل عليك وعلى قصرك صاعقة تذهب بكما الى الموت العاجل ؟»

فأفحم رودريك لما رأى الاقدار تزيد حجة فلورندا عليه ، ولكنه اعتبر نفسه في موقف انتقام ولم يزدد الا تماديا في غرضه ، فتقدم اليها وقبض باحدى يديه على كتفها ومد يده الاخرى ليقبض على يدها ثم يرفسها برجله . فتشددت هي وانتزعت نفسها من يديه فأفلتها بالرغم عنه لانه لم يكن ممسكا بكل قوته . فلما افلتت منه تعاظم غضبه فهجم عليها هجوم الثور ، وهو لا يبالي ما يكون من امرها !

فلما رأته فلورندا هاجما والشرر يكاد يتطاير من عينيه لفرط غضبه ايقنت بالخطر العاجل ، فعولت على الانتحار قبل وصوله الى مراده ، فجثت على ركبتيها ورفعت بصرها الى السماء كأنها تستغيث وهي لا تزال

الى تلك اللحظة تعتقد ان العناية الالهية لا تتخلى عنها ! ولكنها لما رأت رودريك يكاد يصل اليها اسرعت هي فقبضت بكلتا يديها على عنقها وهمت ان تخنق نفسها وهي تقول : «الموت . الموت خير من العار . اليك أسلم روحي يا مخلصي الحبيب» . قالت ذلك وضغطت على حنجرتها فانحبس الدم في وجهها وجحظت عيناها ولكنه امسك يديها وشدهما فأبعدهما عن عنقها ، وكانت قد خارت قواها فسقطت.وقد ارتخت مفاصلها واستلقت على ظهرها لا حراك بها !

* * *

فلما شاهدها رودريك في تلك الحالة تنبهت فيه الحاسة البشرية لحظة، وعمد الى تلطيف ما بها فجثا بجانبها ، وأمسك يدها وأنهضها يريد اجلاسها لتصحو من غيبوبتها . فاذا هي لا تزال مغمضة العينين مسترخية الاعضاء فخفق قلبه ، وتحرك ضميره، وتوهم انها ماتت او كادت تموت، فتركها وأسرع الى الباب لعله يجد ماء فيرشها به ، ففتح الباب وطلب حجرة فلورندا فاستقبلته العجوز وهي خارجة منها وقد بغتت منذ سمعت فتح الباب لانها كانت لا تزال الى تلك اللحظة جاثية تصلي وتطلب نجاة فلورندا من هذا الخطر . وكانت وهي مستغرقة في الصلاة لا تسمع شيئا مما حولها وقد اقفلت النافذة المطلة على النهر حجبا للعواصف ، فلم تنتبه لقصف الرعد وهبوب الرياح الا كما يشعر الراقد بصوت يسمعه بين اليقظة والمنام . ولكنها حالما سمعت فتح الباب تنبهت كأنها استيقظت من ذلك الرقاد ، وهرعت نحو الباب فاستقبلها الملك والبغتة على وجهه وقال : «الي بكوبةمن الماء . اسرعي حالا !» . قال ذلك وعاد الى الغرفة فتبعته العجوز بالكوبة وركبتاها ترتعدان من الخوف على فلورندا فدخل رودريك وهو يقول للعجوز : «رشيها بالماء !» فلما رأت العجوز

حال فلورندا صاحت : «فلورندا ما الذي اصابك ؟..» وأسرعت فرشتها فاستيقظت وجلست وهي تنظر الى ما حولها . فلما رأت رودريك صاحت: «ويلاه اني لا ازال حية ، ولا يزال هذا الشرير امام عيني . كنت احسب اني نجوت منه بالموت !»

اما رودريك فأغضى عن ذلك ووجه خطابه الى العجـــوز وقال : «أرأيت ما الذي فعلته فلورندا بنفسها لطيشها وغرورها ؟. أعرض عليها السعادة فترفضها ؟» . فلم تجد العجوز جوابا غير البكاء لانها توهمت ان نجاة فلورندا مستحيلة . على انها لم تجد سبيلا غير التزلف ، فجثت امام رودريك وقالت ودموعها تتساقط : «أتقدم الى مولاي ان يرفق بهذه الفتاة المسكينة ويتركها وشأنها ، فان في قصره وتحت امره مئات مثلها». فاستاء رودريك من قولها وكان يتوقع مساعدتها فرفسها برجله وهــو يقول : «اليك عني يا عجوز النحس . وأنت ايضا ؟» فخرجت العجوز وقد تذكرت الموعد الذي جاءها من الفونس فقالت في نفسها لعل مـــع الفونس رجالا يصعدون الينا فينقذونها من بين يديه بالقوة ، فهرولت الى الحجرة وفتحت النافذة فتحا قليلا فعصفت الريح في وجهها وبللها الماء ونظرت الى جهة النهر فلم تجد نورا مثلثا ولا غير مثلث ، فأقفلتها وعادت الى الصلاة !

أما رودريك فأقفل الباب وعاد الى فلورندا وهي ما زالت جالسة على البساط في الغرفة ، وقد استراحت وعادت اليها قوتها وتصاعد الدم الى وجهها برد الفعل فعاد اليه الاشراق . ولكن الكآبة ما زالت غالبة علـــى منظرها . فدنا رودريك منها وهو يمد يده الى منطقته ثم اخرجها وهو قابض بها على خنجر أبرق فرنده وكأنه يقطر سما ، وبيده الاخرى شيء كالخاتم يلمع ثم مد يده اليها وهو يقول : «لقد نفد صبري يا فلورندا فها اني عارض عليك السعادة لاخر مرة فاما ان تقبليها ، وهذا خاتمي عربون

على ذلك ، واما ان أغمد هذا الخنجر في صدرك في هـــذه اللحظة . أجيبي حالا ..!»

فنهضت للحال وتصدت له وهي تقول : «أغمده . أغمد خنجرك في صدري وأرحني من هذه الحياة . ويا حبذا الموت الذي ألقى به وجه ربي بريئة طاهرة . اقتلني يا رودريك . اقتل !»

فقال لها : «امعني الفكر ولا تظني اني اقول ذلك للتهديد . انـــي فاعله حالا . وان عقات وأجبت سؤالي اخذت هذا الخاتم عربون محبتي لك وكنت أسعد بنات طليطلة !»

قالت : «اني لا أرهب الموت فداء العفاف والطهر . الموت خير لي ، الا اذا رجعت الى رشدك وندمت قبل فوات الفرصة ــ لانك نادم في اي حال . فاذا ندمت بعد ارتكاب هذا المنكر لا ينفعك ندمك شيئا ، واذا قتلتني فانك تندم على قتل فتاة بريئة طاهرة لا ذنب لها الا اصرارها على العمل بوصية الله» ثم حولت وجهها نحو السماء وقالت :

«يا ايها المخلص المجيد . ربي والهي . ألا كشفت لهذا الرجل فظاعة ما هو مقدم عليه ؟! اقشع غشاوة الجهل عن عينيه» .

فضحك رودريك وقطع كلامها وقال : «أظنك تتوقعين قصف الرعد ووميض البرق جوابا على كلامك كالمرة الماضية . كلا . فما نحن فـــي عصر المعجزات !»

* * *

وفيما هو يريد اتمام كلامه ، والخنجر مشهر بيمينه كأنه يهم بـــأن يطعنها به ، سمع وقع أقدام غريبة في ممر القصر ؛ فأنصت ، فسمع تلك الخطوات تقترب من الغرفة وهي تسرع ، فخفق قلبه واقشعر بدنه ، وعاد اليه الاحساس الديني الذي ربي فيه ، فخيل له ان الله استجاب دعـــاء

فلورندا فأرسل بعض ملائكته لانقاذها .

قضى رودريك وفلورندا ثواني قليلة في حيرة ، وهما واقفان وأبصارهما شاخصة نحو الباب ينتظران ما يكون ، وفلورندا ترتعش تخشعا وبغتة . وأما رودريك فانه أرجع الخنجر الى مكانه ومشى الى الباب وهو ما زال يسمع خطوات القادم تقترب . وقبل الوصول الى الباب سمع قارعا يقرعه قرعا عنيفا ارتجت له جوانب القصر ، وارتعدت فرائص رودريك ، ولم يتمالك ان أسرع الى فتحه . ولا تسل عن دهشته واضطرابه لما رأى أوباس داخلا وهو فيما يعرفه فيه من الهيبة والرزانة ورباطة الجأش ، والماء يقطر من أردانه !

اما فلورندا فتوهمت لما رأته انه ملاك لابس ثوب أوباس ، وظلت واقفة وقد ملكت البغتة كل جوارحها حتى علق ريقها في حلقها وأمسكت تنفسها !. وأما رودريك فلم يسعه عند رؤية أوباس الا اظهار استغرابه من جسارته الى هذا الحد فقال له : «ما الذي جاء بك الى هنا في هذه الساعة ؟. وكيف دخلت هذا القصر بغير استئذان ؟!» . فأجابه أوباس وهو لا يبالي كأنه يخاطب غلاما وقال : «اما الذي جاء بي فهو امر يهم المملكة سأعرضه عليكم . وأما دخولي بلا استئذان فجلالة الملك يعلم ان أمثالنا لا يستأذنون في الدخول على الملوك او مخاطبتهم ، وهم يخاطبون الله بلا استئذان !»

ففهم رودريك انه يعرض بسلطة الاكليروس خصوصا الاساقفة ، فانهم هم الذين أجلسوه على الكرسي ، ولكن أوباس لم يكن منهم للاسباب التي قدمناها ، فساءه ذلك التعريض ولكنه كان شاعرا بارتكابه ذنبا عظيما ، والمذنب يغلب عليه الضعف والارتباك ولو كان ملكا ، خصوصا بين يدي رجل مهيب مثل أوباس ، فعمد الى تغطية ذنبه بالمغالطة ، وقد عول على ان يصرف أوباس ثم يعود الى فلورندا فقال له:

«انتظرني في الدار العامة ريثما آتيك» .

قال : «لو كان الامر الذي جئت به يحتمل الانتظار ما جئتك في هذا الليل تحت سيول الامطار» . قال ذلك ومد يده نحو فلورندا وهو يظهر انه يخاطب الملك وقال : «واذا فتحت النافذة المطلة على النهر تحققت الامر الذي قلته لك ، ورأيت الامطار بل الثلوج تتساقط ، فلو لم يكن مجيئي لامر ذي بال ما عكرت على الملك راحته . اني لا اخرج من هذا المكان الا معك !»

وكانت فلورندا كلها مسامع ولواحظ لما يقول اوباس او يشير اليه، فلما سمعت ما ذكره عن النافذة ادركت انه يشير الى الموعد المضروب لانقاذها ففرحت . اما رودريك فالتفت الى فلورندا وأشار اليها ان «اذهبي الى غرفتك ريثما اعود» وخرج مهرولا . وأوباس لا يغير مشيته ولا يكترث بانهماك الملك واستعجاله . فلما وصل رودريك الى اخر الممر التفت خلفه فرأى الباب مفتوحا فتذكر انه نسيه بدون اقفال فعاد وأغلقه كأنه يحاذر ان يختطفوا فلورندا من بين يديه ، ومشى وأوباس لا يكترث بتلك الحركات حتى وصلا الى الدار العامة حيث ينعقد المجلس عادة ، فجلس ودعا أوباس الى الجلوس فقال هذا : «ان الامر الذي جئت من اجله لا يصح ذكره في هذه القاعة» .

فاستغرب رودريك جوابه وقال : «وأين اذا ؟» . قال : «في غرفة منفردة على حدة» . فنهض رودريك وقد ساءه هذا النعت ومشى معه الى غرفة منفردة فيها مصباح نوره ضئيل ، فجلس أوباس بين يديه ، ولم يستطع هو صبرا فقال : «قل يا حضرة المتروبوليت» .

فقال : «جئتك بأمر دعاني الله الى تبليغك اياه» . فأنصت رودريك وتطاول بعنقه لسماع ما يقوله . فقال اوباس بصوت هادىء على عادته: «ان الله خولك سلطانا على الناس تحكم فيهم ، وتنصف مظلومهم ،

وتضرب على أيدي الظالمين ، فلا تتخذ ذلك السلطان وسيلة الى ما يغضبه » .

فبغت رودريك لما في خطاب أوباس من التوبيخ ، وقطب حاجبيه اشارة الى استهجانه تلك الجسارة وقال : «هل عندك كلام في غير هذه الشؤون ؟» . فأدرك أوباس انفعاله ، وانه انما يريد تحقيره ورد التوبيخ اليه ، فلم يقبل منه ذلك فقال : «لعلك تظن ما اقوله وهما او ليس بالامر المهم ! »

فقال رودريك وقد ظهر الغضب في وجهه : «لا ارى ما يسوغ لك الاعتراض على اعمالي في داخل قصري ، فاذا كنت تعلم امرا يتعلق بالاحكام بين الناس او بالامن العام او بسياسة البلاد فتكلم !»

فابتسم اوباس باستخفاف وقال : «ألا تعلم ايها الملك انك مطالب بكل حركة تجريها في منزلك وفي الخارج ؟ وان الصعاليك اقرب الى الحرية في تصرفاتهم من الملوك ؟ انك مؤتمن على أرواح الناس وأموالهم وأعراضهم ، وانما اعطاك الله هذا السلطان لصيانتها والدفاع عنها ، أفتتخذه وسيلة لسلبها بنفسك ، فاذا جاءك ناصح انتهرته واحتقرته ؟ ما هذه اخلاق الملوك المؤمنين !»

فأعظم رودريك تلك الجسارة وازداد حنقا لرزانة اوباس ورباطة جأشه وقال : «هل كان اخوك اقرب الى تلك الاخلاق مني ؟»

* * *

ففهم أوباس انه يعرض بخروج الملك من أيديهم تحقيرا له فلم يصبر على ذلك ، فقال وقد ارتفع صوته ولكنه ما زال هادئا : «دعنا من ذكر الاموات فلهم من يحاسبهم ، وانما نحن نحاسب الاحياء . على اني ما اظن غيطشة لو كان حيا يفعل مثل فعلتك . بل انا أجله عن الاقدام على

مثل هذا المنكر !»

فوقف رودريك من شدة الغضب وقال : «دع عنك ذلك كله فما هو من متعلقاتك ، لاني أعلم بواجباتي منك» . قال ذلك وتحول عنه اشارة الى رغبته في اقفال الحديث ، ولكن أوباس ظل جالسا وقال : «لو كنت تعرف واجباتك ما اردت السوء بفتاة طاهرة وأنت ذو امرأة . وبدلا من ان تستغفر عن هذه الفظيعة تدافع عنها !»

ثم وقف وأتم كلامه قائلا : «واعلم يا رودريك ان اشتغالك بهذه الامور واهمالك كلمة الله ووصاياه ، من اول الادلة على قرب انقضاء هذه الدولة» .

فلما سمع رودريك تهديده بقرب انقضاء دولته التفت اليه وهو يقول: «اراك تهددني بخروج الملك من يدي ! انكم لن تستطيعوا ذلك ولو ملأتم الدنيا مؤامرة واستعنتم بقوات الارض والسماء !»

قال : «اذا كان لنا نصيب في هذا الملك ، فان قوات السماء تقدر على اخراجه من يدك» .

ولم يتم اوباس كلامه حتى رأى باب الحجرة قد فتح ، ودخل الاب مرتين بغتة وهو يهرول ويتمتم كأنه يريد التكلم ويمنعه التلجلج من شدة التأثر . ثم نطق فخرج كلامه مقطعا موصلا مختلطا يشبه قوله : »تـ .. تـ .. تـ .. تهدد جلالة الملك بـ .. بـ .. بـ .. باخراج الملك من يده ! يا للوقاحة و قـ .. قـ .. قـ .. قلة الادب ؟!« ولم يتم الاب هذه الجملة حتى امتلأت لحيته باللعاب المتطاير من فمه ، فلما فرغ من الكلام تشاغل بمسح لحيته وجعل يخطر في ارض الغرفة بسرعة وهو مطرق ولا يزال يتمتم ، فأدرك أوباس انه يتهمه زورا ليوقع الشبهة عليه ، فسكت استخفافا .

وأما رودريك فانه سر لهذه التهمة ، وتظاهر بالغضب والانتصار وقال : «لا بأس يكفي الان ما سمعناه من خير وشر !» . قال ذلك

وتحول من الغرفة فتبعه الاب مرتين ، فنهض اوباس وهو لا يبالي بما رآه وانما همه فوزه بانقاذه فلوروندا من بين يديه !

وكان السبب في مجيء اوباس الى القصر انه لما دنت الساعة المعينة جاء اجيلا وشنتيلا الى منزل اوباس فأمرهما باعداد قارب للنزول به في النهر ، فنزلوا به فتساقطت الامطار وعصفت الرياح واضطرب الجو فهاج النهر ولكنهم لم يبالوا بذلك بل عدوه في بادىء الرأي مساعدا لهم على اخفاء خطواتهم ، فوصلوا تحت القصر وفلوروندا في الغرفة مع رودريك، وخادمتها في الحجرة تصلي وقد اغلقت النافذة فصعد الشابان ومعهما اوباس لا يبالون بالامطار والزوابع حتى وقفوا تحت حجرة فلوروندا عند تلك الشجرة الجرداء دون ان ينتبه لهم احد من الحراس ولا الحاشية . فأشار اوباس الى شنتيلا ان يتسلق الشجرة ويقرع النافذة فتسلقها حتى وقف على الغصن المقابل للنافذة فقرعها بطرف حسامه قرعا خفيفا ، ثم قوى القرع فلم يجبه احد لان العجوز كانت قد خرجت بكأس الماء لترش فلوروندا ، فنزل شنتيلا وأخبر أوباس بأنه لم يسمع جوابا ، فوقف هذا برهة يتأمل وقال في نفسه لو كانت فلوروندا مطلقة السراح لم يكن ليشغلها عن هذه النافذة شاغل ، فلا بد من ان تكون في ضيق ، ولا بأس عليها الا من رودريك ! وتخيل انها في أشد الخطر ، وانه ان تأخر عنها قد يقضي عليها ، فأمر الرجلين ان يربطا القارب بجانب القصر ويمكثا عنده، وحالما يسمعان فتح النافذة يصعدان على الشجرة ويحملان فلوروندا وما معها .

قال لهما ذلك وتحول الى باب القصر العام ، وسأل الحراس عن الملك فقالوا انه في القصر ، فدخل ولم يعارضه احد لان الاساقفة كثيرا ما يدخلون على الملوك خصوصا ان الاكليروس كانوا اكثر تدخلا في شؤون اسبانيا مما في سائر ممالك اوربا تقريبا ، وعلى الاخص في عهد

رودريك لانه انما تنصب بمساعدتهم .

نعم ان أوباس لم يكن من الذين انتخبوه ، ولكن الحرس الواقفين بالباب لا يهمهم التمييز بين أسقف وآخر ، وانما يكفيهم النظر الى الثوب الاكليريكي ، فضلا عن ان هيبة اوباس تكفي وحدها لاحترامه واطاعة اوامره ، وخصوصا في تلك الساعة وقد زاده الاهتمام جلالا ووقارا .

دخل أوباس من ابواب القصر الواحد بعد الاخر لا يعترضه احد ؛ حتى اتى غرفة الملك وكان يعرفها جيدا لانها كانت لغيطشة من عهد غير بعيد . فسأل الحراس عنه فقالوا انه دخل غرفته ولا يدخل عليه احـــد فيها ، فلم يبال بأقوالهم وكان رودريك قد نسيها غير موصدة فدخلها فلم ير فيها احدا ، ورأى باب الممر المؤدي الى قصر فلوراندا مفتوحا فدخل وما في الدار احد من الخدم ، فمشى مشية من لا يهاب ملكا ، وجعل يبحث بنظره فرأى تلك الغرفة مضيئة وسمع لغطا فلم يتمالك ان ضرب الباب ثم دخل ، فأدرك من مجرد النظرة الاولى الى وجه فلوراندا انها مصونة سالمة ، ورأى ان يبعد رودريك عنها ريثما تستطيع الذهاب الى حجرتها وتنجو من هناك ، فطلب الخلوة بالملك على ما تقدم .

– ٥ –

خرج رودريك من تلك الغرفة وقد اخذ الغضب منه مأخذا عظيمـا والاب مرتين يتبعه وهو يتمتم ويهز رأسه على مرأى من الملك استغرابا من وقاحة اوباس ! وكان يظن الملك لا يفارقه الليلة حتى يتآمرا على الايقاع بأوباس ، ولكنه ما لبث ان رآه قد تحول عنه راجعا الى غرفته،

فجلس على مقعد في احدى طرقات القصر ثم نهض ورجع الى قصر فلورندا وفؤاده يتقد حنقا وكيدا • ولا تسل عن حاله لما لم يجد احدا في كل ذلك القصر ، ورأى حجرة فلورندا مشوشة خالية من الادوات الخفيفة الحمل الغالية الثمن !

عاد رودريك الى غرفته وهو يكاد يتميز غيظا ، وبعث الى قيم قصره في تلك الساعة فجاءه ، فابتدره بالسؤال عمن خرج من القصر في تلك الليلة • فاهتم القيم بالامر وسأل الخدم فقالوا انهم يقيسون في الطبقة السفلى ولا يؤذن لهم بالصعود مطلقا ، وهم على ثقة ان باب القصر لم يفتح في تلك الليلة ، وانهم لم يروا احدا خارجا من مكان اخر لان الظلام كان مخيما ، وقد منعهم سقوط المطر وهبوب العواصف من الانتباه لما يحدث خارجا • فسألوا الحرس فكان عذرهم انشغالهم بالنوء والعواصف عن كل شاغل • وأخيرا بحثوا في الطريقة التي يمكن الفرار بها فاذا هي النافذة المطلة على النهر ، ورأوا على نواتىء الاغصان اليابسة تنفا من الفرو تناثر من رداء فلورندا •

تحقق رودريك عندئذ ان اوباس شاركها في ذلك الفرار فعزم على الايقاع به وعاد وقد أنهكه التعب وأثر الفشل في عزائمه ، وأحس كأنه أفاق من سكرة فأحب الخلوة ، وذهب الى فراشه فتقلب على مثل الجمر وهو لا يستطيع رقادا ، وقلبه يتقد حنقا من اوباس فلم ير ما يفرج كربه الا استدعاء مرتين مستودع اسراره ، فنهض من الفراش حتى لقي احد الحراس الواقفين ببابه فأمره ان يستقدم الاب على عجل ، ولو كان في فراشه !

فذهب الحارس وقرع باب مرتين ، وكان قد خلع ثيابه وتدثر بقميص النوم وجلس في الفراش وبدأ بصلاة النوم ، فوقف الرجل خارجا حتى فرغ الاب من الصلاة ، ثم دخل عليه وأبلغه امر الملك باستقدامه ، ففرح

لعلمه انه لم يدعه الا للايقاع بأوباس ، فنهض للحال وهو ما زال بذلك اللباس وتزمل فوقه برداء واسع من الفرو ، ولم يضع القلنسوة على رأسه وكان شعره منفوشا ابيض كأنه كتلة من القطن فوق رأسه ، ومشى حتى دخل على الملك الذي كان هو ايضا في نحو ذلك من القيافة الغريبة بعد تقلبه في الفراش ، وقد اختلطت ضفائر رأسه بشعر لحيته وشاربيه ، وأثر الغضب والفشل في سحنته ! فلما دخل مرتين عليه شعر بارتياح لرؤيته ، فنهض لاستقباله وقبل يده ودعاه للجلوس بجانبه فجلس وهو يقول : «ارجو ان يكون مولاي الملك قد دعاني لامر يسره» .

قال : «لا أظنك تجهل السبب الذي دعوتك من اجله . وقد كنت في هذا المساء ناظرا سامعا لما كان من اوباس !»

فرأى مرتين من باب التملق ان يقطع كلام الملك ويقول : «انها وقاحة غريبة ليس اغرب منها الا صبر مولاي الملك عليها ..!»

فقال رودريك : «حقا انها لوقاحة لم اكن أتوقعها من قوم قد اذقناهم الذل وأخذنا الحكم من أيديهم . ألا يخاف اوباس غضبي ؟»

فقال مرتين : «أظن مولاي الملك لم يتنبه لفحوى اقواله . وأوباس مشهور بقلة الكلام وكثرة الفكر ، واذا قال كلمة يجب التمعن في فحواها لانه لا يتكلم عن هوى ولا يلقي الكلام جزافا ! ألم تسمع قولــــه لجلالتكم : (اذا كان لنا مطمع في الملك فان قوات السماء تقدر علــى اخراجه من يدك ؟!) انها جسارة غريبة تدل على ما يعـــده من الشراك والمكايد . ولا أظنه الا يعقد المجالس السرية ويعاقد الاعداء على خلـع الملك ، ولكنه خائب لا محالة !»

وأحس رودريك عند سماع هذا التعليل بارتياح لانه كشف بابا لاتهام أوباس والقبض عليه وعلى من في منزله ، لعله يجد فلورندا بينهم ، وقد غلب على خاطره انها فرت الى هناك اذ ليس لها من الاقـــارب احد ،

خصوصا بعد ما ظهر له من القرائن الكثيرة فقال : «ما الرأي يا حضرة الاب في هذا الخائن ؟»

قال : «الرأي ان تقبض عليه حالا في هذه الساعة قبل ان يتأهب او يدس الدسائس ، لانه خرج من قصرك وهو يهددك . فلا تكن هينا، لان الحلم في هذا المقام ضعف !»

ولم يكن رودريك في حاجة الى هذا التحريض وهو اكثر رغبة في ذلك ، فزاد على رأي مرتين ان يقبض على اهل بيت أوباس ايضا ويسوقهم الى السجن . ثم قال : «الي بقائد الحرس الملكي !»

فخرج مرتين وأمر بعض الحرس باستقدام القائد ، وعاد الى غرفة الملـك .

اما أوباس فانه نهض بعد ان تركه الملك ، وسار على عجل الى منزله لموافاة فلورندا والخادمين وتدبير وسيلة لاخراجها من طليطلة . فلما وصل وعرف من الخدم ان احدا لم يصل قبله واشتغل خاطره وخشي ان يكون اصابهم سوء ، فأعمل فكرته وعلل نفسه بقرب وصولهم حتى مل الانتظار ، فعول على الخروج بنفسه للبحث عنهم في الطريق الذي كان يتوقع ان يجيئوا فيه ، لكنه ما لبث ان سمع ضوضاء ووقع حوافر خيول امام القصر وأطل من شرفة القصر والظلام لا يزال حالكا فرأى جماعة على أفراس دنوا من القصر وأحدقوا به عن بعد دون ان يخاطبوا احدا من اهله ، ولم يستطع لشدة الظلام ان يتبين الوجوه ولكنه ادرك بفراسته انهم من رجال رودريك وقد جاءوا لامر يوجب قلقا ! على انه لم يخف على نفسه لرباطة جأشه ولاعتقاده ببراءة ساحته واعتماده على عزيمته وقوة حجته ، ولكنه خاف على فلورندا ورفاقها لانهم اذا جاءوا في تلك الساعة وقعوا في الشرك لا محالة .

وأعمل فكرته هنيهة فرأى المبادرة الى ان يتحول الى غرفته فتزمل

بالقباء وخرج الى الباب ونادى اقرب فارس اليه فجاءه وترجل وحياه باحترام . فقال اوباس : «ما الذي تفعلونه هنا ؟»

قال : «اننا مأمورون بالوقوف هنا الى الصباح» .

قال : «ومن أمركم بذلك ؟»

فسكت الرجل وحول وجهه الى جهة اخرى ونادى ضابط تلك الكوكبة ، فجاء الاخر وترجل وحيى أوباس وهم بتقبيل يده ، فاجتذب أوباس يده بعنف وقال : «من أمركم بالوقوف هنا وما الغرض منه ؟»

قال : «أمرنا به من ينوب عن الملك . ولماذا اقلقت راحتك وخرجت في هذا الليل من فراشك ؟. نم مستريحا» .

قال بنغمته الهادئة الاعتيادية : «افصح يا هذا عن الغرض من وقوفكم هنا ا وارجعوا من حيث اتيتم» .

فقال وهو يخفض صوته تهيبا من اوباس : «اننا مأمورون بالقبض على قداستكم حالما تهمون بالخروج من هذا المنزل» .

فاستشاط أوباس غضبا ولكنه ظل هادئا وقال : «مأمورون بالقبض علي ؟! ومن أمركم بذلك ؟!» . قال : «يعذرني مولاي فاني مأمور لا يسعني الا الطاعة . اننا مأمورون من قائدنا الاكبر بناء على امر مولاي الملك ، فهل نستطيع مخالفة الامر» .

قال : «كلا . بل انا أحرضكم على الطاعة دائما» . قال ذلك وأعمل فكرته للمسارعة في الامر خوفا من وصول فلورندا في تلك الساعة فقال: «اني خارج الان معكم ، ولا حاجة بكم الى انتظار الصباح» .

قال الرجل : «ما في الامر يا مولاي ما يدعو الى هذا القلق . فلو مكثت في منزلك شهرا ما مسناك » قال : «بل انا خارج الساعة . هلم بنا» .

فأشار الضابط الى فرسانه اشارة يفهمونها ، فتجمهروا وأتوا بجواد

ركبه أوباس وساروا به وهو في وسطهم والكل سكوت لا يجسرون على التكلم في حضرته ٠ اما هو فكان في اثناء الطريق يفكر في الامر الذي ساقوه لاجله وقد عزم على الثبات والتعقل ٠ غير ان ذهنه ما زال مشتغلا بفلورندا وخاف ان يلتقوا بها في ذلك الطريق ٠ فلما وصلوا بأوباس الى قصر الملك هم بالترجل فأشار اليه الضابط انهم مأمورون بسوقه الى مخفر بقرب القصر الى الصباح ٠ وقال الضابط : «ولهذا السبب قلت لقداستكم ان تبقوا في منزلكم الى الصباح لاننا اردنا بذلك المحافظة على راحتكم» ٠

فاقتنع أوباس باخلاء الطريق لفلورندا واو ألحق بنفسه بعض العنف ريثما يلقى الملك ويرى ما يريد منه ٠ فدخل غرفة في بيت بجانب القصر، والحرس بالباب ، فقضى بقية الليل يخطر في تلك الغرفة ذهابا وايابا وهو يفكر فيما عسى ان يكون غرض الملك من القبض عليه ، وخطرت له خواطر كثيرة وتهم شتى ربما يتهمه رودريك بها ، وما كان يهتم بشيء او يهاب الموقف لو انه اطمأن الى نجاة فلورندا ٠

وكان ينتظر طلوع الفجر وتبدد جيوش الظلام رغبة منه في الاطلاع على سر هذه الدعوة ٠ ولكن مضى بعض النهار دون ان يطلبه احد فازداد قلقه فاستدعى رئيس الحرس وسأله : «وماذا عسى ان يكون اخر هذا الاسر ؟»

فقال : «لا أدري يا سيدي ، فعسى ان يكون خيرا ٠ ولو عرفت سر ذلك ما اخفيته على سيادتكم» ٠

قال : «اني في حاجة الى منزلي ، فاذا لم يكن هناك ما يدعو الى سرعة المقابلة فليطلقوا سبيلي ، ثم اذا اراد الملك مني امرا جئته» ٠

فنظر الضابط الى أوباس وفي عينيه خبر يتردد بين كتمانه واظهاره ، فأدرك أوباس ذلك فيه فقال : «ما الذي تضمره ؟٠ قل» ٠

فقال : «انك ذهبت الى منزلك لا تجد فيه احدا» •
فبغت اوباس وقال : «وكيف ذلك ؟»
قال : «لانهم قبضوا على كل ما فيه من الخدم والعبيد ، وهم في السجن الان وأبواب المنزل مقفلة !»

فلما سمع أوباس قوله تحقق عزم الملك على الفتك به جهارا ، ولولا رزانته لبدت البغتة على وجهه • ومما زاد قلقه خوفه على فلورندا ، اذ تبادر الى ذهنه انهم لم يقبضوا على اهل منزله الا لانهم رأوها فيه ، على انه لم يبال بالامر بل نظر الى الضابط وقال بسكينة وتعقل : «لن ينفعهم ذلك شيئا» • ثم تحول الى الداخل فخرج الضابط الى مكانه •

وكان ذلك الضابط ممن يعرفون فضل أوباس وعائلته ، ولكنه كان وأكثر رجال الدولة مسوقين مع التيار الاكبر . يرون الحق ويقولونه ولكنهم لا يعملون به ــ شأن الدول في انحلالها وتقهقرها ، فانها لا تخلو في اثناء ذلك الانحلال من رجال عقلاء يشعرون بما اصاب دولتهم من الخلل ، وينتقدون اعمال حكومتها فيما بينهم وهم خارج المناصب ، ويزعمون انهم لو أتيح لهم الوصول الى تلك المناصب لادخلوا في الحكومة اصلاحا كبيرا ، فاذا تولى احدهم رأى نفسه مضطرا الى مجاراة التيار كما فعل أسلافه ، واذا حاول مقاومة عرض نفسه للخطر ، ويندر ان يطول بقاؤه على عزمه القديم وهو في منصبه لعجزه ، وهو فرد ، عن مقاومة مجاري الاحوال ــ وهي انما بلغت تلك الدرجة من الانحطاط بتوالي الاجيال ، والبدن اذا بلي بالضعف من الهرم لا يرجى عوده الى الشباب ، الا ان يكون المصلح في اكبر المناصب • فقد يأتي باصلاح ذي بال ولكنه يذهب بذهابه •

وقد كان في طليطلة كثيرون ممن يرون الخلل المنتشر في الدولة ، ولكنهم لم يكن لهم سبيل الى مناصبها الكبرى • وأما صغار المستخدمين

فليس لهم الا التذمر والكظم كما كان شأن ذلك الضابط .

* * *

جلس أوباس على احد مقاعد تلك الغرفة ، واستغرق في الهواجس حتى مضى بعض النهار . فلما رأى الخادم آتيا اليه بالطعام تحقق ان مكثه سيطول ، فزاد قلقه وأبى الطعام ورد المائدة ، واستقدم الضابط وقال له: «اني لا استطيع طعاما قبل ان اعرف سبب هذه المعاملة ؟»

فقال : «ارى يا مولاي ان تكتب كتابا أحمله الى مجلس الملك ، لعلي آتيك بالجواب الشافي» .

فاستخرج أوباس من جيبه لوحا مشمعا كتب عليه بالمسمار ما معناه: «حملني جندك الى هذا المكان بلا ذنب اقترفته . والملك يعلم ان رجال الكهنوت لا تجوز معاملتهم على هذه الصورة ، وانما هم تحت سيطرة الكنيسة . فلا أدري سبب هذا السجن ، الا ان يكون ذلك من جملة ما تطرق الى حياة هذه الدولة !»

فحمل الضابط الكتاب وسار به الى القصر ، ولم تمض برهة حتى عاد وهو يقول : «ان الاب مرتين داخل لمقابلة قداستكم» .

فلم يسر اوباس لمقدمه الا على رجاء ان يستطلع منه سبب ذلك الاسر، وقد علم انه آت بأمر الملك . فظل جالسا حتى دخل مرتين مهرولا وهو يتمتم كأنه يتلو بعض الادعية ، ووقف بين يدي أوباس فحياه ، وتظاهر بأنه يهم بتقبيل يده مراعاة لرتبته الكهنوتية ، فلم يبال أوباس بذلك بل ظل ساكتا . فجلس مرتين على كرسي تجاه المقعد وهو يبتسم .

وبعد ان تنحنح الاب ومسح وجهه ولحيته غير مرة استعدادا للكلام، قال وهو يقطع الكلام قطعا : «قد بعثني مولاي الملك لابلغ قداستكم انه يعلم امتيازات الكهنة ، وانه لا يجوز سجنهم او محاكمتهم الا في

مجالس كهنوتية ، ولكنه انما أمر بالقبض عليك مؤقتا ريثما يلتئم مجلس الاساقفة وينظر في امرك» .

فلما سمع أوباس قوله زاد استغرابا ولم يفهم المراد تماما ، لان مجمع الاساقفة انما يجتمع مرة في السنة او مرتين ، ولا يجتمع فيما عداهما الا للنظر في أمور غاية في الاهمية ، كانتخاب الملك ، او البحث في خطر يتهدد المملكة ، او غير ذلك ، كما ان اجتماعه يقتضي مكاتبة اساقفة الاقاليم والمطارنة مما يستغرق اياما عديدة . فأطرق اوباس وأعمل فكرته في هذا الامر ولم يجب .

وكان الاب مرتين لما فرغ من قوله قد ثبت بصره في أوباس ليستطلع ما يبدو منه . وكان يتوقع استياءه وغضبه ليشفي ما في نفسه . فلما رأى انه لم تظهر عليه علامات الاضطراب توهم ان ذلك ناتج من عدم ادراكه خطر ما يترتب على ذلك الاجتماع فقال : «ولا يخفى على قداستكم ان جمع الاساقفة يقتضي في العادة زمنا طويلا ، ولكن نظرا الى مجيء اكثرهم الى طليطلة لتهنئة مولاي الملك بعيد الميلاد فلن يطول الانتظار في جمع المجمع» .

ثم اراد ان يلمح له بالتهمة الموجهة اليه فقال : «ويسوءني يا صاحب القداسة ان تفرط منكم اقوال تدعو الى اساءة ظن الملك كما فعلتم في مساء الامس . وهل كان يليق بمثلكم ان يهدد مولاي بالخلع مما لم اكن لاصدقه لولا وجودي وسماعي اياه بأذني ، وقد لمحتم بمثل ذلك ايضا في كتابكم اليه الان !؟»

* * *

فأدرك أوباس انهم يريدون محاكمته بتهمة سياسية ضد الملك ، فاستعظم التهمة ولكن باله استراح لوقوفه على حقيقة الخبر ، فلم يسر

فائدة من الكلام مع مرتين في هذا الشأن ، علاوة على انه يشفي غله بذلك الكلام ، فوقف بهدوء ورزانة وقال : «صبرا الى يوم الاجتماع . وكأن رودريك لا يريد ان يبقي عندي شك بقرب سقوط دولته فزادني بعمله يقينا بدنو أجلها !» . قال ذلك ومشى دون ان يترك للاب مرتين فرصة للجواب ، فنهض هذا وقال وهو يظهر الشفقة عليه : «ألا تزال تقول ذلك؟ يا للعجب !. كيف يطيعكم ضميركم على المؤامرة ضد الملك وسلطانه وحياته ، وأنتم تعلمون ان الكنيسة هي التي نصبته باجماع اساقفتها ؟!»

فأدرك أوباس انه يريد التطويل لمضاعفة التهمة عليه وشفاء غله ، فتركه يتكلم وتحول عنه الى نافذة تطل على الحديقة ، فلما رأى مرتين ذلك منه ضحك وهرول مسرعا نحو الباب ونادى الضابط وقال له : «يأمرك الملك ان تحتفظ بهذا السجين لان امره ذو شأن ، واحذر ان يفلت منك !» . وخرج الاب مرتين ظافرا منتصرا لولا ما ساءه من رباطة جأش اوباس وتأنيه وصبره . اما اوباس فانه عاد الى اعمال الفكرة وباله ما زال مشغولا على فلوراندا . فتذكر الفونس وخروجه بالامس لقيادة الجند ، فأراد الاستفهام عن مقره فعاد الى الباب واستدعى الضابط وسأله : «هل علمت بخروج الامير الفونس من طليطلة ؟»

قال : «علمت ان فرقة خرجت من طليطلة بالامس ، ولا ادري اذا كان الامير معها ام لا» .

فترجح لأوباس ان الفونس سافر مع تلك الفرقة . ولكنه ظل مشتغل الخاطر بفلوراندا لا يدري ما آل اليه امرها ، وخاف ان تكون قد وقعت في الاسر في جملة اهل منزله ، وهم انما قبضوا عليهم من اجلها — وود لو استطاع استطلاع امرها من احد ، وحدثته نفسه ان يستفهم الضابط ولكنه خاف عاقبة ذلك ، ولم يغره ما بدا من انس الضابط وحسن معاملته لعلمه ان الذين يطابق ظاهرهم باطنهم قليلون ، وأقل منهم الذين

يثبتون على عزمهم فيما تدعوهم اليه ضمائرهم ، فخاف ان هو كاشفه بحديث فلوروندا او تظاهر لديه بالاهتمام بها ان يبوح بذلك لدى احد فيتخذ حجة عليه ، مع ثقته في اخلاصه وولائه .

وهكذا قضى أوباس في محبسه بضعة ايام وهو ينتظر التئام المجمع. ولم يوفق الى سبيل للاستفهام عن فلوروندا ولا اتفق له سماع شيء عنها .

* * *

اصبح اهل طليطلة ذات يوم وقد دقت فيها النواقيس وزينت الشوارع ـ خصوصا الشارع الكبير المؤدي من قصر الملك الى الكنيسة الكبرى ـ واشتغل العبيد بكنسها وتنظيفها ، ووقف الحرس صفين بين القصر والكنيسة وفي أيديهم الحراب وعليهم الملابس الرسمية التي يلبسونها في الاحتفالات الكبرى ، فتساءل الناس عن سبب ذلك وتقاطروا الى الشارع الكبير ، وتطاولوا من النوافذ وأشرفوا من السطوح يتوقعون مشهدا جميلا !.

وكان يوما صاحيا تجلت به الشمس على ابنية طليطلة ونهرها وبساتينها ، فلما كان الضحى عج الشارع بالضوضاء ، فالتفت الناس فاذا هنالك فرقة من فرسان الحرس الملوكي بالملابس المزركشة قد خرجوا من قصر رودريك يأمرون المارة باخلاء السبيل لموكب الملك . وعلى بضعة عشر مترا وراءهم زمرة من الشمامسة بالالبسة الزاهية يتخللها الوشي المذهب ، بعضهم يحملون صلبانا قائمة على عمد ، والبعض يحملون الشموع ولكن قلما يظهر نورها لطلوع الشمس ، فضلا عن ان اكثرها طفيء بهبوب الرياح لان طقس الشتاء في طليطلة وان كان صافيا فانه لا يخلو من الريح الهابة لوقوعها على جبل ، وبعضهم كان يحمل اغصانا من

الزيتون ، وآخرون في أيديهم المباخر يتصاعد منها البخور وهم يترنمون بأناشيد لاتينية • وبعد حملة الشموع فرس عليه رودريك بتاجه وحوله الاساقفة بملابسهم الرسمية ووراءهم المطارنة والشمامسة وغيرهم من رجال الاكليروس ، ووراء ذلك كوكبة من الفرسان • فلما رأى اهل طليطلة ذلك الموكب علموا ان الاساقفة قادمون للاجتماع ، ولكنهم استغربوا ان يقع ذلك في غير موعده المعتاد •

وكانت المجامع الدينية في اسبانيا ثلاث درجات : المجامع الكبرى ، والمجامع الاقليمية ، والمجامع الابرشية • فالاولى تجتمع بأمر الملك في طليطلة للنظر في الامور المهمة المتعلقة بالمملكة كانتخاب الملك او المصادقة على قانون او نحو ذلك ، مثل اجتماعه في ذلك اليوم للنظر في التهمة الموجهة الى اوباس • والمجامع الاقليمية تجتمع في الاقاليم بأمر الاساقفة مرة او مرتين في السنة • والمجامع الابرشية يحضرها رؤساء الاديار والقسوس والشمامسة ونحوهم • فلما رأى اهل طليطلة موكب المجمع الاكبر في غير أوانه خافوا ان يكون هناك ما يتعلق بحرب او عزل او تولية •

اما الموكب فظل سائرا حتى وصل الى الكنيسة فتنحى الفرسان الى كل من الجانبين ، وانقسم الشمامسة بشموعهم وصلبانهم ومباخرهم الى قسمين ، دخل كل قسم من باب جانبي ، وترجل الملك والاساقفة والمطارنة ودخلوا من الباب الاوسط • وكان خدمة الكنيسة قد بكروا بتنظيفها ووضعوا المقاعد والكراسي في الترتيب اللازم في هذا الاجتماع ، وأناروا الشموع وفتحوا الابواب ، ووقفوا ينتظرون الموكب ويمنعون كل من ارادوا الدخول اذا لم يكونوا ممن يخول لهم حضور المجامع ، من اساقفة طليطلة والاقاليم المشتركة معها ، والمطارنة ورؤساء الاديار والشمامسة والخوارنة وكبار رجال البلاط الملوكي • فلما دخل الموكب الى الكنيسة

اتخذ كل منهم مجلسه . وكانت المقاعد قد رتبت صفوفا متعاقبة جلس الاساقفة على الاولى منها بترتيب الاعمار ، ووراءهم الاساقفة الصغار بحسب الاعمار ايضا ثم القسوس وأمامهم الشمامسة واقفين . وفي وسط القاعة امام تلك المقاعد كرسي خاص بكاتب سر المجمع . وهناك عرش مزخرف أعدوه للملك . وبين يدي العرش مقاعد لمن يشهد الاجتماع من خاصة الملك . اما الاب مرتين فكان المفروض لكونه قسيسا ان يجلس بين القسوس وربما كان في مقدمتهم جميعا لكبر سنه ، ولكنه فضل الجلوس بجانب الملك لسبب لا يخفى .

* * *

ولما استقر كل واحد في مجلسه أقفلت ابواب الكنيسة واستولى السكوت على تلك القاعة الكبرى برهة لا ينطق احد بكلمة . ثم تكلم رئيس شمامسة الكنيسة وهو جالس بجانب الهيكل فقال باللاتينية : (Cremus) اي «فلنصل» . فكان لقوله هذا صدى قوي . اذ لم يكد ينطق بتلك اللفظة حتى خر الجمع سجدا على ركبهم . وأخذ كل منهم يصلي لنفسه بصوت منخفض . ثم قطع صلواتهم اكبر الاساقفة سنا بصلاة قالها بأعلى صوته فأصغوا له . ولما فرغ منها صاح الجميع «آمين» . ثم قال رئيس الشمامسة باللاتينية : (Surgite fratres) أي «انهضوا ايها الاخوة» . فنهضوا وعاد كل الى مجلسه . وعند ذلك افتتح الجلسة كاتب السر بتلاوة قانون الايمان (نؤمن باله واحد الخ) على نحو ما تقرر في مجامع القسطنطينية . ثم وقف شماس عليه ثوب ابيض ناصع ، وبين يديه كتاب ضخم على حمالة بجانب مجلس كاتب السر وقد فتح الكتاب في مكان اختاره وكان الاساقفة وسائر الحضور ينتظرون ما سيتلوه ذلك الشماس ليعرفوا منه موضوع الاجتماع لان ذلك الكتاب

قانون المملكة ــ وكانت عادتهم اذا التأم المجمع ان يقرأ الشماس فقرات من ذالك القانون تتعلق بالغرض الذي اجتمعوا من اجله ــ فاذا هو يتلو مواد متعلقة بانتخاب الملك وبمن يسعى في افساد نيات الشعب عليه أو يتعمد خلعه ونحو ذلك ، فأدرك الجمع الغرض من ذلك الاجتماع على وجه التقريب .

فلما فرغ الشماس من تلاوة تلك المواد وقف كاتب الجلسة ووجه خطابه الى الحضور قائلا : «ربما تستغربون ما تلوناه على مسامعكم والاحوال على ما يتراءى لكم هادئة : ولكنني أبلغ قداستكم اننا اجتمعنا للنظر في تهمة موجهة الى اخ من اخواننا ــ وللاسف انه اسقف من الاساقفة ، ربما استغربتم عدم حضوره هذه الجلسة مع انه مقيم في طليطلة ، ولا شك انكم عرفتموه» فلما قال الكاتب ذلك ضج الاساقفة وتهامسوا في شأن اوباس ، وأكثرهم لم يستغرب اتهامه بخلع رودريك لما يعلمونه من علاقته بالملك السابق وطمعه في الملك لابنائه . ثم قال الكاتب : «وسنستقدمه ويقف بين أيديكم وقفة المتهم ، فاما ان يبرىء نفسه او يجري عليه القصاص» .

فلما فرغ الكاتب من كلامه تكلم احد الاساقفة الجالسين في المقعد الاول وقال : «لا بد لكل تهمة ممن يوجهها وممن توجه اليه ، وقد علمنا ان المتهم هو اخونا اوباس ، ولكننا لم نعلم من يتهمه بذلك ؟»

فأجاب الكاتب : «انكم ستعلمون ذلك متى حضر» .

فسكت الجميع وتربصوا ينتظرون قدوم اوباس وسماع محاكمته ، فانفرد احد الشمامسة ومشى الى غرفة تستطرق الى باب سري فتوجهت أنظار الاساقفة الى تلك الجهة ، ثم ما لبثوا ان رأوا اوباس داخلا بمشيته المعهودة وقامته المعتدلة وجلال محياه وهيبته ، وليس على وجهه شيء من دلائل الاضطراب او الوجل . فلما وصل الى الساحة الوسطى امام

مجلس الاساقفة أجال نظره فيهم ثم التفت الى مجلس الملك ولم يعر الاب مرتين انتباهه كأنه لم يكن موجوداً هناك، ووقف وقفة قاض لا وقفة متهم!

وقف وهو ينظر الى من حوله نظره الى اناس ضعفاء ، فلم يهمه عددهم ولا ما في أيديهم من السلطة النافذة ، خصوصا الملك لان اوباس كان يعده غلاما غرا ، وزاد احتقارا له بعد ما عاينه من امره مع فلورنداء والرجل الحر يقدر الناس بفضائلهم ، لا بمناصبهم ، وان كان الناس قد تعودوا احترام اهل المناصب والغنى والنفوذ ، ولكنهم لا يزالون في باطن سرهم يفضلون رجال الفضيلة ، ولا يعدون احترامهم لغيرهم الا تظاهرا، خوفا من الظلم او التماسا للنفع . على ان منهم من يبالغ في اطراء اهل النفوذ حتى ينخدعوا بأنفسهم ويزداد ضررهم . فاذا كثر اولئك المتملقون في بلاط ملك ضعيف اغتر بنفسه ، وانقاد لاهوائه وعمل بمشوراتهم وهم لا يصلحون للشورى ، فتنحل الامور ، ويسود اهل الفساد ، وتؤول الاحوال الى الدمار والعياذ بالله !

وكان اوباس ممن لا يذعنون الا للحقيقة ولا يخيفه الا الخروج عن جادة الحرية . ولم يكن يشعر انه حي لنفسه رغبة في الحياة الدنيا او طمعا في مناصبها او ملاذها . ولكنه كان يرى نفسه منذ اعتزل العالم وانتظم في سلك الكهنة انه انما يعيش عبدا لمبدأ يراه مجسما في مخيلته، ويستغرب تغافل الناس عنه — كان يرى نفسه اسيرا للحق ، عبدا للحقيقة وحرية الفكر ، لا يعرف المداهنة ولا المراوغة — فلا تعجب اذا رأينه واقفا في ذلك المجلس غير هياب ، وهو يرى الحق اعظم منهم وأشد هيبة ..

فلما وقف الكاتب ووجه خطابه نحوه قائلا : «أبلغ سيادتكم اننا استقدمناكم الى هذا المجمع لتهمة موجهة اليكم ، يتمنى كل واحد منا ان تكون باطلة فتبرأ ساحتكم . انكم متهمون بالمؤامرة على خلع الملك . ولا يخفى على سيادتكم ان مثل هذه التهمة لا تمس الملك فقط ، بل هي

تتناول هذا المجلس كله ، لانه هو الذي انتخبه وأقره» •

وكان الاب مرتين في اثناء كلام الكاتب شاخصا بعينيه ، متطاولا بعنقه ، فلما سمعه يقول ذلك اشار باطباق جفنيه وهز رأسه ان «احسنت !» لانه حسب ذلك يزيد نقمة الاساقفة وسائر اعضاء المجمع على اوباس الذي لم يعبأ بما يبدو من احد ، فلما فرغ الكاتب من كلامه استولى السكوت على الجلسة وتطاولت الاعناق لسماع ما يقوله اوباس فاذا هو يقول بصوت هادىء : «سمعت كلامك وما تقوله من امر اتهامي، ولكني لا اجيب عنه قبل ان اعرف الرجل الذي يتهمني» •

فالتفت الكاتب نحو الملك وحنى رأسه كأنه يقول : «جلالة الملك نفسه ! »

فقال اوباس : «وما هي أدلته على هذه التهمة ؟» فلم يسع الكاتب الا الالتفات الى رودريك كأنه ينتظر جوابه على قول اوباس ، فأشار الملك الى الاب مرتين ان يجيبه ، فوقف مرتين وقد نسي التأني ورباطة الجأش وعاد الى فطرته العجولة • فلما رآه الاساقفة يهم بالكلام اصاخوا بأسماعهم لما يقوله لئلا تفوتهم ألفاظه بالتمتمة فلا يفهمون مراده — وعلى جوابه سيبنون حكمهم — فقال : «أتطلب الادلة على ثبوت التهمة عليك وكل القرائن تؤيدها ؟» يكفي انكم منذ كان الملك السابق حيا لا تزالون تسعون في خلع طاعة الكنيسة الكاثوليكية والرجوع الى الاريوسية ، وقد كان تنصيب جلالة الملك ضربة كبيرة عليكم جميعا ، فأخذتم تبذلون كل مرتخص وغال في مقاومته ولكنه مؤيد من الله والكنيسة !• ومن عجيب امرك انك تطلب الشهادة على صدق قول جلالته» • ولم يبلغ الى هنا حتى تعبت آذان الحاضرين من كلامه المتقطع ، فالتفت اوباس الى الحضور وهو يتبسم ، وقال : «بل من العجائب استغراب طلب الدليل على تهمة موجهة نحو أسقف يحمل جسد الله بين يديه ، تهمة أقل ما يقال

فيها انها مختلقة !« نعم مختلقة ولو قالها الملك ، لان الحق فوق الملوك والاساقفة . ثم لا ادري ما الذي يسوغ هذه التهمة ؟! وكيف يقال اني تآمرت على خلع هذا الملك ؟! فمع من تامرت ؟ وأين ؟ وكيف ؟ وكيف؟ وهل تكون المؤامرة او التواطؤ الا بين جماعة ؟ فمن هم رفقائي في التهمة ؟ انه قول غير معقول . ولست اقول ذلك فرارا من العقاب لان العقاب لا يهمني !»

فلم يصبر الملك عن جوابه بنفسه ، فقال وقد حملق عينيه وقطب حاجبيه : «يا للعجب من هذه الوقاحة !« كيف تنكر ، وقد سمعتك بأذني هذه تهددني بقرب انقضاء هذه الدولة ، وانه يهون عليكم اخراج الملك من يدي ؟ هل تنكر ذلك وقد سمعه الاب مرتين ايضا ؟ فهل من دليل اوضح من هذا ؟! »

وكان الاساقفة ميالين الى التصديق لاسباب منها ان اكثرهم يكرهون اوباس لحرية ضميره وشدته في الحق ، ولانه قوطي . ناهيك بالقرائن التي تساعد على ثبوت التهمة ، لان اهل طليطلة كلهم يعرفون كره بيت غيطشة أجمعين لرودريك وكل من يقول بقوله — خصوصا الاساقفة — لبواعث تقدم بيانها . فلما سمعوا شهادة الملك نفسه وشهادة قسيسه مالوا الى الحكم على اوباس . وزد على ذلك انهم كان يمكنهم الحكم عليه بدون محاكمة ، ولكنهم اجتمعوا ذلك الاجتماع ليقضوا به شبه واجب عليهم . فلما فرغ الملك من كلامه وجهوا أبصارهم نحو اوباس ليسمعوا قوله ، فرأوه لا يزال على ثباته ورباطة جأشه . وقبل ان يشرع في الجواب اعترضه احد الاساقفة قائلا : «اني لاعجب من نقمة بعض رجال القوط على تنصيب جلالة الملك ، وتنصيبه انما كان بالانتخاب على مقتضى قوانين الدولة والكنيسة . والذين يدعون الحق لابناء غيطشة او غيره من اعضاء عائلته في الملك انما هم مخطئون . لان الملك في اسبانيا الان

انتخابي كما لا يخفى على سيادتكم ، ولا يجلس على هذا العرش الا الذي ينتخبه هذا المجمع المقدس . فهل تنكرون ان جلالة الملك منتخب على هذه الصورة ؟»

فلما سمع أوباس ذلك ادرك انهم يحاولون ايقاعه فلم يبال بل قال وقد وجه خطابه الى الاسقف : «ان هذا السؤال يا حضرة الاسقف خارج عن موضوع التهمة ، ومع ذلك فاني اجيبك عنه . نعم ان هذه المملكة اكثر ممالك اوربا خضوعا للكنيسة ، وأساقفتها هم الذين ينصبون الملك كما ذكرت ، ولا انكر ان جلوس هذا الملك كان بانتخاب هذا المجمع فانتخابه كان قانونيا ، وان كنت لا أعتقد ان المجمع توخى كل الطرق القانونية بنقل الصولجان من الملك المرحوم اليه مما لا اخوض فيه الان . ولكني لا اخفي عليكم ايها السادة انني ارى الكنيسة قد تمادت بسلطتها في هذه المملكة دون سائر الممالك حتى تجاوزت حدها ــ اقول ذلك وأنا من اعضاء الكنيسة ، ولا اظن احدا منكم يقول هذا القول ولو كان يعتقده ، لانه يغاير مصلحته !»

وكان الاب مرتين لما سمع تعريض اوباس بالمجمع في الانتخاب اشار الى الكاتب ان يدون ذلك القول امامه ليطالبه به ، ففعل . اما الاسقف الذي كان الكلام موجها اليه فأجاب قائلا : «يظهر انك تنكر فضل الكنيسة على المملكة ، وهل يخفى عليك ان الكنيسة الكاثوليكية هي التي حفظت النظام والتمدن في هذه القارة . وقد جاء أجدادكم الجرمان على اختلاف قبائلهم ــ وأكثرهم وثنيون ــ فتغلبوا على المملكة الرومانية وتفشوا في مدنها قبائل رحلا لا علم عندهم ولا تمدن ، فجمعتهم الكنيسة في أحضانها وهذبت اخلاقهم وجعلتهم أمما وممالك ، وهي التي حفظت لهم العلم والحكمة ، وهي التي دربتهم في كل شؤونهم السياسية والادارية ، ولولاها لكانت اوربا فوضى لا علم فيها ولا نظام».

فهم أوباس بالجواب ، ولكن الكاتب دق جرسا امامه اشارة الـــى التماس السكوت ، فسكتوا والتفتوا فرأوا الملك يهم بالكلام فأصغوا . وقال الملك وهو جالس على عرشه وصدره يتقدمه وشعره مرسل الـــى كتفيه من تحت تاجه : «لا حاجة بنا الى الخوض في مسائل لا علاقة لها بالموضوع . يكفي ما قد سمعتموه من كلامه الآن من استهجان اعمال المجمع في انتخاب الملك ، وانكم لم تنتخبوه بطرق قانونية . فمن يصرح بمثل ذلك في مجلس القضاء هل يستغرب اتهامه بالمؤامرة» .

فالتفت أوباس الى رودريك قائلا : «لا علاقة ايها الملـــــك بين استحساني الانتخاب او استقباحه ، وبين مؤامرة تزعمون اني عقدتهـا لخلعكم — نعم اني أشك في الطرق القانونية التي اتخذت في الانتخاب. ولكنني لم أبن عليها مؤامرة كما هو اعتقادكم» .

فاعترضه الاب مرتين قائلا : «وكيف لا يعتقد جلالته ذلك وقد سمعه من فيك كما سمعته انا ..؟ يا للعجب !» . قال ذلك والتفت الى الملك وقال : «يظهر ان امر المجادلة طال . بينما التهمة صريحة واضحة» .

فالتفت الملك الى الاساقفة وقال : «قد سمعتم ما قاله أوباس ، فاما ان يكون الملك رودريك تنصب على طليطلة بغير حق ، واما ان أوباس هذا قد لبس ثوب الكهنوت بدون استحقاق» . قال ذلك وقد اخـــذ الغضب منه مأخذا عظيما حتى لقد نزل من فوق عرشه ومشى وهو لا يفقه ، ثم عاد الى كرسيه وجلس بعنف ففهم اوباس انه يعرض بتجريده من رتبته الكهنوتية قصاصا له فقال : «لا تظن هذا التهديد يضعف عزمي في قول الحق ، لاني لست اسقفا بهذه الثوب ، ولا انت ملك بهذا التاج. وانما الاعمال بالنيات . ومهما اردتم بي من القصاص فذلك لا يقلل شيئا من اعتقادي ، ولكنه يزيد ذنبك يا رودريك امام الديان العظيم لانـــه سبحانه وتعالى يعلم السبب الذي من اجله نقمت علي وسقتني الى هذا

المجمع • وأنت تعلم وهذا الاب المحترم ايضا يعلم السبب الذي نقمتما من اجله حتى سقتماني الى هذا الموقف ، وما انا هائب موقفا اراني فيه محقا ولو لم ينصفني الناس ، فان الله نصيري وهو يعلم ما في القلوب».

فلما سمع الملك تعريضه بحديث فلورندا خاف ان يحرجوه فيصرح به ويذكر اسمها وحكايتها ، فتظاهر بالغضب ووثب من مجلسه وصاح فيه: «ويلك •؟ أبمثل هذا الكلام تخاطب ملك الاسبان ؟!» • ثم التفت الى المجمع وقال لهم : «اذا كنتم صابرين على اقواله فها اني أخلع نفسي او هو مخلوع من ساعته ••!»

فقال اوباس وهو لا يزال رابط الجأش : «لا بأس ايها الملك اذا انا خلعت هذا الثوب ، غير ان ذلك لا يغسلك من الرجس الذي تعمدت الانغماس فيه ، ومن اجله سمعت توبيخي ، فساءك الحق وثقل عليك ، فأردت الانتقام مني • ولكن الله ولي النقمة !»

فقاطعه رئيس الاساقفة قائلا : «ادعوك يا حضرة الاسقف باسم الكنيسة ان تسكت» • فلم يسع اوباس غير الاذعان ، واستولى على الجلسة السكوت برهة والكل مطرقون ، وربما تهامس البعض بكلام لا يسمع له طنين • وكان الاب مرتين في اثناء ذلك يجيل عينيه في الاساقفة يتصفح ما يبدو في وجوههم ، فاذا وقعت عينه على عين احدهم اشار بحاجبيه وشفتيه اشارة الاستهجان وهو يومىء الى اوباس •

اما هذا فكان واقفا وقوف رجل بريء الساحة ، واسع الصدر . يرسل بصره الى الاساقفة بلا اشارة ولا ملاحظة ، ولكن يظهر من سكون جأشه وما يتجلى في وجهه من الهيبة انه غير مبال بما قد يكون من عاقبة تلك المحاكمة ، لاعتقاده انه سيق اليها زورا وبهتانا — على انه تذكر ما دار بينه وبين الفونس قبل سفره ، وما تواطأ عليه من امر الملك ونحوه ، فرأى التهمة تصدق عليه من هذا الوجه ، ولكنه راجع ما صدر

من اقواله في تلك الجلسة فلم ير فيها ما يمنع انكاره حق الملك على رودريك وفيما هو يفكر في ذلك وقعت عينه على صورة كبيرة معلقة في بعض جدران الكنيسة تمثل السيد المسيح واقفا بين يدي بيلاطس للمحاكمة ، فتذكر قبوله الصلب دفاعا عن الحق ، فزاد استمساكا بسوقفه !

اما رودريك فكان قد عاد الى كرسيه ، ولما رأى المجلس ساكتا خاف ان يعودوا الى البحث فيواجهه اليه اوباس من تهم فالتفت الى رئيس الاساقفة وقال وهو يظهر الهدوء كمن له سلطان ان يدير آراء المجمع كما يشاء : «لقد كفانا ما سمعناه ، واذا رأيتم المسألة تحتاج الى نظر بعد كل ما بدا لكم من الادلة الصريحة ، فاني أحل هذه الجلسة ونؤجل البحث الى جلسة اخرى» •

فوقف الاب مرتين وقال بلهجته المعلومة موجها خطابه الى رودريك: «لا يتبادر الى ذهن جلالة الملك من سكوت اعضاء المجمع انهم يشكون في نطق جلالته ، او يخامرهم ادنى ريب من ثبوت التهمة على أوباس بعد الشهادة الصريحة التي أدليتم بها جلالتكم ولم ينكرها هو • بل أيدها بما فرط منه من العبارات الصريحة التي تدل على غضبه من هيئة الحكومة الحاضرة وممن كان لسبب فيها ، كأنه قال بصريح العبارة : «ان هذا المجمع قد خان البلاد بانتخابه جلالة الملك ••!»

فلما سمع أوباس قوله وما فيه من اثارة الخواطر عليه وجه خطابه الى رئيس الاساقفة قائلا : «قد سمعتم ما قاله الاب مرتين ، ولا أضمن انكم فهمتموه ، وكأني بكم تتوقعون انكاري ذلك خوفا من العقاب • كلا • اني أشك في قانونية انتخاب هذا الملك كما قلت لكم ، ولو خيرت ربما اخترت سواه • وأما الدعوى التي سقتموني من أجلها الى هنا فما هي في شيء من ذلك • ان رودريك هذا الذي تسمونه ملكا انما جمعكم

لمحاكمتي واتهمني هذه التهمة لاني نصحت له ان يرجع عن فظيعة هـم بارتكابها • ولولا خوفي من تدنيس هذا المكان المقدس بذكرها لكشفت القناع عنها ، ولو فعلت ذلك وأنصفتموني لباشرتم رجم هذا الجانـي بأيديكم ! »

فضج المجمع ، وهاج غضب الملك ، وخاف زيادة التصريح فتظاهر بالانفعال الشديد والاستغراب ولم يدر ماذا يقول ، فأنقذه الاب مرتين من تلك الورطة بقوله يخاطب كاتب الجلسة : «يرى مولاي الملك ان اخانا الاسقف قد تهور في أقواله وخرج عن طوره الى الخلط والهذر، كأنه جن لفرط ما خافه من سوء العاقبة فلم يفقه ما يقول ، ولذلك فمولاي الملك يأمر باقفال الجلسة حالا وتأجيل المحاكمة الى جلسة اخرى • ولا يجوز بعد صدور هذا الامر ان يفوه احد في هذه الجلسة بغير الصلاة الختامية » •

فنزل كلام الاب مرتين بردا وسلاما على رودريك ولم يسع الكاتب الا العمل بالاشارة لان للملك الحق في فتح الجلسة ورفعها دون سواه • ولم يكترث أوباس بذلك بعد ان قال ما قاله ولو بالتلميح ، ثم وقف رئيس الاساقفة فتلا الصلاة الختامية ، وانفضت الجلسة فخرجوا الـى منازلهم الا اوباس ، فانهم ساقوه تحت الحفظ الى مخفر اخر وأوصوا الحراس ان يحتفظوا به •

- ٦ -

فلنترك وباس وشأنه ولنعد الى الفونس وما كان من امره بعد ذهابه

بأمر الملك • فقد خرج من منزله ومعه يعقوب وسارا الى مقر المعسكر في بناء كبير بضواحي طليطلة وحولهما الفرسان الذين جاءوا بأمر الملك فأوصلوهما الى المعسكر وعادوا • فلما دخل الفونس استقبله الجند بالاحترام فترجل ومشى ، ويعقوب يسير بين يديه وليس معه من الخدم سواه وقد استغربوا منظره بما ذكرناه من اهماله لحيته وأثوابه ، حتى وصلوا الى غرفة خاصة بالقائد الكبير فاذا هو بخادم واقف هناك وبيده كتاب عرف الفونس من منظره الخارجي انه من الملك ، فخفق قلبه لفرط ما غاظه الكتاب الماضي ، فدخل ولم يطلبه حتى جلس في صدر الحجرة فاستأذن الرسول من يعقوب بالدخول على الفونس فاستأذن له ، فقال لا حاجة الى دخوله هات الكتاب منه ، فأخذه منه وجاء به الى الفونس وهو يقول : «لا تغضب يا سيدي ، لعل فيه امرا بالرجوع الى منزلك» •

فتناول الفونس الكتاب وفضه دون ان يتكلم فاذا هو من الملك يقول فيه :

«من رودريك ملك القوط الى القائد الباسل الفونس

«باسم الاب والابن والروح القدس

«اما بعد • فقد سبق ان كتبنا اليك بالذهاب الى كونتية •• ولم تعين لك المدينة التي تنزل فيها فانزل مدينة استجة Astgia من كونتينة بتيكة وأقم برجالك في احدى القلاع ريثما اكتب اليك بالجهة التي تذهب اليها ــ وقد ارسلت اليك مع هذا كتابا تدفعه الى كونت بتيكة ليتلقاك بالترحاب ويمدك بالمال عند الحاجة والسلام • كتب في قصر طليطلة» •

فلما فرغ الفونس ما قراءة الكتاب أمر يعقوب ان يأتيه من الرسول بالكتاب الاخر فجاءه به ودخل عليه وأغلق الباب وراءه وقدم له الكتاب وهو يتفرس في وجهه • فلما رأى ما فيه من الانقباض واليأس اراد التخفيف عنه فعطس عطسة ارتج لها ذلك البناء فانتبه الفونس ونظر الى

يعقوب فاذا هو ينظر اليه ويضحك ويهز رأسه ويحك ذقنـــه بأنامله ، فاستغرب الفونس ذلك منه وكاد ينتهره لو لم يسبق الى ذهنه ما آنسه من احترام عمه اوباس له واعتماده على اقواله ، وتذكر السر الــــذي توسمه في سيرته فابتسم له وقال : «ما الذي يضحكك يا يعقوب ؟ هنيئا لقلبك !» قال ذلك وتنهد ، فتنهد يعقوب وقال له : «بل هنيئا لك انت كيف تخدمك السعود على اهون سبيل !»

فهز الفونس رأسه وقال : «تبا لهذه السعود ، دعني وشأني !» . قال ذلك ونهض وهو يقول : «لا يليق بنا الاستتار هنا ونحن مأمورون بالذهاب الليلة ، ولا بد لي قبل كل شيء من استدعاء القواد وابلاغهم الامر بالاستعداد ، فامض الى قائدي الخمسمائة واستقدمهما الي» .

وكان الجند الاسباني في عهد القوط مؤلفا من فرق ، كل فرقة الف جندي يسمى قائدها رئيس المعسكر ، تحته قائدان كـــل منهما يرأس خمسمائة تقسم الى مئات اسم قائد كل منها قائد المائة . فالقائد العام يبلغ أوامره الى قائدي الخمسمائة وهما يتوليان تدبير الجند .. فخرج يعقوب ثم عاد وأخبر الفونس ان القائدين قادمان ، ثم جاءا وقد لبسا لباس السفر ، وشعرهما مثل شعور سائر القوط مسترسل على أكتافهما ودلائل الصحة بادية على وجهيهما وملامح النعم في قيافتهما . فلما دخلا سلما على الفونس باحترام وهما يعرفانه منذ كان ابوه حيا ويحترمانه من اجل ذلك ، وقد سرهما توليه قيادة تلك الفرقة لما يعلمانه من حميد اخلاقه وطيب عنصره . وكانا من اهل الغيرة على عصبية القوط ، لم يرضيـــا برودريك الا مع الجماعة ، فاذا خلوا تحدثا بما كان من تحول النفوذ الى العنصر الروماني بعد تولي رودريك ولكنهما لم يكونا يجسران على التصريح بذلك بين يدي احد ، حتى ولا الفونس نفسه لانه اصبح مثلهم في ذلك . فلما رآهما الفونس تذكر انه شاهدهما من قبل ، ولكنـــه

استغرب تأهبهما للسفر قبل ان يصدر لهما الامر بذلك فقال : «اراكما بلباس السفر ؟»

فتكلم احدهما واسمه «ومبا» ـ وكان طويل القامة شديد سواد العينين والشعر ـ وقال : «لقد وردت الينا الاوامر بذلك من جلالة الملك تعجيلا للرحيل ، فالجند الان كله على أهبة السفر ، انما يحتاج الى امر من مولاي الفونس» .

فلما سمعه يذكر اسمه استأنس به ، وشعر براحة اليه وقال : «نقلع من هذا المعسكر الان فأرجو ان تتوليا تدبير الجند في قيامه وقعوده الى ان نبلغ مقصدنا» .

فأشارا باحناء الرأس ان «سنفعل» ثم تكلم ومبا وكانت له جسارة وتقدم على رفيقه وقال : «ألا ينبئنا مولاي عن الجهة التي نحن ذاهبون اليها ؟ »

قال : «اننا ذاهبون الى استجة على نهر السنجيل في كوتية بتيكة . فهل تعرف الطريق اليها ؟»

قال : «أعرفها جيدا فان الطريق اليها نحو الشمال بغرب الى مريدة على نهر اناس ، فنقطعه ونسير شمالا بشرق الى قرطبة ، ثم ننحدر الى استجة على نهر السنجيل . وقد عرفت هذه المدينة وصليت في كنيستها ، وأقمت في قلعتها وعبرت جسرها وعرفت أديارها وأسواقها» .

قال الفونس : «بورك فيك ، لقد القيت الامر اليكما في تدبير هذه الحملة في اثناء المسير ، ولكنني أوصيكما بأمر يهمني كثيرا ، وذلك انني لا اريد ان يعتدي الجند في اثناء الطريق على احد من الفلاحين ولا ان يأخذوا لاحد مالا او زرعا او يسيئوا معاملة احد . فاذا فعل احد ذلك كان جزاؤه عندي الجلد او القتل ، واذا كان من أرباب الرتب جردته من رتبه وأملاكه وأهنته ، فاني أريد ان يسير هذا الجند بكل هدوء

وسكينة » .

فلما سمع ومبا ذلك ظهر الاعجاب في عينيه البراقتين وقال : «بورك فيك وفي اصل انت فرعه ، لقد عودنا المرحوم ابوك مثل هذا العدل والرأفة » .

فلما سمع قوله عض على شفته وأطرق كأنه يقول له : «ليس هذا وقت التصريح» ثم أتم كلامه قائلا : «وآمر الكهنة المرافقين لهذه الحملة ان يوصوا الجند بهذه الوصايا . ولا يخفى عليكم ان جندنا اكثر ما يحسنون الحرب مشاة فلا تتعبوا المشاة بالمسير ولا تحملوهم أحمالا ثقيلة . ويكفيهم ما يحملونه من الدروع والاسلحة» .

فلما فرغ الفونس من كلامه لم يزد ومبا على اشارة الطاعة ثم قال : «ألا يأمر مولاي بحاشية من الاعوان والموالي تسير في خدمته الخاصة» .

فأراد الفونس ان يصرح له بالتخفيف عن الموالي ، ولكن وقعت عينه على يعقوب فرآه يشير اليه اشارة خفية ألا يفعل ، فانتبه وقال : «لا أحتاج الان الى احد فان معي خادمي هذا ، وهو يدبر لي ما أحتاج اليه واذا احتجت الى سواه طلبت» .

فخرج القائدان فرحين بمرافقة الفونس . اما هو فلما خلا بيعقوب قال له هذا : «خفت ان يسبق لسانك الى قول تؤاخذ عليه ونحن بين يدي الاعداء ، واعلم يا مولاي انك موفق باذن الله لان الامر الذي كنت لا تستغني في الوصول اليه عن بذل الاموال واستخدام الرجال قد وصلت اليه عفوا» .

قال : «وماذا تعني !؟»

قال : «أعني ان المشروع الذي أسسته مع مولاي الميتروبوليت لقهر ذلك العدو الحاكم قد أتيحت لك فرصة الشروع فيه منذ الان . هذه فرقة من الجند الان تحت امرك فقربها منك وحببها اليك ببذل المال ..

المال ••!» قال ذلك وتلمظ كأنه يتلذذ بطعام شهي ! فقطع الفونس كلامه وقال : «ومن اين لنا المال يا يعقوب ؟» • فوضع يعقوب كفه على صدره وحنى رأسه وأطبق جفنيه ولسان حاله يقول : «المال عندي وعلـــي احضاره » •

فتذكر الفونس مثل ذلك الوعد بين يدي اوباس في ذلك الصبـــاح فتاقت نفسه الى استطلاع سر هذا الرجل فقال : «لقد أذكرتني وعدك السابق ، ولا يخفى عليك اني شديد الميل الى معرفة حقيقة امرك !»

فتحول وجه يعقوب الى الجد مع بعض الانقباض وقال : «يأذن لي مولاي بتأجيل ذلك الى وقت اخر • وأما المال فاني سأبين له سبيـــل الحصول عليه بعد وصولنا الى استجة ، والامور مرهونة بأوقاتها • طب نفسا وقر عينا ، وكن على يقين اني على قبح خلقتي وقذارة ظواهري لا أخلو من حسنات نافعة ! والآن لا بد لنا من الركوب لاني أسمع قرع الطبول ايذانا بالمسير» •

قال : «الي بالفرس فاركبه وتول امر الخدم وتدبير ما قد نحتاج اليه من الاطعمة ونحوها فانك نائب عني في كل ذلك ، ولا تدع احدا يأتي الي من الخدم» •

فخرج يعقوب وأحضر فرسا من احسن أفراس الحملة وعليه سرج ثمين ، وكان الفونس بلباس القواد وقد زينه شبابه وجماله • وقبيـــل الغروب أذن بالرحيل فأقلعت الحملة مارة قبل خروجها من ضواحي طليطلة بمرتفع يطل على المدينة ، وهي واقعة على مرتفع اخر ، فالتفت اليهـــا الفونس وقد بدت فيها الكنيسة الكبرى ، ولما وقعت عينه علـــى قصر فلورندا خفق قلبه خفوقا سريعا وهاج به الوجد ، وتذكر ما كان مـــن لقائه اياها في ذلك الصباح وما آلت اليه حاله في المساء ، ونظر الـــى السماء والغيوم تتكاثف وتتلبد اشبه بما يتكاثف على قلبه من سحب

الهيام والشوق ، وخيل له ان الطبيعة تشاركه في ذلك الشعور ــ والمرء مفطور على تطبيق حوادث البيعة على ما يوافق شعوره ، وتفسيرها بما يلائم اعتقاداته وأوهامه ــ فلا غرو اذا توهم الفونس ان السماء تجهمت شعورا بفراق حبيبته •

ولم تغب الشمس حتى اظلمت الدنيا وتساقطت الامطار وهبت الرياح ولم يعد المسير ممكنا لهم ، فأمر الفونس بالنزول هناك فنصبوا الخيام وفي جملتها خيمة له نصبوها حالا وجاء يعقوب فاستدعاه اليها ودخل هو معه • وكانت ليلة شاتية قاسى فيها الفونس من هول الوحشة والشوق مثل ما قاسته فلورندا فيها من العذاب ، وهو غافل عن حاله لاعتقاده انها على موعد منه ليأتي لانقاذها في ذلك المساء وقد وكل بذلك عمه اوباس•

فلما دنا الوقت المعين لانقاذ فلورندا تصورها الفونس خارجة من قصر رودريك مع اجيلا وشنتيلا في القارب الى منزل اوباس ، وتوهم انها اصبحت في مأمن هناك ريثما يبعث بها اليه حيثما يكون • ثم تذكر بغتة ان اوباس لا يعلم المكان الذي هم ذاهبون اليه ، فاتتبه للسبب الذي من اجله غير الملك خطة مسيره ، والتفت الى يعقوب وكان جالسا في بعض جوانب الخيمة وقد تزمل بقباء كثيف وتلملم وتجمع من شدة البرد، والرياح تهب والرعود تقصف ، وقال له ولم يحاذر ان يعلو صوته لعلمه بانشغال الآذان بقصف الرعد عن سماع حديثهما : «هل علمت السبب الذي من اجله غير الملك خطة مسيرنا ؟!»

فرفع يعقوب رأسه وقال ولحيته ترتعش من البرد : «أظنني عرفت وعرفت اشياء اخرى ، لولا البرد الشديد لكنت أقصها عليك» •

قال : «وماذا عرفت • قل لي واذا كنت تشكو لبرد فاليك بقدح من الخمر يدفئك » • قال ذلك وأشار الى «خرج» كان في الخيمة ويعقوب يعرفه ثم قال : «واعطني قدحا فأشربه انا ، فان مثل هذا الليل لا يذهب

وحشته وبرده الا الخمر !»

فتشدد يعقوب ووقف وأسنانه تصطك حتى ليكاد يسمع الفونس صوتها . ومشى حتى استخرج الوعاء وصب منه الخمر في قدح من الفضة كان هناك ، ودفعه الى الفونس فشربه ، وتناول قدحا اخر صب فيه لنفسه وشرب ، ثم صب قدحا اخر لالفونس وآخر لنفسه ، حتى اذا دبت الخمر في عروقه فأذهبت ارتعاشه ملأ القدح وتناوله ووقف بين يدي الفونس ورفع يده والقدح فيها وهو ينظر الى ما حوله كأنه يحاذر ان يراه احد وقال : «قد توهم رودريك انه خدم غرضه بارسالنا الى استجة، وفاته انه يخدم غرضنا اذ لا بد لنا من الذهاب الى هذه المدينة للمشروع الذي نحن عازمون عليه» .

فاستغرب الفونس قوله وضجر من الاحجية والالغاز وقال له : «لقد اضجرتني يا يعقوب من اشاراتك وألغازك ! لماذا لا تصرح لي بما في نفسك ؟ »

فانقلب وجه يعقوب الى الانقباض وقال : «قلت لمولاي ان موعدنا في ذلك قريب ان شاء الله . وأرجو ان لا يلح علي في الامر فان الالحاح مضر . اصبر يا مولاي وسأطلعك على كل شيء قريبا . واعلم ان رودريك هو الذي عجل كشف هذا السر بارسالنا الى هذه المدينة . وما أظن ثورتها الا من أمثال ما يحدث كل عام بين الرعايا المظلومين . ولا اخفي على مولاي ان اهل هذه البلاد في غاية الضنك من استبداد حكامهم . وكانوا يشكون ضغط الرومان عليهم ، فلما جاءهم القوط توهموا فيهم النجاة من نير الرومان فاذا هم تحت النيرين معا ، وقد اصبحوا أرقاء لا حرية لهم ولا منزلة ، ولا عقار ولا مال . فلما عاينوا ضعف هذه الدولة كثر تمردهم وهياجهم ، وقد سهل هذا الامر عليهم خطأ ارتكبه ملوك القوط المتأخرون مع جماعة اليهود فأكرهوهم على نبذ ديانتهم واعتناق

النصرانية فأصبح اليهود عونا عليهم» •

فقطع الفونس كلامه قائلا : «ولكن اليهود قد انقرضوا من اسبانيا الان ولم يبق فيها يهودي كما لا يخفى عليك !»

قال : «أعلم ذلك يا مولاي ، وأعلم ايضا ان ملوك القوط قبل المرحوم والدك شددوا في اضطهاد اليهود وخيروهم بين القتل او النصرانية او المهاجرة ، فهاجر بعضهم وتنصر الباقون ، فاختفت اليهودية ولكنها لم تندثر !» • ثم التف بعباءته وهو يقول : «ارانا خرجنا من الموضوع قبل الاوان ، وخلاصة الامر ان المهمة التي نحن ذاهبون فيها مهما يكن من امرها فاني ضامن اخمادها بدون ان نجرد سيفا او نرمي نبلا» • ثم تحول الى مجلسه الاول وهو يقول : «وقد آن وقت الرقاد، ألا يرغب مولاي في ذلك ؟»

فابتدره الفونس قائلا : «وقبل الذهاب الى النوم اسقنا كأسا اخرى واشرب مثلها» •

وناما تلك الليلة نوما عميقا برغم تساقط الصواعق وهبوب الرياح• وصحا يعقوب مبكرا وخرج لاعداد ما يحتاج اليه الفونس ، ولم تشرق الشمس حتى كانوا على أهبة الرحيل ، فقوضوا الخيام وركبوا على نظامهم ، وألفونس ويعقوب سائران على انفراد وهما صامتان • وبعد هنيهة عبروا الجسر فوق نهر التاج ، وبعبرهم اياه توارت طليطلة وراء التلال •

سارت الحملة بأثقالها وأحمالها جنوبا بغرب وقد صحا الجو وأشرقت الشمس وأرسلت أشعتها على البساتين والغياض والاودية والتلال ، وألفونس يعجب لما يقع بصره عليه من البقاع الخصبة وفيها أصناف الاشجار والمغارس ، ولكنه استغرب خلو المزارع من الناس ، ولو انه لم يكن يتوقع ان يرى فيها غير العبيد او من جرى مجراهم من الفلاحين

والحراثين ، وكان الاشراف وأصحاب الضياع يعاملونهم معاملة الارقاء اذ كانوا يعملون في المغارس والضياع ، وهم والارض وما يسرح فيها من الدواب والماشية ملك للاشراف الذين كانوا غالبا ما يقيمون في المدن حيث يقيم الحكام .

وكان الفونس قلما يخرج من المدن ، ولم يكن يهمه الالتفات الى حال اولئك الفلاحين ، ولكنه بعد ما دار بينه وبين أوباس بشأن الملك ، وما عزموا عليه من تحرير اولئك الارقاء والاعتماد عليهم في تحرير المملكة ، اصبح همه الالتفات الى البلاد وأهلها . فاذا هم يمرون في ارض لا يظهر لاهلها عناية في غرسها واستثمارها ، وقلما شاهدوا فيها احدا من الناس ، فلما تكرر ذلك المنظر لديه التفت الى يعقوب وكان راكبا جواده، وسأله في ذلك ، فأجابه قائلا : «ان الناس كثيرون ، ولكنهم تعودوا اذا رأوا جندا مارا بهم ان يختفوا من وجوههم فرارا مما يكلفونهم من الاعمال الشاقة وما قد يتطلبونه من المؤونة ونحوها ، ولم يخطر لهم ان يسيروا بهم مثل سيرهم هذا ، لا يتعرضون لاحد منهم في شيء . فان الجند لم يسر بهذا الهدوء الا بناء على امر مولاي !»

فتأثر الفونس من ذلك القول وتمثل له الخطأ الذي ترتكبه الحكومات الظالمة في تكليف رعيتها فوق طاقتهم فتعود الخسارة عليها وعليهم .

وقد قضى الفونس وحملته في الطريق بضعة ايام قطعوا في اثنائها سهولا خصبة ، وجبالا فيها كثير من مناجم الفضة والذهب ، وأودية يسيل فيها الماء فيسقي الغياض والبساتين فتجود بأطيب الثمرات لان ارض الاندلس من احسن البلاد خصبا وعمرانا وانما تحتاج الى من يتعهدها بالغرس ويظللها بالعدل ، الى ما كان فيها من مدن عامرة كان اول ما مروا به منها «مريدة» فقطعوا نهر «اناس» وساروا بضعة ايام اخرى الى قرطبة ، فعبروا نهرها وساروا الى «استجة» . وكانت مدينة

آهة على الضفة اليسرى لنهر سنجيل ، حولها سور متين عليه الابراج من صنع الرومان . ولا بد للقادم اليها من قرطبة ان يعبر على جسر فوق ذلك النهر ، فلما دنوا من المدينة في الضحى بعث الفونس رسولا بكتاب رودريك الى حاكمها فعاد الرسول ومعه نفر من جند المدينة ، وبيد كبيرهم امر بتسليمهم القلعة الكبرى المشرفة على النهر من يمينه ، والتي كان النهر يفصل بينها وبين المدينة وقد بنيت لاقامة الجند فاحتلوها ، وسار الفونس الى غرفة فيها هي احسن غرفها وأوسعها ، ولها نافذة مطلة على النهر والمدينة وعلى ما وراءهما وبين يديهما من البساتين والمزارع.

صعد الفونس الى غرفته وكان يعقوب قد سبقه اليها وأعد له ما قد يحتاج اليه من الراحة ، وأمر بعض الخدم فأعدوا طعاما حمله هو اليه فوضعه على مائدة في تلك الغرفة ودعاه اليها لانه كان منذ صعوده الى الغرفة قد جلس الى النافذة وخلا بنفسه فتذكر حبيبته وعمه ومجيئه الى تلك المدينة رغم ارادته ، وليس هناك ما يدعو الى قدومه الا سعي رودريك في ابعاده عن حبيبته ، ثم تصور القصد من ابعاده عنها وما قد يكون في عزم رودريك بشأن فلورندا ، فاقشعر بدنه وأحس كأن ماء غاليا ينسكب عليه ، لكنه تذكر الاحتياطات التي اتخذها لانقاذ فلورندا من ذلك القصر فسكن روعه .

وفيما هو في هذه الهواجس سمع وطء أقدام في الغرفة فالتفت فرأى يعقوب واقفا ويداه متقاطعتان على صدره كأنه يسمع الصلاة . فلما وقع نظره عليه هرول يعقوب نحوه وهو يبتسم ويقول : «ألا يأمر مولاي بتناول الغداء ؟»

فلم يسع الفونس الا الابتسام وقد انشرح صدره فوقف وأسرع الى المائدة ولم يتكلم ويعقوب سائر في أثره ، فجلس الفونس وظل يعقوب واقفا وقوف الخدم فأشار الفونس ان يجلس فأبى واعتذر . فقال

الفونس : «لم يعد يليق بي ان أعدك خادما بعد ما علمته من علو همتك وتفانيك في نصرة الحق» .

فقال يعقوب : «العفو يا مولاي انك لم تعلم عني شيئا بعد ، وما هي الا أقوال سمعتها ، فاذا رأيت مني عملا كبيرا ورأيت بعد ذلك اني أستحق مجالستك او مؤاكلتك فعلت» .

فتذكر الفونس وعده بكشف السر بعد وصوله استجة فلم يشأ ان يذكره بذلك لئلا يكون الجواب تسويفا ، فتجلد حتى يكاشفه هو من تلقاء نفسه ولكنه قال له : «لك الخيار يا يعقوب فيما تفعل . ثم انـي فهمت من بعض أقوالك انك عالم بفلورندا وحديثها !»

فأشار يعقوب باحناء رأسه ان «نعم !» . فقال الفونس : «ما رأيك، هل هي وعمي لا يعلمان مقرنا ، وهلا ترى ان نبعث اليهما لكي يقدما الينا ونحن هنا بعيدون عن ذلك الطاغية ؟»

قال : «لا تقل اننا بعيدون ! أتظن رودريك أبعدك عن قصره وأغفل امرك ..؟ ألا تعلم ان معظم رجال هذا الجند عيون عليك يراقبـون حركاتك ، لعلهم يتقربون بأذيتك الى البلاط الملكي ؟! وانه اذا هرمت الدولة واختلت شؤونها كثر فيها الجواسيس وتعددت اسباب الوشاية ، وفسدت النيات وأصبح الاخ عينا على اخيه والابن على ابيه ، يساعدهم على ذلك انغماس الملك في الترف واشتغاله به عن سياسة رعيته ، مع ما يحول من اهل التملق بينه وبين المتظلمين . فلا تثق بأحد ، ولا تأمن احدا الا اذا كانت مصلحته ومصلحتك سواء ، حتى يعقوب هذا !» . قال ذلك وأشار بسبابته الى صدره . فعجب الفونس لما سمعه ولم يكن قد اختبر شيئا من شؤون الناس ، ولا اطلع على فساد الطبيعة الانسانية. فسكت وعاد الى الاكل حتى فرغ من الغداء ويعقوب ما يزال واقفـا بين يديه .

فلما نهض الفونس عن المائدة قال يعقوب : «استرح يا مولاي الان وائذن لي في النزول الى المدينة ثم اعود اليك قبل الغروب ، وفي الغد ننزل اليها معا لنرى أسواقها وساحتها» .

قال : «انصرف ، وقبل انصرافك ابعث الي بالقائد ومبا لاخاطبه في امر الجند» . قال : «سمعا وطاعة» وخرج .

وعاد الفونس الى مجلسه بجانب النافذة وهو ما يزال بلباس السفر وعاد الى التفكير في فلورندا وأوباس ورودريك . ثم سمع وقع أقدام بالباب فتحول لملاقاة ومبا فدخل هذا وألقى التحية ، ووجهه منبسط اشارة الى ما يبطنه من الاحترام لالفونس والغيرة عليه . فرد الفونس التحية وسأله عن حال الجند فقال : «انهم في نظام وسلام ، يدعون للقائد الباسل بالرغد والظفر» .

قال : «هل سمعتم شيئا عن احوال الاهالي هنا ؟»

قال : «سمعنا انهم مستكنون لا يبدون حراكا ، ولعلهم ركنوا الى السكينة على أثر سماعهم بقدومنا» .

قال : «ارجو مع ذلك ان تسهروا على الاحوال ، وتواصلوا استطلاع الاخبار ، ولي في درايتكم ما يضمن الراحة» .

ففهم ومبا من غنة كلام الفونس واشارته انه فرغ مما يريده ، فحياه وتحول من الغرفة . ولما خلا الفونس بنفسه نهض فبدل ثيابه وعزم على قضاء بقية ذلك اليوم في الغرفة للاستراحة من متاعب السفر .

ولما مالت الشمس الى الغروب ولم يرجع يعقوب استبطأه الفونس وانشغل خاطره عليه وجلس الى النافذة المطلة على الجسر — ولا بد لمن يخرج من المدينة الى القلعة من المرور على هذا الجسر — فلم تمض برهة حتى رآه قادما وقد تأبط صرة فظنه قد جاءه بشيء من فاكهة المدينة فصبر حتى وصل الى القلعة ولبث ينتظر دخوله عليه ، لكنه ابطأ ثم دخل

بعد قليل ويداه فارغتان •

فقال الفونس : «ما الذي حملته الينا من المدينة ؟» • قال : «لم احمل منها شيئا لاننا ذاهبون اليها غدا» • قال : «رأيتك متأبطا شيئا فما هو ؟» • فضحك يعقوب وقال : «ذلك ليس شيئا ••»

فاشتدت رغبة الفونس في استطلاع حقيقة ذلك الشيء فقال : «هل ثمة ما يمنع اطلاعي عليه ؟» • قال : «الى الصباح يا مولاي ، ولا بد من اطلاعك عليه» •

وفي الصباح التالي نهض الفونس وبه شوق شديد الى معرفة ما في الصرة ، ولم يكد ينهض من الفراش حتى جاءه يعقوب بالثياب فغسل وجهه وسرح شعره ولبس ثوبه استعدادا للنزول الى المدينة وهو يتظاهر بالصبر على استطلاع ما في الصرة • فلما فرغ من كل شيء ولم يبق الا الخروج ، دخل يعقوب والصرة في يده وأقفل باب الغرفة وراءه • فوقف الفونس وتطاول لمشاهدة ما فيها ففتحها يعقوب واستخرج منها شيئا من نسيج اسود على نحو اقبية الكهنة ، واذا هما ثوبان اسودان كل منهما جلباب طويل يغطي الرجل الى أسفل القدم • فتناول يعقوب احدهما وبسطه وقدمه الى الفونس وهو يقول : «البس هذا الجلباب يا مولاي» • فوضعه الفونس على كتفيه والتف به فغطى كل أثوابه ، ولبس يعقوب الجلباب الاخر والتف به ، ثم مد يده الى طوق ذلك الجلباب من قفاه فاستخرج منه شيئا كالكيس معلقا به من بعض جوانبه وأرسل ما بقي منه على رأسه حتى اشتمل على الرأس والوجه جميعا • وفي غطاء الوجه ثلاثة ثقوب ثقبان للعينين وثقب للفم فأصبح يعقوب شبحا اسود • وتقدم الى الفونس فاستخرج الكيس من قفا ثوبه وألبسه اياه حتى صار مثله، وكان يعقوب يفعل ذلك وألفونس صابر ليرى نهاية هذا العمل ، فلما فرغ يعقوب من اللبس قال : «هذا الذي أتيتك به من استجة ، فانزعه الان

الى حين الحاجة» .

فاستغرب الفونس عمله هذا وقال : «ومتى نحتاج اليه ؟»

قال : «قريبا ان شاء الله . لا تكن لجوجا» . قال ذلك ونزع جلبابه والجلباب الاخر عن الفونس وطوى كلا منهما على حدة وجعل احدهما تحت دراعته من جهة الصدر . وأرخى الدراعة عليه حتى اختفى تحتها . وأتى بالجلباب الاخر وطواه وطلب الى الفونس ان يخفيه تحت دراعته ففعل وهو لا يفهم الغرض من ذلك . ثم قال يعقوب : «هلم الى الكنيسة ! »

خرج يعقوب وألفونس من القلعة وبينما هما على الباب التقيا بوميا فوقف هذا للتحية فقال الفونس : «اني ذاهب الى الكنيسة فاحتفظ بما عندك» . فأشار وميا برأسه ويده بالسمع والطاعة .

مشى الفونس ويعقوب يتبعه ، وليس معه من الخدم والاعوان سواه حتى مرا على الجسر ودخلا باب المدينة وهما لا يتكلمان . لان يعقوب لم يكن يقدم على الكلام الا جوابا على خطاب جريا على عادتهم في معاملة الملوك . وكان الفونس غارقا في الهواجس لا ينتبه لوجدانه . لما اجتذب خاطره من امر فلورندا ورودريك، وحديث يعقوب وذلك الثوب الاسود، ولم يفق من ذلك السبات حتى دخل الاسواق والناس يتسابقون فيها نحو الكنيسة . وبعد هنيهة افضى بهما المسير الى ساحة كبيرة في وسط المدينة . ولم يكن الفونس يعرف الطريق الى الكنيسة وانما كان يقتفي خطوات يعقوب او اشاراته . وبعد ان قطعا تلك الساحة أطلا على باب فخم تزاحمت عنده الاقدام بين داخل وخارج فوقف يعقوب هناك وقال: «هذا باب الشارع الاعظم ، وهذه هي الكنيسة» ، وأشار بيده الى باب كبير اخر فتحولا نحوه ودخلا مثل سائر الداخلين . والناس لا يعلمون من هو الفونس ولكنهم تبينوا من استرسال شعره ونوع لباسه انه من

الاشراف وأصحاب المناصب .

قضيا فروض الصلاة في تلك الكنيسة وهما لا يزالان صامتين . فلما انقضت الصلاة وخرج الناس خرجا معهم وألفونس لا يدري الى اين يذهب ، فتأخر حتى مشى يعقوب فتبعه وما زالا حتى خرجا من باب المدينة من الجهة الاخرى . فاستغرب الفونس ذلك ولم يتمالك عن الاستفهام فالتفت الى يعقوب وقال له : «الى اين نحن ذاهبان في هذه البرية ؟ »

قال : «اننا ذاهبان الى هذه الاكمة» وأشار الى تل قريب لا شيء من العمارة فيه . وما لبثا ان وصلا اليه فصعدا الى قمته وألفونس لا يفهم الغرض من كل ذلك فقال يعقوب : «انظر يا مولاي الى استحة بين أيدينا، وانظر الى سورها فانك ترى على بعض هذا السور برجا عاليا» .

وكان الفونس يرى ذلك البرج جيدا لانهما على مقربة من المدينة فقال : «نعم !»

قال يعقوب : «اذا جئت هذا المكان في الليل فلا تخطىء هذا البرج لبروزه فوق السور ، وليس على السور برج سواه . احفظ ذلك جيدا ثم اتبعني» . قال ذلك وانحدر عن التل الى الجهة الاخرى ، فاذا هو بكهف مهجور وقف ببابه وألفونس الى جانبه فقال له : «أرأيت هذا الكهف ؟ »

قال الفونس : «نعم رأيته» . قال : «فلنرجع الى المدينة نقضي بقية النهار ثم نعود الى هنا» .

وكان الفونس يتوقع الاطلاع على شيء من السر فلم يزدد الا حيرة واستغرابا .. واستطال الانتظار الى المساء فقال : «وأين نقضي هذا النهار فانه طويل عندي ؟!»

قال : «سأجعله قصيرا جدا» . ومشى فمشى الفونس في اثره حتى

دخلا المدينة وألفونس يتأمل البرج • وما زالا سائرين في الاسواق حتى انتهيا الى درب ضيق اتصلا منه الى باب صغير فقال يعقوب : «انتظرني يا مولاي هنا ريثما اعود» ، ودخل ثم عاد وأشار اليه فدخل وعلم مما رآه من الادوات المنزلية ان البيت مأهول لكنه لم يشاهد فيه احدا • فدخل يعقوب غرفة من غرف البيت وألفونس معه وقد مل الانتظار وكاد الحنق يخرجه عن جادة الصبر • اما يعقوب فانه اقفل باب الحجرة ثم أجلس الفونس على بساط وجثا الى جانبه وقال : «سأتلو عليك يا مولاي ألفاظا غريبة لا بد لك من حفظها فان ما ستتعلمه الان من الالفاظ والاشارات انما هو مفتاح السر وطريق العمل» •

فأصغى الفونس اليه وقال : «هات ما تريده» •

قال : «شالوم عليخم» • فقالها الفونس ولسانه يتعثر بالعين والخاء على الخصوص • فكررها يعقوب عليه حتى حفظها ، ثم قال له : «قل (أوهيل موعيد)» • فقالها وكررها حتى تعلمها • ثم نهض يعقوب وأمسك الفونس بيده وقال له : «قف يا مولاي» فوقف فخطا يعقوب امامه بضع خطوات على نسق غير مألوف بين الناس وقال له : «اخط يا سيدي مثل هذه الخطوات» ففعل وكررها حتى اتقنها • ثم علمه اشارات يجريها بيديه او اصابعه وغير ذلك ، وألفونس كالببغاء ، يتعلم الالفاظ ويخطو الخطوات ويجري الاشارات وهو لا يفهم لها معنى !

قضيا بقية اليوم في نحو ذلك ، فلما غربت الشمس خرجا وألفونس لا يزداد الا استغرابا ، وقد نسي لفرط دهشته كل مشاغله بفلورندا وأوباس ، وما زالا حتى خرجا من باب المدينة ، وكانت ليلة صاحية لكنها شديدة البرد ، فصبرا على بردها حتى بلغا الاكمة وصعدا اليها ، فنزل يعقوب نحو الكهف وألفونس يتبعه حتى وقفا ببابه ولم يريا داخله غير الظلمة المدلهمة ، فدخل يعقوب ويده بيد الفونس ، فمشى به بضع

خطوات وألفونس يتحسس الارض بقدميه كأنه يمشي على الشوك وهما صامتان • ثم وقف يعقوب وقال لالفونس : «اخرج جلبابك» • فأخرجه وساعده يعقوب على لبسه كما لبس هو جلبابه فأصبحا سوادا في سواد، ومشيا خطوات اخرى ويعقوب يقود الفونس ، ثم وقف بغتة فشعر الفونس بصدمة وقوفه فخاف ان يكون ثمة خطر عليهما ، وأحس ان يعقوب انحنى نحو الارض . ثم سمع خربشة كأن يعقوب يبحث بأنامله في الارض . وكان قد ترك يد الفونس فظل هذا واقفا وقوف الصنم لا يدري كيف يتجه لاشتداد الظلام !

وكان يعقوب قد خلى يد الفونس لتتفرغ يداه لرفع حجر ثقيل • فمضت بضع دقائق وألفونس واقف لا يتحرك . ثم سمع صوت اقتلاع الحجر وأحس بنسيم بارد قد خرج من مقتلعه ، واذا بيعقوب يقول له بصوت منخفض : «اتبعني يا مولاي في هذه الفوهة على مهل» • ونزل وتبعه الفونس وهبطا سبع درجات فانتهيا الى سرداب يسع الانسان واقفا فمشيا فيه . ويعقوب يقود الفونس في الظلام • وشعر الفونس كأنهما يسيران في دائرة ثم سارا في خط مستقيم مع انحدار خفيف والظلام يتكاثف • وبعد هنيهة وقف يعقوب وقال لالفونس : «امكث هنا يا مولاي ولا تغير مكانك ريثما اعود اليك» • وتركه ومشى لا يسمع لخطواته وقع فأحس الفونس بوحشة غريبة ، ومضى على غياب يعقوب دقائق حسبها الفونس ساعات حتى مل الانتظار وحدثته نفسه ان يخطو في اثره ولكنه تذكر وصيته اياه بالبقاء هناك فوقف، ولكن الانسان رغاب في استطلاع المخبآت ولو عرض نفسه للخطر • على انه نسي الجهة التي كانا سائرين فيها ومد يده الى ما حوله فلم تلمس شيئا فتوهم انه في خلاء واسع • وفيما هو في هذا الارتباك آنس نورا خفيفا عن بعد ، ورأى ذلك النور يقترب حتى تبين حامله ، فاذا هو رجل بجلباب اسود مثل جلبابه

فظنه يعقوب فناداه باسمه فلم يسمع ردا فحسب سكوته تسترا ، ثم رأى وراء ذلك الشبح شبحا اخر في مثل لباسه وقد كشف عن وجهه فاذا هو يعقوب ، فعلم الفونس انه اقترب من المكان المقصود .

ولم يكد يفكر في الامر حتى أسرع يعقوب اليه وأمسك بيده ، فنظر الفونس في وجهه على نور المصباح فرأى لحيته قد ازدادت تلبدا وقذارة . فخاف ان يكون عليهما بأس من ذلك المكان . ولكنه سلم قياده الى يعقوب فأمسكه وسار به والرجل الثالث يسير بين يديهما بالمصباح ويعقوب يحذر الفونس مما بين يديه ، فنظر الى الارض فرأى فيها حفرا جمة يخشى الماشي السقوط فيها حتى على النور ، فكيف به في الظلام . وأدرك السبب الذي حمل يعقوب على استجلاب ذلك النور فمشى مشية الحذر والتأني بضع دقائق ، ثم انطفأ المصباح وعاد الظلام كما كان . فضغط يعقوب على يد الفونس وهمس في أذنه قائلا : «وصلنا» .

وكان الفونس قد ضاقت أنفاسه من القناع المنسدل على وجهه فرفعه وتنفس الصعداء ثم ارخاه ، واذا بيعقوب قد وقف وهمس في أذنه ان يفعل مثل فعله بعد انفتاح الباب وألا يخشى شيئا مهما يكن ما يراه . ثم قرع بابا قرعا متواليا سبع مرات بأسلوب خاص ، ولبث برهة ثم طرقه ثانية ثلاث مرات بنسق اخر . فانفتح الباب عن ممر قصير فيه نور ضعيف، والى كل من جانبي الباب رجل بمثل جلبابيهما وبيده سيف مسلـــــول والسيفان متعانقان كالقوس فوق عتبة الباب ، فأجفل الفونس وتقهقر ، فسمع يعقوب يقول : «شاوم عليخم» فقالها هو ايضا ودخلا والسيافان لا يتحركان كأنهما صنمان ، فمشى يعقوب في الممر تلك المشية الخاصة التي علمها لالفونس في ذلك النهار ، ومشى الفونس مثلها وهو يتعثر لاضطرابه وارتباكه ، حتى وصل الى باب مقفل فقرعه بنسق خاص خمس قرعات . فانفتح الباب وانطفأ النور معا ، فأجفل الفونس ولكنه تذكر

وصية يعقوب فثبت جنانه ، وسمع صوتا يخاطبه بلسان لم يفهمه وسمع يعقوب يقول له : «أوهيل موعيد» فقالها هو ايضا ومشيا في تلـــك الظلمة وألفونس يحسب نفسه صاعدا على سلم ، ثم انفتح لهما باب اخر وحال انفتاحه أحس الفونس بهواء دافيء خارج منه تخالطه رائحـــة الانفاس ، فشعر بالدفء ونسي ما كان يشعر به من البرد في السرداب ، ودخلا من الباب فأشرفا على قاعة كبيرة في وسطها شبه مائدة عليها سراج مضيء وبجانبه درج كبير ، وحول الجدران مقاعد عليها أشباح سود بمثل جلبابه ، ووجوههم منقبة بمثل نقابه ، وأمام كل منهم سيف مسلول يلمع فرنده في نور السراج الضعيف . فارتعب لذلك المنظر الهائل . على انه التفت الى جانبه فاذا بيعقوب قد مشى بخطوات كان قد علمه اياها فمشى مثله حول المائدة والسراج مرتين ، وقبل الدرج الموضوع هناك، وهو لفافة من جلد . ثم مشيا الى كرسيين في صدر القاعة خاليين فجلسا عليهما وأمامهما سيفان مسلولان ، فالتفت الفونس الى ما حوله فلم ير الا أشباحا سوداء بشكل واحد وقيافة واحدة . وندم لمجيئه على تلك الصورة مخافة ان يكون عليه خطر . ولكنه تذكر ثقته بيعقوب فاطمأن باله ولبث الجميع برهة ساكتين ، ثم نهض احدهم عن كرسيه وتقدم الى المائـــدة وتناول الدرج وفتحه بين يدي المصباح فرأى الفونس عليه كتابة لا يفهمها . ثم اخذ الرجل في القراءة فوقف الجميع وألفونس في جملتهم، حتى اذا أتم قراءته قبل الدرج ورجع الى مكانه وجلس ، فجلس الباقون لا ينطق احد بكلمة ، الى ان تكلم الرجل بذلك اللسان كلاما طويلا اجابه عليه بعض الحاضرين ، ثم تكلم يعقوب باللسان القوطي قائلا : «يسمح حضرة الرئيس بعقد جلسة خاصة يحضرها هو ومن شاء للمداولة في امر مهم» .

فوقف الرجل الاول وبيده سيف صغير وأشار به اشارة خاصة فوقف

الجميع ، ثم انفرد منهم ثلاثة وقفوا بازائه ، وتقدم يعقوب وألفونس حتى وقفا معهم ، ثم تحول الرئيس الى باب وراءه ففتحه ودخل وتبعه الباقون الى ممر مظلم انتهوا منه الى باب فتحه بيده ودخل الى حجرة مظلمة ووقف ببابها وتكلم ، فجاءه من بين الجماعة رجل بشمعة مضيئة مرتكزة في طبق من البرونز فتناولها منه ، فرجع الرجل وأقفل الباب وراءه ، فدخل الرئيس بالشمعة حتى وضعها على حجر مرتفع في بعض جوانب المكان .

ونظر الفونس في ذلك المكان فاذا هو حجرة صغيرة جدرانها سوداء وسقفها أسود . وفي ارضها صندوق كالتابوت الكبير فوقه درج صغير، وحول التابوت بساط جاسوا عليه والتابوت في وسطهم ، فتأثر الفونس من ذلك المنظر المرهب ، وخفق قلبه لهول ما شاهده من الغرائب ، وقد نفد صبره لمشاهدة أشباح سوداء لقوم لا يرى لهم وجوها ولا يدري من هم ؟ فلما جلسوا تكلم يعقوب بالقوطية وقال : «هل يظن الرئيس ان الطعام قد نضج !؟»

قال : «انت أدرى منا بنضجه لانك موقد ناره» .

فقال يعقوب : «ارجو ان يكون قد نضج ، ولكنه يحتاج الى ادام كثير لان الطعام بلا ادام لا يؤكل» .

قال : «الادام كثير ومنه في هذا الصندوق ، ما يطبخ به طعام العالم بأسره . فضلا عن أمثاله مما يحمل الى المطبخ عند الحاجة !»

فلم يفهم الفونس مغزى تلك الرموز ، ولكن يعقوب التفت اليه وقال : «ان المادة التي تنقصك لاتمام مشروعك مختزنة في عشرات من أمثال هذا الصندوق وقد جمعت فيها منذ أعوام ، ولكنها لا تبذل الا عند الحاجة» . قال ذلك وأومأ الى الرئيس فاستخرج من جيبه مفتاحا فتح التابوت به ، وحالما رفع الغطاء ابرق ما تحته اصفر زاهيا . فنظر اليه

الفونس فاذا هو نقود ذهبية خالصة ، ثم أقفله الرئيس وأعاد المفتاح الى جيبه . فاندهش الفونس لمنظر ذلك الذهب ، وأدرك انه بين جماعة ذوي اقتدار ، والتفت اليه الرئيس وقال : «لا تطمع في استطلاع شيء غير الذي تراه ، واعلم انك عرفت شيئا لم يعرفه احد من الذين رأيتهم في الحجرة الاخرى وهم يجتمعون معنا منذ أعوام ، وفيهم من يبذل ماله وروحه في سبيل ذلك الغرض !»

فتكلم عند ذلك يعقوب وقال : «يكفي مولاي ما قد شاهده ، ولا نشك ان في اسبانيا ألوفا من أمثال هؤلاء المظلومين . وعندهم الاموال المختزنة في الصناديق ، وهم يبذلون انفسهم في خدمته فضلا عن أموالهم» .

فلما سمع الفونس قوله «المظلومين» انتبه الى انه بين يدي جمعية سرية تتواطأ على قلب الحكومة ، وتذكر ما كان يسمعه من كلامهم المعجم فخطر له ان يكونوا يهودا ، ولكنه كان يعلم ان اليهود قد انقرضوا من المملكة اما بالنفي او بالقتل او اعتناق النصرانية فقال ليعقوب : «قد فهمت السر فالاولى ان تفصح وأنت أعلم الناس بعزيمتي وقصدي من قبلي» .

فعند ذلك التفت يعقوب الى الرئيس وقال : «ينبغي لي ان أكاشف كلا منكما بسر الاخر . اعلم يا حضرة الرئيس ان الرجل الذي جئتكم به الليلة هو نصيرنا الوحيد في هذه الديار . واذا قلت لكم من هو هان عليكم مكاشفته بأمرنا ، انه الفونس ابن المرحوم غيطشة ملك اسبانيا ، وهذا يكفي !»

وقال الرئيس : «لعله على عزم والده تماما ؟» . فقال يعقوب : «نعم هو نصير المظلومين ، وقد عول على السعي في انقاذنا من هذا الطاغية اللعين الذي يسمي نفسه ملكا . وانما يعوزه المال وهو عندنا ، فاسمح

لي بعد هذا التصريح ان أنبئه بحقيقة الامر» . قال ذلك وحول خطابه الى الفونس قائلا : «اعلم ايها الملك ــ وأنا أخاطبك بالملك لاننا لا نعرف ملكا على اسبانيا سواك ــ انك في جمعية اسرائيلية ، وكل الذين رأيتهم في هذه الجلسة يهود ما زالوا على دين آبائهم وأجدادهم ، وينوبون عــن ألوف من اهل هذا الدين منتشرين في انحاء المملكة الاسبانية يتظاهرون بالنصرانية فيحضرون القداس في الكنائس، ويتناولون القربان، ويقومون بسائر الفروض المسيحية . وكان منهم في الكنيسة في صباح هذا اليــوم مئات ، وقد رأيناهم يسجدون امام الايقونات ويتلون الصلوات ، وربما سمعناهم يدعون بنصر رودريك وهم يودون قتله . وقد صبروا على هذا الظلم وكظموا الغيظ أعواما وهم يجمعون المال ويختزنونه ، لاغتنـــام الفرصة للنهوض من تحت هذا النير ، حتى اذ كادوا يبلغون بغيتهم على يد والدك المرحوم استبدل به اهل المطامع هذا الطاغية وهو لا يستحق هذا المنصب ، بل انت هو صاحبه الشرعي فنرجو ان تكون النجـــاة على يدك» .

فلما سمع الفونس قوله انجلى له كثير من الاسرار التي ما برح يود الاطلاع عليها منذ خاطب عمه اوباس في هذا الشأن ، فاكتفى بما رآه وسمعه . وأجل استطلاع ما بقي من الغوامض الى فرصة اخرى ، ولبث صامتا يراجع ما مر به من المعميات فرأى انه ينقصه ان يعرف وجـــوه اولئك الناس خصوصا بعد ان عرفوه باسمه . وكان يعقوب قد ادرك غرضه فقال له : «ولا يطمع مولاي الان ان يطلع على ما وراء ذلك . ان نظام الجماعة يقضي بالتستر خوفا من ان يبوح احد بأمرهم . فأنت الان بعد ان اطلعت على هذه الاسرار المهمة تنسى اذا خرجت من هذا المكان كأنك لم تدخله . لانك لم تر وجوه الاشخاص فلا يمكنك ان تتهم احدا من الناس . وربما كان بعض هؤلاء من رجال الجند او الكهنة او العمال

او الزراع ، وكلهم من عداد المسيحيين ويكفيك ان تعرف واحد منهم وهو انا» •

فأعجب الفونس بهذا الضرب من الاحتياط ، وعلم ان يعقوب يهودي، وتذكر ما كان يطلبه من التساهل في اداء الفروض الدينية من الصلوات ونحوها ، وان عمه اوباس كان يساعده على ذلك ، وخطرت له خواطر كثيرة بشأن علاقة يعقوب بوالده وعول على استطلاع سر هذا الامر فيما بعد • ثم اعترض مجاري افكاره دبيب توالت اصواته فوق رؤوسهم فانذهل الفونس والتفت نحو السقف فابتدره يعقوب قائلا : «لا تستغرب يا مولاي ما تسمعه لان فوقنا شارعا من شوارع المدينة ، والناس يمرون عليه ليل نهار ، وليس في اهل استجة من يعلم بوجود هذا البناء تحت الشارع الا اعضاء هذه الجمعية» • فازداد الفونس استغرابا لما عاينه في تلك الليلة من طرق التحفظ وأبواب الدهاء وقال في نفسه : «ان قوما هذا مبلغ دهائهم وتعلقهم وصبرهم لجديرون ان ينالوا بغيتهم !»

وفيما كان الفونس يفكر في ذلك سمع قرعا بعيدا يشبه ان يكون على الباب الذي ينتهي اليه السرداب ، ولكنه رأى عدد الطرقات وكيفية ضربها يختلفان عما فعله يعقوب لما جاء به • ثم ما لبث ان رأى الرئيس ويعقوب وسائر الجالسين معه قد أنصتوا لما عساه ان يعقب ذلك الطرق فخاف ان يكون وراء انصاتهم ما يدعو الى القلق ، ولو كانت وجوههم مكشوفة لاستطلع ذلك في عيونهم وجباههم • ثم سمع قرعا ثانيا على الباب الاخر بكيفية اخرى ولم يفرغ الطارق من الطرق حتى تحـــول انصات رفاقه الى الحركة ، وسمع الرئيس يقول : «لقد جاءنا رسول بخبر جديد ، عساه ان يكون قادما من اخواننا في الشام او مصر او من افريقيا » •

فاستغرب الفونس تنبؤ الرئيس عن الرجل من سماع قرع الباب ،

وأدرك ان لهذه الجمعية علاقات واسعة في الشام ومصر وغيرهما فلم يتمالك ان قال : «كيف عرفت الرجل من سماع القرع عن بعد ، وهل لهذه الجمعية من اعضاء في تلك البلاد ؟»

قال : «عرفته من قواعد موضوعة لهذا الغرض يعرفها اعضاء هذه الجمعية . وأما سؤالك عن سعة الجمعية فان لها اعضاء في انحاء بعيدة ارسلتهم للبحث عن طريقة تتخلص بها من هذا الرق !» . وسكت هنيهة ثم قال : «ومن هؤلاء الاعضاء اناس قد تصدوا في مجالس الدول وتقلدوا مناصبها ، ومنهم من يعمل عمل الخدم ويقاسي مرارة الذل والشقاء ويؤدي أدنى الاعمال ، وهو ليس من مصاف الخدم ، بل قد يكون من اهم اعضاء الجمعية ومن اكثرهم بذلا في سبيلها ، وانما يتزيى بزي الخدم تنفيذا لغرض يعود على الطائفة بالخير !»

وكان الفونس وهو يسمع كلام الرئيس يشعر بنور يضيء بصيرته، فأدرك للحال ان خادمه يعقوب من كبار هذه الطائفة وأهم اعضاء هذه الجمعية ولكنه ما زال ميالا الى استطلاع علاقته بأبيه وعمه لانهما كانا عارفين بسره على ما ظهر من كلام اوباس ــ فأجل ذلك الى فرصة اخرى ولبث ينتظر دخول الرسول القادم . ولم تمض برهة وهم سكوت يسمعون صدى الحركات في القاعة الكبرى حتى سمعوا قارعا يقرع باب تلك الحجرة السوداء قرعا خاصا ، فنهض يعقوب وفتح الباب فدخل منه رجل طويل القامة عليه ذلك الجلباب الاسود ، وحال دخوله وجه وجهه نحو الرئيس وكلمه بالعبرانية كلاما لم يفهمه الفونس ، فأجابه الرئيس، وتخاطبا برهة بتلك اللغة وألفونس لا يفهم ، ولكنه استغرب توجيه القادم كلامه للرئيس حال وصوله وهو لا يرى فرقا بين مظهر الرئيس وبين سائر الجالسين لانهم بلباس واحد ولون واحد ، فتوسم في ذلك سرا لم يتمالك عن الاستفهام عنه من يعقوب في اثناء مخاطبة الرئيس والرسول

بالعبرانية . فقال يعقوب : «لو امعنت النظر في ثوب الرئيس لرأيت على كتفه علامة تميزه عن سائر الاعضاء ، ولا تظهر الا عند التأمل . وفي هذه الجمعية علامة لكل من اصحاب المناصب فيها كالكاتب والخازن وغيرهما. غير ان هذه العلامة لا يراها غير المتأمل» .

فتأمل الفونس في كتف الرئيس فرأى عليها عقدة سوداء بجانب العنق ونظر الى أكتاف الرفاق فرأى على كتف يعقوب عقدة تشبه عقدة الرئيس ولكنها بشكل اخر فأراد ان يستفهم منه عن دلالة علامته فسمع الرئيس يخاطب القادم بالقوطية قائلا : «لقد سرني قدومك الليلة لنسمع حديث رحلتك ، وعندنا من يهمه سماعها ويهمنا اطلاعه عليها . ونحن في حجرة الخلوة وما فينا الا عمدة الجمعية فمن اين انت قادم الان ؟»

وكان الرجل قد جلس في جملة الجالسين حول التابوت فقال : «اني قادم من سبتة ، وخبري طويل لا يتسع الوقت لتفصيله ، ولكني أعجل لكم منه ما يهمكم ويهمنا . ولو كشفت لكم عن وجهي لرأيتم البشر ظاهرا فيه اذ يظهر لي ان زمان أسرنا قد انقضى او قارب الانقضاء !»

فلما قال ذلك ظهر الاهتمام في حركات الجالسين وأصغوا وقد تطاولوا بأعناقهم الى المتكلم وقال الرئيس : «بشرك الله بالخير . عسى ان يكون قد انقضى أسرنا كانقضاء أسر أجدادنا في بابل منذ بضعة عشر قرنا» .

فقال الرسول وقد وجه خطابه الى الرئيس : «لا يخفى على حضرة الرئيس اني مقيم منذ أعوام في «سبتة» على شاطىء افريقية (مراكش) وهي وما يليها تابعة لهذا الطاغية صاحب طليطلة الان وكان يجب ان تكون تابعة لمملكة الروم الشرقية لانها جزء من افريقية ولكن الروم تقلص ظل سلطانهم عن افريقية بما اتاه العرب من الفتوح ، لانهم فتحوا كل سواحلها تقريبا الا سبتة وما يليها فالتجأ صاحبها الى اسبانيا وصارت

سبتة ولاية من ولاياتها كما تعلمون» •

فقطع الرئيس كلامه قائلا : «يظهر ان ابناء اسماعيل قد أفلحوا في دينهم الجديد !»

فأجاب الرجل : «نعم يا مولاي» • ولم يفهم الفونس معنى هـذا السؤال ولا من هم بنو اسماعيل ، ولكنه لم يستحسن قطع الحديث لاجل الاستفهام فسكت • وأما الرجل فانه أتم كلامه قائلا : «ان ابناء عمنا هؤلاء قد قلبوا العالم بأسره ومدوا سلطانهم على العراق والشام وأفريقية وفارس وخراسان الى اقصى المعمـور !» • فازداد الفونس استغرابا لقوله (ابناء عمنا) ولم يتمالك ان التفت نحو يعقوب ، فأدرك يعقوب مراده قبل ان يتكلم فقال له : «ان العرب الذين قاموا بالديـن الجديد هم ابناء اسماعيل بن ابراهيم ، واليهود ابناء اخيه اسحق ، فهم بهذا الاعتبار ابناء عمنا» •

فتحول الفونس نحو المتكلم لاستتمام الخبر فاذا هو يقول الرئيس: «وقد سافرت في أسفاري للتجارة وخدمة الجمعية الى الشام ومصر ، واختلطت بالناس ورأيت كثيرين من اخواننا اليهود الذين استطاعـوا التخلص من هذا الذل بالخروج من هذه البلاد وهم الان في افريقية ومصر والشام في راحة وسكينة لا يتعرض لهم احد في دينهم ، يصلون كيف شاءوا ومتى شاءوا ويتعاطون اعمالهم وتجاراتهم بأمان وسهولة • وليس ذلك شأن اليهود الغرباء فقط بل هو شأن كل السكان من كل الطوائف لان اليهود كانوا مضطهدين ايضا في تلك البلاد تحت نـير الروم يذوقون العذاب ألوانا كما كنا نذوقه نحن منذ بضعة قرون قبل ان اجبرونا على النصرانية او المهاجرة او القتل ، واضطررنا الى الفرار او التظاهر بالنصرانية كما تعلمون • وأما اخواننا في مملكة الروم فكانوا أرحم حالا منا ، ومع ذلك فانهم لم يصبروا على ذلك الضيم وكثيرا ما

كانوا يفتكون بالنصارى ويقاومون الحكومة ، فلما جاء ابناء اسماعيل لفتح بلادهم كانوا من أعوانهم على ذلك . وقد احسنوا صنعا لانهم تحرروا من رق الروم واستبدادهم وأمنوا على أرواحهم وأموالهم وخفت عنهم الضرائب وهم في نعيم» .

فقال الرئيس : «وكيف ذلك ؟ ألم يخرجوا من سلطان الى سلطان ، ومن ضريبة الى ضريبة ؟ ألم يحكم العرب فيهم سيوفهم او نفوذهم ؟ ألم يضربوا عليهم الضرائب ؟»

قال : «نعم يا مولاي . ان العرب فتحوا تلك البلاد بالسيف او بالصلح وصارت تحت سلطانهم ، ولكنهم في الحقيقة قلما يتعاطون شيئا من أمورها حتى انهم لا يقيمون في المدن ولا يختلطون بالرعايا الا نادرا، وفي اوقات معينة ولاغراض وقتية» .

فقطع الفونس كلامه وقال : «وكيف يكون ذلك ، وأين يقيمون ؟ وكيف يحكمون البلاد وهم لا يقيمون فيها !؟»

قال : «لا ألومك على استغرابك ذلك لانه غير مألوف فيما تعرفون في هذه البلاد حيث يتداخل الحكام في كل حركة من حركات الناس ، بل هم يعدون الرعايا عبيدهم . وأما هؤلاء العرب فانهم بعد ان فتحوا تلك البلاد ووضعوا عليها الجزية والخراج نزلوا في ضواحيها وابتنوا لانفسهم مدنا لا يقيم فيها سواهم كالقيروان في افريقية ، والفسطاط في مصر ، والبصرة والكوفة في العراق ، وتركوا اهل البلاد الاصليين على ما كانوا عليه في ايام الروم او الفرس ، كل منهم على دينه واعتقاده ، يتعاطى عمله وليس عليه الا اداء الخراج او الجزية كل عام ، وهي ضرائب زهيدة لا تقاس بما كان الروم يسومون رعاياهم من أمثالها . وكان الناس عند اول الفتح اهنأ عيشا منهم الان بالنظر لظلم بعض عمال بني أمية ، ومنهم عامل في العراق اسمه الحجاج شديد الوطأة على اهل

البلاد يطالبهم بالخراج الكثير لحاجته اليه في الحروب ، ولكن الملك الاكبر الذي يسمونه الخليفة يقيم في دمشق الشام . وكثيرا ما يبعث الى عماله ان يعودوا الى الرفق . ومع كل ذلك فان الرعايا من اليهود او النصارى احسن حالا تحت سلطان العرب منهم تحت سواه ، خصوصا اذا عاد العرب الى ما كان عليه خلفاؤهم الاولون من العدل والرفق والمساواة، ولولاها لم يسهل عليهم الفتح حتى امتد سلطانهم على معظم العالم المعمور في الشرق» .

فقال الرئيس : «يا حبذا لو انهم يأتون الينا فيستولون على هذه البلاد ، لانهم اذا كانوا أخف وطأة من بطارقة الروم فبالاولى ان يكونوا أفضل لنا من حكومة القوط» .

فاعترضه الرجل الرحالة قائلا : «لا يحق لنا ان نشكو من حكم القوط على الاجمال ، فان بعضهم كان كثير الرفق بنا خصوصا الملك غيطشة السابق فانه كان عازما على تحرير رقابنا واطلاق حرية الدين لنا. ولكن المنية عاجلته ، او هم عجلوها له ، فخلفه الطاغية رودريك وهو من اظلمهم جميعا قبحه الله» .

* * *

فانتبه الرئيس لوجود ابن غيطشة بينهم . وأعجبه ما قاله الرحالة من اطراء ابيه فقال : «لقد نطقت بالصواب . وعلى كل حال فاننا وددنا لو ان هؤلاء العرب يأتون اسبانيا ، ولا نظنهم يلقون صعوبة كبرى في فتحها ، اذ ما من طائفة من اهلها لا تشكو من هيئة الحكومة» .

فقال الرحالة : «ان ما تتمنونه وأنتم جلوس هنا قد سعى فيه اخوانكم هناك ، وأنا في جملتهم ، وكثيرا ما حرضنا عليه هؤلاء العرب وحببنا اليهم هذه البلاد ، وبينا لهم سهولة فتحها عليهم وهم هائبون .

ولكن يظهر انهم اوشكوا ان يحسلوا عليها» .

فابتدره الرئيس بلهفة قائلا : «هل تعني ما تقول ؟» . قال : «نعم يا مولاي ، وهو الخبر الذي جئت من اجله وكنت عازما على مباغتتكم به فأخرجنا الحديث عنه . قلت لكم ان (موريتانيا) ــ وقاعدتها سبتة ــ هي احدى ولايات الرومان ، فلما فتح العرب افريقيا اصبحت موريتانيا منفردة عن مملكة الروم فانحاز صاحبها الى اسبانيا ليكون في كنف دولة نصرانية .. ولما خرجت انا من اسبانيا الى موريتانيا كان حاكمها رجلا اسمه (يوليان) فتظاهرت بالنصرانية . وعدت الى تجارتي أشتغل بها وأنا أرتحل في البلاد وأعود الى سبتة وفي نفسي ما تعلمون من الغيظ لما تقاسيه طائفتي من الفتك والعسف تحت نير القوط ، فأتيح لي اني انتقمت لها من يوليان هذا انتقاما ليس هنا محل ذكره ، وكنت مع ذلك من المقربين اليه . يثق بي ويشاورني في أموره . وأنا اظهر له الود وأغتنم الفرص لنيل بغيتي ، وما هي الا ان أحبب الى العرب فتح اسبانيا . ولكني أعلم ان السبيل اليها لا يكون الا اذا فتحوا سبتة لوقوعها على بحر الزقاق . وهو اقرب سبل العرب الى هذه البلاد .

«وكان عامل العرب على افريقيا في الاعوام الاخيرة رجلا شجاعا ذا همة اسمه موسى بن نصير . فبعث برجاله حتى فتحوا طنجة وأقاموا فيها وحاصروا سبتة من البر ويوليان ممتنع فيها ، صابر على ولاء القوط مع علمه ان صبره لا يجديه نفعا ، ولكنه لا يستطيع الخروج من طاعة رودريك لاسباب لا تجهلونها» .

وكان الفونس لما ذكر اسم يوليان خفق قلبه لعلمه انه والد حبيبته فلورندا وأصاخ بسمعه لعله يسمع شيئا يتعلق بها . واستأنف الرجل حديثه قائلا : «وكنت انا في اثناء ذلك الحصار في قصر يوليان أجالسه كثيرا وهو يركن الي ويقربني منه لغناي وسعة تجارتي لعله يحتاج الى

مال او مؤونة في اثناء الحصار ، وأنا اكثر منه رغبة في التقرب كمـــا تعلمون • فبينما انا في منزلي واذا برسول يوليان يدعوني اليه عاجلا . فمضيت حتى اذا دخلت قصره وأشرفت على باب غرفته رأيت شابا خارجا منها يظهر من قيافته انه قادم من سفر بعيد ، وعلمت من شكل لباسه انه من اهل طليطلة وأحسبه من خدم الملك . فسرت حتى دخلت الغرفـــة وكنت أدخلها دائما بلا استئذان . فرأيت يوليان جالسا على كرسي بجانب نافذة تطل على البحر الكبير وبيده شيء قد قبض عليه وهو مستغرق في الهواجس • فلما سمع خطواتي نهض بغتة ورمى الي بما كان بيده وقد اخذ الغضب منه مأخذا عظيما وهو يقول : (اقرأ هذا يا فلان وانظـــر شقائي وتعاستي ! ما كفتني المصيبة التي أصابتني من اول عهد شبابي حتى بليت بأقبح منها من رجل انت تعلم اني أقاسي عذاب الموت فـــي سبيل المحافظة على الولاء له) فالتقطت ما رماه فاذا هو قطعة من قماش أظنها مقطوعة من قميص او رداء وعليها كتابة حمراء كأنها كتبت بالدم• ولما قرأتها اقشعر بدني استغرابا ولكن قلبي كاد يطفح سرورا لعلمي ان في ذلك الكتاب حلا للمشكل الذي نحن فيه» •

وكان الفونس في اثناء ذلك قد بلغ به الاضطراب غايته . وكان سائر السامعين قد ارهفوا آذانهم لاستماع الخبر الجديد ، بينما استأنـــف الرجل حديثه قائلا : «قرأت الكتاب فاذا فيه : والدي العزيز • سلمت ابنتك الى رجل يسمي نفسه ملكا . وهو وحش كاسر . لا يراعي ذماما ولا حرمة ولا عرضا ، ولولا العناية الالهية لذهبت فريسة بغيه وفسقه !• أكتب اليك هذا على قطعة من ثوبي وأنا هائمة على وجهي لا ادري اين أختبىء من بغي هذا الظالم الخائن . ولا ادري متى التقي بك • فما جزاء من اراد بابنتك سوءا ؟• وسينبئك حامل هذا الكتاب ــ اذا استطاع الوصول اليك ــ بما قد يشكل عليك فهمه •   كتبته فلورندا»

فلا تسل عن الفونس واضطرابه وخفقان قلبه . ولولا ذلك اللثام لافتضح امره لاستغرابه قولها : «انا هائمة على وجهي» وقد كان يظنها في مأمن عند عمه ، فعظم عليه الامر ولكنه كظم عواطفه وصبر نفســــه لسماع بقية الحديث . وكذلك كان شأن يعقوب .

اما الرجل فانه أتم حديثه قائلا : «فلما فرغت من قراءة الكتاب اظهرت الغيظ وقلت له : (الى متى البقاء على ولاء رجل لا يراعي ذماما ولا يحفظ حرمة ولا يستبقي عرضا ؟ انت تعرض نفسك للخطر وتصبر صبر الاتقان في الدفاع عن سلطانه وهو يفعل هذا الفعل مع ابنتك !) . وكان يوليان قد استولت عليه السويداء منذ أعوام على أثر مصيبة انتابته وثقل عليه حملها ، فجعلت استحثه وأهيج عواطفه حتى قال : (لا بد لي ان أنتقم من هذا الخائن وأسلم هذه البلاد للعرب فانهم أحفظ منه للجميل . ولا يكفي ذلك بل اني محرضهم على فتح اسبانيا الى طليطلة حتى يصيبوا مقتلا من رودريك فأشفي غليلي !) فسرني عزمه على ذلك وهو الغرض الذي طالما تمنيته وسعيت فيه ، فجعلت اقوي عزيمته وأهون عليه الامر حتى قلت : (واذا احببت فاني اسعى عنك في مخابرة العرب وأجعل تسليمك على سبيل الخدمة لك ولهم ، وليس عن ضعف او جبن) . فرضي مني بذلك وخرجت فخابرت موسى بن نصير امير العرب فسر ورحب بيوليان وعرض عليه عبور بحر الزقاق الى العدوة الاخرى وفتح الاندلس . على ان يكون هو معهم يطلعهم على عورات القوط ، فرضي موسى ولــــم يسعني عند سماعي ذلك الا القدوم اليكم بهذا الخبر» .

فلما بلغ الرجل الى هذا القول استولت الدهشة على الجميع خصوصا الفونس ، فانه وقع بين عاملين : عامل الغرام بفلورندا وقد انشغل خاطره بشأنها بعد ان علم انها ليست في بيت عمه ، وعامل اليأس من الملك اذا فتح العرب هذه البلاد لانها تخرج من سلطان القوط على الاطلاق . وأدرك

يعقوب ما قد يخطر ببال الفونس من هذا القبيل وخاف ان يغير ذلك من رأيه في مقاومة رودريك • ثم تذكر مسألة فلوروندا وما في نفس الفونس على رودريك بشأنها فعلم انه لا يمكن أن يصفو له مطلقا خصوصا بعد ان سمع شكاية فلوروندا لابيها • على انه احب ان يثبت الفونس في عزمه فقال وقد وجه خطابه الى الرئيس : «ان هذا الخبر الذي جاءنا به اخونا هذا من الاهمية بمكان عظيم • ولا نظن العرب الا فاتحين هذه البلاد خصوصا لان يوليان معهم يدلهم على الطريق • وطبعا نحن نكون عونا لهم ايضا لاننا نخدم مصلحتنا ولا يغير ذلك شيئا من غرضنا الاول في استرجاع الحكم ، لاننا قد سمعنا الان ان العرب يستبقون البلاد على ما هي عليه ، وما نظنهم اذا علموا نصرة مولانا الفونس لهم الا مسلمين اليه الاحكام مكتفين بالخراج والجزية والسيطرة الخارجية»•

وكان الفونس يسمع ذلك باهتمام ، وأصبح شديد الرغبة في الخروج من ذلك المجتمع للبحث عن فلوروندا ، على انه اراد قبل الانصراف ان يستوثق من الامر الذي جاء من اجله ، فرد على كلام يعقوب قائلا : «ظن صاحبي يعقوب ان نقمتي على رودريك انما هي لرغبتي في السلطة• ولكن الحقيقة ان الغرض الاول هو انقاذ هذه البلاد من استبداده واطلاق سراح اليهود الذين اجبروا على النصرانية ظلما • فاذا حدث ذلك فليس يهمني بعده من يملك» •

فقال الرجل : «أؤكد لمولاي ان المسلمين اذا فتحوا هذه البلاد فعلوا كما ذكرت ، ولا أظنهم يستغنون عن مولاي في حكم هذه البلاد بعد فتحها • فقد ولوا على طنجة رجلا بربريا اسمه طارق مع ان البرابرة لم يذعنوا لسلطانهم اذعانا تاما حتى الان • ولعلهم يفعلون ذلك لقلة عددهم بالنظر الى سعة البلاد التي فتحوها واضطرارهم الى الاستعانة بغير العرب في ضبط الاحكام • وعلى كل حال فاننا لا نألو جهدا في اقناعهم

بذلـك » .

فلما سمع الفونس قوله اطمأن خاطره من هذه الناحية ولم يبق ما يشغله الا امر فلورندا ، فالتفت الى الرئيس وقال : «هل من كلام يلقـى علينا ام تأذنون بانصرافنا ؟» . فقال الرئيس بعد ان وقف الجميع : «اذا شئت الانصراف فالامر فيه امرك . ولكننا نرغب اليك ان تعتقد صدق عبوديتنا في خدمتك ، وان اليهود في كل هذه البلاد يضحون بأموالهم وأنفسهم في مصلحتك ، وعهد الله في ذلك بيننا وبينك» . فشكـــره الفونس وقال : «قد ذكرت لكم غرضي ، والله ولي التوفيق» .

ثم تحرك يعقوب نحو الباب وأشار الى الفونس فتبعه وخرجا من تلك الحجرة الى الغرفة الكبرى وفيها المقاعد حول المنضدة كما تقدم . فمشيا مشية خاصة . وخرجا من باب الى باب ، حتى انتهيا الى السرداب ومنه الى الكهف . فلما أطلا على الخلاء رأيا الفجر قد لاح فعلم الفونس انهم قضوا طول الليل هناك وأحس ببرد الخلاء . ثم نزعـــا الثوبين الاسودين وخرجا من الكهف يلتمسان المدينة ، وكان بابها قد فتـــح فدخلاها وسارا يقطعانها نحو الجسر وألفونس لا يتكلم لما ازدحم فـي مخيلته من الامور الجديدة . ولم يعد يدري كيف يعامل يعقوب بعد ان عرف انه من أعيان اليهود ، لكنه ظل راغبا في استطلاع بقية سره . على انه كان قد استولى عليه الصداع بعد خروجـــه من السرداب اذ استقبله النسيم البارد على أثر سهره الطويل ، فأصبح لا يستطيع بحثا في شيء . ولكن صورة فلورندا لم تبرح مخيلته ، وما سمعه من اقوالها الى والدها لم يغب عن سمعه .

ووصلا الى القلعة وهو ما زال ساكنا ، ويعقوب يراقب حركاتـــه وسكناته ، وكان قد ادرك بعض ما يجول في خاطره ، ولم يشأ ان يحادثه في شيء غير الاستفهام عما يريده من طعام او نحوه . وصعدا الى غرفة

الفونس فأعد له يعقوب كل ما يحتاج اليه وهيأ له الفراش فنام ، ونـام يعقوب ايضا .

فلنتركهما نائمين بجوار استجة ، ولنذهب بالقارىء الى افريقيـة وهي بلاد البربر المعبر عنها اليوم بشمالي افريقيا وفيها برقة وطرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش) لنبحث عن أحوال العرب هناك الى فتح الاندلس .

- ٧ -

توفي الخليفة عبد الملك بن مروان سنة ٨٥ هـ فخلفه ابنه الوليد . وكان عبد الملك قد تولى الخلافة عشرين سنة ، قضى معظمها في محاربة مناظريه عليها ، وكثيرا ما خاف خروجها من يديه ، ولكنه كان ذا سياسة ودهاء ، وقد نصره الحجاج بن يوسف أدهى عمال المسلمين وأشدهـم وطأة فخلصت الخلافة لعبد الملك . فلما مات خلفه ابنه الوليد وقد نجا من المنافسين ، فانصرف همه الى توسيع المملكة الاسلامية فبعث بقتيبة بن مسلم نحو الشرق لفتح ما وراء النهر فأوغل في بلاد الترك حتى ادرك حدود الصين ، وبعث اخاه مسلمة بن عبد الملك شمالا لغزو بلاد الروم ففتح عمورية وهرقلة وقمونية وغيرها . وأنفذ موسى بن نصير الـى افريقية فولاه اياها وأمره ان يتم فتحها .

وكانت افريقية قد فتحت في صدر الاسلام وألحقت بمصر ولكن أهمل شأنها لبعدها ومشقة المسير اليها . وأهل افريقية الاصليون قبائل عديدة من البربر لهم ألسنة خاصة وعادات خاصة ، وبلادهم كثـيرة

الماشية والمرعى • وكانوا لما اشتغل الامويون عن افريقية بأنفسهم ايام عبد الملك قد اغتنموا الفرصة وحاولوا التخلص من حكم المسلمين فتمردوا وشقوا عصا الطاعة • فبعث اليهم عبد الملك حسان بن النعمان فحاربهم وأخضعهم ونشر الاسلام فيهم ، ولكنهم ما لبثوا ان عادوا الى الاضطراب • فلما تولى الوليد بلغه انهم في انقسام فيما بينهم فرأى ان يغتنم هذه الفرصة لتأييد سلطانه هناك وتتمة فتح تلك البلاد فبعث اليها بموسى بن نصير وهو عربي لخمي وكان قائدا باسلا حسن الاعتقاد في الاسلام ، فنزل القيروان ثم تتبع البربر الى بلاد السوس الادنى وهم يفرون من بين يديه حتى اذا يئسوا من النصر جاءوا اليه مستأمنين وبذلوا له الطاعة ، فولى عليهم اناسا من رجاله يضبطون أحوالهم ويعلمونهم القرآن وفرائض الاسلام •

وكان في جملة مواليه رجل من البربر اسمه طارق بن زياد ، وكان شجاعا اعتنق الاسلام وأظهر غيرة عليه ورغبة في تأييده • فلما اتسعت فتوح موسى في افريقية ولي مولاه طارقا على طنجة وأعمالها ، وترك عنده ١٩٫٠٠٠ فارس من البربر ممن أسلموا وحسن اسلامهم • ورجع موسى الى افريقية ولم يبق في تلك البلاد غير خاضع للمسلمين الا مدينة سبتة وهي ميناء مشرف على «بحر الزقاق» المسمى الان بوغاز جبل طارق • وكان حاكمهما هو الكونت يوليان المتقدم ذكره •

وكان جماعة البربر في المغرب يعبدون الاوثان ، الا بعض من خالط الروم على شواطيء البحر فانهم اعتنقوا النصرانية • وكان لكل قبيلة أصنام وعبادات ، وكهنة يديرون شؤونها ويتولون الاحكام بين اهلها كما كان يفعل الكهان عند العرب في الجاهلية . وكان البرابرة يستشيرون كاهنهم ويسمى «ماربوط» في شؤون الحرب والسلم ، ويحملون اليه الهدايا من الماشية والحنطة والرقيق الاسود والابيض • وكان التجار

وغيرهم من الروم والقوط يسطون على قبائل البربر فيخطفون الاطفال والغلمان ويحملونهم الى الآفاق يتجرون ببيعهم ، كما كانوا يتجـرون بغلمان البيض من اهل أسبانيا وغيرها ــ والغالب ان يكون هؤلاء من اسرى الحرب ــ وكان بيع الاسرى شائعا في تلك العصور .. واشتهر برابرة المغرب خصوصا بركوب الخيل .

وكان طارق بن زياد ينتمي الى قبيلة الصدف ، احدى قبائل البربر، وقد نشأ في الجبال وعاش عيشة البدو . وتدين بالوثنية مثل سائر اهله ورفاقه . وشب قوي البنية شديد البطش شجاعا وكان منذ نعومة أظفاره مشهورا بين رفاقه بالفروسية والقوة .

وكان من جملة عشرائه غلام ابيض بعكس سائر البرابـــرة . وكانت تقاطيع وجهه تختلف عن تقاطيع وجوههم ــ فالبرابرة ضخام الشفـــاه عراض الوجوه قصار الانوف سود الشعر والبشرة ، بينما هو ابيـــض الوجه اشقر الشعر ازرق العينين . ولكنه بالنظر الى معيشة البداوة في البراري وركوب الخيل والغزو اسمر لونه قليلا وضخمت اعضاؤه كلها فأصبح غليظ العنق والذراعين . واسع الصدر خشن الكف كث الشعر. وكانوا يسمونه (بدر) اشارة الى صباحة وجهه دون سائر رفاقه . وكان البرابرة يحبونه لخفة روحه وبسالته ، ولاسيما انهم كانوا يرون الشجاعة من خصائص السمر ، وان البيض ضعاف جبناء !

شب طارق وهو يرى هذا الغلام في بيت ابيه ويعلم انه ليس اخاه وان «ماربوط» قبيلتهم دفعه الى ابيه وأوصاه برعايته والاعتناء بتربيته لانه توسم فيه الخير . فتصاحبا وتحابا . وكان طارق لا يهنأ له عيش الا اذا كان بدر معه ، وكان بدر يعجب بطارق ويحبه كثيرا ويعد نفسه اخاه، ولا يتخاطبان الا بالاخوة حتى عرفا بذلك عند سائر قبيلة الصدف .

ولما جاء موسى بن نصير الى افريقية وصار عاملا عليها كان في جملة

من اتخذهم من الموالي طارق بن زياد ، حتى اذا ما رأى شجاعته وحسن اسلامه رقاه حتى جعله قائد حامية طنجة كما تقدم • وكان بدر رفيق طارق في كل اعماله ، ولكنه لصغر سنه لم ينتبه له موسى وان كان قد أظهر في الوقائع التي شهدها بسالة الابطال المحنكين ، لانه لم يكن يهاب الموت خصوصا اذا كان مع اخيه طارق •

فلما عرض يوليان على موسى فتح الاندلس على ان يكون هو عونا له في ذلك بعث موسى الى الخليفة الوليد يستأذنه ، فأذن له . على ان يخوضها بالسرايا (ولا يغرر بالمسلمين في بحر شديد الاهوال) • فرأى موسى ان يجرب ذلك برجال من الموالي المسلمين من غير العرب ولم ير خيرا من طارق يوليه قيادة تلك الحملة . فأعد سبعة آلاف من الموالي والبربر ــ وفيهم بعض العرب ــ وسلم قيادتهم الى طارق . وأمره ان يعبر بهم بحر الزقاق الى الاندلس ، فعبره في سفن أعدها لهم يوليان حتى نزلوا جبلا على شاطئه وسمي منذ ذلك (جبل طارق) •

ولم يلق طارق مشقة في امتلاك الجبل ، ثم بلغه ان رودريك صاحب طليطلة يتأهب للمجيء اليه في جند عظيم . فكتب الى موسى فأمده بخمسة آلاف بربري فصار جنده اثني عشر الفا وفيهم يوليان صاحب سبتة يدلهم على عورات البلاد ويتجسس لهم الاخبار ، ويبث في اهل البلاد ان العرب جاءوا الاندلس لا بقصد الفتح والاستيطان وانما ليملأوا ايديهم من الغنائم ويخرجوا ، وحبب الى الاسبان ان يسهلوا لهم التغلب على رودريك حتى يتخلصوا منه ويعيدوا الاحكام لمن يريدون من ملوكهم الاصليين •

* * *

كان المسلمون على ما ذكرنا من تيقظهم ونهوضهم للفتح والتوفيق

حليفهم ، وورودريك في بلاطه على نحو ما قدمنا من اشتغالـــه بالترف والرخاء . وقد تركناه وهو يكاد يتمزق غيظا من اوباس لانتزاعه فلورندا من بين يديه بعد ان كادت تكون فريسته ، فلما رأى منه عند محاكمته في مجلس الاساقفة ما كاد يفضح امره ، أسرع الى انهاء الجلسة بحجة تأجيل النظر في تهمة اوباس الى جلسة اخرى كما تقدم وهو لا ينوي العود الى ذلك ، وانما اتخذه ذريعة للحجر على اوباس في السجن ريثما يبحث عن فلورندا . حتى اذا ما انفضت الجلسة عاد الى قصره والاب مرتين الى جانبه يطنب فيما يزعم انه انتصار على أوباس وارغام أنفه ، فكاد ان يصدق ذلك رودريك وينسى ما كان من الصواعق التي أنزلها اوباس على رأسه فكادت تسقط عرشه .

وصل رودريك الى القصر وهو مقتنع بفظاعة ذنب أوباس وانـــه يستوجب أضعاف تلك النقمة ، فعزم على استبقائه في السجن ريثما يدبر وسيلة لاستطلاع خبر فلورندا ثم ينتقم منه . ولم يعجل في قتله لئلا يحتاج اليه في البحث عنها . وكان اول ما قام به ان بث العيـــون والارصاد في ضواحي طليطلة وفي الطرق المتشعبة منها ، ووعدهـــم باجزال المكافأة لهم اذا قبضوا عليها وعلى من عساه ان يكون معها .

اما اوباس فانه ذهب الى سجنه منشرح الصـــدر ، لاعتقاده ببراءة ساحته وسلامة طويته ونبالة مقصده ، خصوصا بعد ان أتيح له كشـف أعمال رودريك للمجمع ولو تلميحا . ومع انه لم يكن يرجو تغير المجمع على رودريك كان يهمه الانتصار للحق والاستجابة لصوت الضمـــير الحي ــ شأن الذين ينتظمون في سلك الرهبنة رغبة عن ملاذ هذا العالم، فهؤلاء اذا اخلصوا النية في تبتلهم لم يكن في الناس أقدر منهم على نصرة الحق لاستغنائهم عن الشهرة او الثروة ، ولاحتقارهم سائر أمجاد هذا العالم الفانية ، وهم انما تبتلوا نفورا منها ــ وقد كان اوباس واحدا

منهم ، ولم يكن سعيه في ارجاع الملك لابن اخيه الا مـن قبيل نصرة الحـق .

اقام اوباس في سجنه المؤقت بضعة اسابيع وهو لا يبالي لو اقام فيه أعواما لولا اشتغال خاطره بفلورندا . لانه لا يعلم اين هي ، ولا اين ذهب بها اجيلا وشانتيلا ، ولكنه رجح من قرائن مختلفة انهم لم يقعوا فـي قبضة رودريك . وكان لثقته في ذينك الشابين وغيرتهما وصدق نيتهما في خدمته مطمئن البال على فلورندا ، على انه كان شديد الرغبة فـي معرفة مقرها ومصيرها . كما كان يفكر في الفونس وفي المهمة التي انفذه رودريك فيها ، وما قد يتعمده من أذيته اذا علم بسعيه في انقاذ فلورندا وطلب الملك لنفسه . ولكنه لانطباعه على نصرة الحق لم يكن يخـاف بأسا ، ولاعتقاده ان الحق يعلو ولا يعلى عليه وان على الباغي تدور الدوائر ، كان يتوقع وقوع رودريك في شر اعماله ، ذلك ما صرح به غير مرة حتى بين يدي رودريك نفسه !

والعاقل اذا تدبر مصير الحياة الدنيا مع ما يعتورها من الاخطار يرى الرجوع الى غير الحقيقة ضربا من الجنون . لان الحقيقة هي الغالبة وهي وحدها التي تبقى . وان كنا في الواقع لا نكاد نخطو خطوة الا والوهم قائدنا ــ ذلك حالنا في كل علاقاتنا الادبية والاجتماعية ، وهي علاقات اساسها اعتبارات وهمية لا وجود لها في الطبيعة ، وانما هي مما صوره وهم الانسان مسوقا اليه بالضعف البشري ، محاولا اثباته صونا لمصلحته فيما تدعوه اليه عواطفه .

* * *

شريش Xeres مدينة في جنوبي اسبانيا تبعة لولاية قادس ، في الطريق بينها وبين اشبيلية . تبعد عن مدينة قادس ١٧ ميلا ، وعلى مقربة

منها نهر صغير هو وادي لِيتة Gua Dalete الذي يبدأ من جبال ولاية قادس في الشمال ، ويسير نحو الجنوب والغرب ، فيترك مدينة شريش الى يمينه ويجري حتى يصب في المحيط الاتلانتيكي في خليج بالقرب من قادس • ومدينة شريش واقعة في منبسط من الارض بين جبلين يكتنفانها من الشرق والغرب ، وبينها وبين مجرى النهر كثير من المغارس والكروم حتى لقد اشتهرت بكرمها وخمرها المعروفة باسمها (خمر شري) الشائعة فياوربا ، وهي خمر ثمينة يعتقونها ويتعاطونها على موائدهم ، ومعظم ما يصدر الى العالم منها يعصر من كروم ضواحي هذه المدينة •

وتحتل كروم شريش مساحة كبيرة من ضواحيها الى النهر وما وراءه، على آكمات مسطحة او مائلة • وبين الكروم وبيوت الزراع ، ومنها ابنية غريبة الشكل تتألف من غرف كبيرة قائمة على صفوف من الاساطين الدقيقة ، عالية السقف ، في جدرانها منافذ عديدة يتخللها الهواء ، ويستخدمونها كمستودعات يختزن خمورهم فيها لتعتيقها بمرور الاعوام•

وبجوار وادي شريش مما يلي وادي لِيتة سهل سماه المقري «فحص شريش» التقى فيه طارق البربري ورودريك القوطي ، وفيه كانت الضربة القاضية بفتح الاندلس وتمتع العرب بغنائمها ومحصولاتها ، وهان عليهم الفتح بعد ذلك حتى طمعوا في فتح اوربا كلها ، وكانت غاية في الاضطراب والتضعضع ، فلو استمروا في غزوها لما لقوا من يصد سيوفهم او يقف في سبيل نبالهم ، ولكنهم أجلوا المسير فضاعت منهم الفرصة •

ففي صيف سنة ٧١٠ للميلاد ، اي بعد الحوادث التي ذكرناها في طليطلة ببضعة اشهر ، كانت مغارس الكرم في شريش وضواحيها وعلى جانبي وادي لِيتة قد نضجت أعنابها وأخذ بعض الفلاحين في قطافها والبعض الاخر في تدعيم ما ثقل حمله من الدوالي لكبر العناقيد ، واشتغل

آخرون في اعداد المعاصر ، وغيرهم في نقل بعض ما اختزنوه من خمور العام الماضي لاختزان خمر هذا العام .

وكان يشتغل في ذلك كله عائلات من اهل البلاد الاصليين او ممن قضي عليهم بالاسر في بعض الحروب فأصبحوا في مصاف العبيد ، وفيهم من كان بين قومه من اهل الوجاهة وقد صبروا على مضض الذل ، وهو غير ثقيل على اهل ذلك الزمان لانه كان جاريا على الجميع ؛ لكنه لم يكن يمنع تذمر اولئك الفلاحين من تلك الحال كما كان اكثرهم يشكون من صاحب تاج طليطلة .

على ان الرأي العام لم يكن راضيا عن رودريك لاسباب نقدم ذكر بعضها ، وكانوا من جهة اخرى قد سمعوا بنزول العرب بلادهم عند بحر المجاز (بوغاز جبل طارق) فلم يكترثوا بنزولهم ولا علقوا عليه كبير اهمية . وكان هناك شيخ طاعن في السن قضى حياته في الاسفار متنقلا بين اسبانيا وما يقابلها من بلاد الشاطىء الافريقي حتى وصل الى مصر والشام ، وشاهد بعض احوال العرب في أوائل ظهور الاسلام ، فكان اذا ذكروا العرب بين يديه يقول : «لا ينجينا من هذا الملك الا هؤلاء» ، فلما قيل له انهم عبروا البحر قال : «لقد قرب الفرج !»

وكان شيخنا المذكور جالسا في كوخه في أواخر يوليو من ذلك العام (سنة ٧١٠) الموافق رمضان سنة ٩٢ هـ وحوله اولاده وأحفاده ، يشتغل النساء منهم باعداد الطعام واصطناع الالبان والجبن ، والاولاد بعلف الماشية او صنع السلال لحمل العنب عند قطافه ، ولا حديث لهم الا تقدير محصول ذلك العام من العنب والخمر – وما لهم في تقديره فائدة لانه ليس ملكهم ، اذ لم يكن للفلاحين ونحوهم ان يقتنوا عقاراً او يملكوا بنيانا ، وانما الملك والسيادة لطبقة الشرفاء وأكثرهم من الرومانيين والقوط ، ولم يكن للفلاحين سوى حصة قليلة من النتاج .

ولكن الانسان ميال بطبعه للبحث عن المجهول ، ولذا فقد اشتغل الشيخ وأولاده معظم ذلك النهار في تقدير غلة تلك السنة حتى احتدم الجدال بينه وبين احدهم فشغلوا بذلك عما حولهم . وكانوا جالسين في ظل دالية كبيرة قد نصبوا بأغصانها خيمة بشكل العريش ، وأجروا الماء تحتها بقناة تقف عندها الماشية للشرب والناس للاستقاء ، ويستظل بظلها اهل تلك القرية وما فيهم غير الشيخ وأولاده وأحفاده ونساء المتزوجين منهم.

أقبل المساء وهم على هذا الحال وقد رجع من كان غائبا اثناء النهار في اصلاح الدالية او تدعيمها او تنظيف المستودعات او عمل السلال او نقل القضبان اليابسة ليتخذوها وقودا لهم ـ فربما جاء الرجل وعلى رأسه سلة ، وتحت ابطه حزمة ، وفي جيبه صرة ، وفي يده رغيف ، وفي فمه لقمة ، يجر وراءه صبية : هذا يقود خروفا ، وذاك يسوق حمارا ، وذلك يحمل عنقودا قطعه قبل تمام نضجه وفيه حموضة قليلة وقد منعه ابوه عن ذلك فخبأه في جيبه وجعل يأكله اختلاسا ، وأخوه بجانبه يهدده بالشكوى الى ابيه اذا لم يطعمه بعضه ، فيهرع هذا الى والدته يختبىء في ثنايا ردائها وفي زعمه ان ذلك الرداء يحميه من كوارث الدهر وطوارق الحدثان . كأنما هو راية كسرى انو شروان ـ تلك عيشة السذاجة الفطرية : ان يقتات المرء من ثمار ما يغرسه ، وألبان ما يرعاه ، لا مطمع له الا ان يجمع من ذلك ما يكفي اهله بقية العام للكساء والطعام ـ وهناك النيات السليمة والقلوب الطاهرة . هناك الاخلاص وصدق اللهجة ، اذا سمعت احدهم يقول لك انه مشتاق لرؤيتك فهو يعني ذلك حقا ، ولا يقوله على سبيل العادة التي اساسها الرياء والتملق !. والسعادة الحقيقية (اذا صح وجودها) انما تكون في تلك المنازل المتواضعة بين تلك المغارس التي تتجدد اوراقها في كل عام وتتجدد معها قلوب اهلها ـ ليس هناك ضغينة ولا حقد، ولا طمع ولا نميمة ولا رياء، لقلة حاجات الانسان وسهولة

نيلها ، لان الحسد والحقد والرياء والنميمة انما يلجأ اليها الضعيف اذا كثرت مطالبه ، وعجز عن الحصول عليها بجده وسعيه ــ ولذلك كانت الرذائل من جملة أدران المدنية •

على الفلاح الساذج انما يكون سعيدا في ظل الامن والعدالة ، والا فهو من أتعس خلق الله • لان الظلم يقضي على سعادته قضاء مبرما اذ يسلبه ينبوع تلك السعادة وهو غلة ارضه ــ فكيف اذا لم يكن هــو صاحب الارض كما كان شأن فلاحي اسبانيا في الاجيال الوسطى ؟! فهل يلام شيخنا اذا تمنى ابدال حكومته بغيرها ولو كان غريبا ؟!

غربت الشمس وهي ترسل أشعة ذهبية تشرح الصدر ، ويتطاول اهل المدن لرؤيتها فلا يتفق لهم ذلك الا قليلا ، ولو اراد الفلاحون لرأوها كل ليلة ولكنهم في شاغل عنها وعن سواها من مناظر المساء باعداد العشاء والاجتماع تحت سقف المنزل او تحت بعض الاشجار • فلما غابت الشمس اجتمع أفراد تلك العائلة ــ وهم يعدون بالعشرات ــ وفيهم الاطفال والاحداث والشبان والشابات ، وأصغرهم سنا اكثرهم فرحا ، وأعظمهم اهتماما ذلك الشيخ لانه لم يكن يهدأ له بال الا بعد ان يرى اولاده وأحفاده تحت ذلك العريش في اخر النهار ، خصوصا بعد ان جند امير تلك الناحية بعضهم بأمر رودريك ، ليكونوا له عونا في محاربة العرب القادمين عليهم من جهة البحر •

فلما ظن الشيخ ان الاجتماع قد تكامل تفرس في اولاده فاذا احدى بناته ما زالت غائبة ، وكانت أعزهم على قلبه لطفها وحنوها فصبر هنيهة اخرى لعلها تأتي ، فلما استبطأها نادى امرأته قائلا : «اين مارية ؟»

فبغتت الوالدة العجوز وكانت تحسبها مع اخوتها وأخواتها ، ولم تكن تهتم بمراقبة رجوع احد لاعتمادها في ذلك على زوجها ــ فلمــا سمعته يسألها عنها بغتت وصاحت : «ألم تأت بعد ؟»

قال : «كلا اين تركتموها ؟»

قالت : «تركتها في المستودع الكبير فوق الرابية تغسل بعض الدنان والبراميل ، وتنقل بعض الجرار الملآنة الى جانب اخر ومعها اخوهـا بطرس» • قالت ذلك والتفتت الى ما حولها ونادت : «بطرس !» فجاء الغلام مسرعا فابتدرته قائلة : «اين تركت مارية ؟» • قال : «تركتها في المستودع الكبير • ألم تأت بعد ؟» • قالت : «لا» • ولم تتم العجوز قولها حتى وثب بطرس من العريش وأسرع نحو ذلك التل وهو يقول : «سأعود بعد قليل» وانما حركه على تلك العجلة شعوره بأنه مخطىء برجوعه وحده دون اخته •

وكان القمر في اواخر ايامه والليل مظلم والطرق بين الكروم شاقة وعرة الا على اهلها فانهم كانوا يمشون بينها وأعينهم مغمضة ، لا يعثرون بعود ولا حجر • ولبث الشيخ وأهله ينتظرون رجوع بطرس في قلق فلما طال غيابه وثب الوالد الشيخ كأنه شاب في عنفوان الشباب واقتص أثر ابنه عن طريق مختصر يعرفه ، وصعد على السلم الى باب المخزن وهو يلهث من التعب ، فوجد الباب مقفلا وليس عنده احد فدقه دقات كثيرة فلم يسمع جوابا ، فتأمل في الباب فرآه موصدا من الخارج على جاري عادته فترجح عنده ان مارية خرجت منه وأقفلته • فوقف في اعلى السلم ليستريح والتفت الى ما حوله فأطل على مدينة شريش ، الى ضفاف النهر من جهة ، وعلى كرومها من جهة اخرى والظلام يغشي بصره ، على انه رأى أنوارا على ضفة النهر من تلك الجهة عرف من تبعثرها وتعددها انها نيران جماعة كبيرة • ولم يكن يعهد في تلك الجهات اناسا غير الفلاحين وعملة الحقول وهم لا يوقدون نارا على هذه الصورة ، فاشتغل خاطره ونسي ضياع ابنته ، ووقف هنيهة ينظر الى تلك النيران ويرى أشعتها تتلألأ في مجرى النهر كأنها مصابيح موقدة تحت الماء تهتز أضواؤهـا

باهتزاز أمواجه ، ولولا ذلك لم يعرف ان تلك النيران موقدة على ضفاف النهر ثم ما لبث ان سمع حركة ركض ومرور اناس بين الدوالي فأنصت فسمع صوت امرأته ومعها بعض اولاده فعلم انهم جاءوا لاستطلاع خبر مارية فناداهم فكان اول صوت سمعه منهم صوت امرأته وهي تقول: «أين مارية ؟» فلما سمع الشيخ ذلك اقشعر بدنه وزاد بلباله وقال : «اين بطرس .. هل عاد اليكم ؟»

وكانت العجوز قد وصلت الى أسفل السلم فأجابت وهي تمد يدها الى أخمص قدمها وتستخرج شوكة أصابتها في اثناء جريها : «عاد بطرس ولم يجدها !»

فنزل الشيخ عن السلم حتى التقى بامرأته ومعها بضعة من اولاده فقال لهم : «يظهر لي ان مارية فقدت في اثناء رجوعها من هنا . فلنتفرق وليسر كل منا في طريق حتى نلتقي في البيت . فمن وجدها منا فلينبه الباقين بالنداء حتى يكفوا عن البحث . ولتكن العلامة فيما بيننا هذه اللفظة (يا مار بطرس) . اما انا فاذا ابطأت بالرجوع فلا تقلقوا لغيابي». فأرادت امرأته ان تستفهم منه عن السبب فلم يصبر لسماع كلامها وانحدر نحو النهر . يثب بين الكروم من تل الى تل ، يعثر تارة بالعليق وطورا بالحجارة ، وهو يتطلع نحو النهر مخافة ان يخطىء الطريق لاشتداد الظلام ، فاذا توارى النهر عن عينيه وراء بعض الدوالي العالية او وراء التلال تحاشى ان ينحرف فتبعد المسافة عليه ، فلما قرب منه رأى النور على ضفتيه ، ثم سمع جعجعة عرف انها اصوات الجمال وكأن قد سمع مثلها في اثناء أسفاره ـ اذ لم يكن لاسبانيا عهد بها من قبل ـ فتنسم رائحة العرب ، وأدرك انه على مقربة منهم ، وتذكر ما سمعه عن نزولهم عدوة الاندلس فتحقق انه بجانب معسكرهم ، ولكنه استبعد سهولة وصولهم الى ذلك المكان .

وبعد هنيهة وصل الى أكمة وقف عندها وتفرس فيما بين يديه ، فاذا هو مطل على سهل كبير ينتهي الى النهر ، وعلى الضفة البعيدة خيام تتخللها النيران ، ورأى على الضفة القريبة في طرف السهل نارا وبالقرب منها خيمة كبيرة لم يتبين لونها لشدة الظلام ، فلبث برهة يفكر في مارية وضياعها حتى هم بالرجوع للبحث عنها في مكان اخر ، ثم حدثته نفسه بالنزول الى تلك الخيمة واستطلاع خبر هؤلاء القوم قبل رجوعه ولم يخف بأسا لما علمه في اثناء أسفاره في افريقية والشام من عدل العرب ورفقهم بأهل البلاد التي يفتحونها . وكان قد تعلم بعض الالفاظ العربية مع غرابة تلك اللغة عنده وبعدها عن لغته . وكانت السنون قد علمته الشجاعة ورباطة الجأش فنزل من الاكمة وسار يلتمس تلك الخيمة وهو يعجب لانفرادها هناك مع كثرة الخيام على الضفة الاخرى . فلما دنا منها طرق أذنه صوت ارتعدت له فرائصه بغتة واستغرابا ، اذ سمع مارية داخل الخيمة تتكلم وصوتها مختنق من البكاء ، فلم يعد يتمالك عن الوثوب نحو الخيمة وهو لا يهاب احدا ولا يعي شيئا من فرط ما هاج من عواطفه خوفا على ابنته ، فاعترضه رجل واقف بباب الخيمة وقد تقلد سيفا ورمحا وهم بالقبض عليه وهو يقول بالعربية : «من انت ؟» ففهم الشيخ مراده فأجابه بكلمات متقطعة انه يريد الدخول الى الخيمة ، فاستمهله الرجل ريثما دخل ثم عاد وأشار اليه فدخل وأجال بصره في أطراف الخيمة للبحث عن ابنته فرآها جالسة في بعض جوانبها على الارض ، وحالما وقع بصرها على ابيها مع ضعف نور المصباح هناك وثبت نحوه وهي تصيح : «ابي ابي !» فاستقبلها الشيخ بين ذراعيه وقد دمعت عيناها من البغتة والفرح، ونظر الى صدر الخيمة فاذا هناك رجل كبير الهامة عليه العمامة والجبة فعرف انه من البربر ، وبجانبه رجل بلباس القوط لم يحدق فيه الا قليلا حتى عرف انه يوليان صاحب سبتة ، ورجح ان يكون صاحبه هو طارق

ابن زياد ، اذ كان قد سمع باسمه ، وعرف انه هو الذي يقود جيوش المسلمين ، وان يوليان قد اتفق معهم على القوط ، وكان يحسب ذلك اشاعة كاذبة ، فلما رآه تحقق الامر وأيقن ان العرب غالبون لا محالة .

مرت كل هذه الخيالات في ذهن الشيخ في لحظة وهو معانق ابنته يخفف عنها ، وسمع صاحب سبتة يقول له بلغة الاسبان : «لعل هذه الفتاة ابنتك ؟»

قال : «نعم يا مولاي» . قال : «لا خوف عليها فانها في أمان على كل حال . ولا تظن مجيئك غير شيئا من عزمنا في شأنها ، فقد كان الامير عازما على ارجاعها اليك آمنة سالمة . وأما بكاؤها الذي تراه فانما هو من خوفها ، وقد ظنت هؤلاء العرب يرتكبون مثل ما يرتكبه حاكمكم رودريك ، فان بمثل هذا الفعل الشنيع سيخرج سلطانه من يديه ان شاء الله !» قال ذلك وانقبضت سحنته للحال فلم يدرك احد سبب ذلك الانقباض ، على انه استطرد الكلام قائلا : «وأما سبب مجيئها الينا فان بعض رجال الامير خرج في أصيل هذا اليوم لحاجة فرآها في الطريق فجاء بها وهو يحسبها من قبيل السبايا ، فلما علم الامير بذلك أنكره عليه ، وقد كانا في جدال عنيف في هذا الشأن الى ساعة دخولك» .

ولم يتم يوليان كلامه حتى وثب الى وسط الخيمة شاب بلباس العرب وعلى رأسه عمامة صغيرة ولكن سحنته غير سحنة العرب والبرابرة وهو في مقتبل العمر تتدفق الصحة من عينيه وجبينه ونظر الى يوليان وهو يقول : «اراك حرمتني من غنيمتي رغبة في مرضاة ابناء جلدتك ..!»

فأجابه طارق وهو يتبسم وقال : «لا تعجل يا بدر ، فانك ستصيب كثيرا من الغنائم . فنحن في اول الطريق وغدا نلتقي بجند طليطلة فما تصيبه من الغنيمة او السبايا فهو لك . اما الان فما نحن في حرب ، ولا يمكننا ان نعد هذه الفتاة سبية . وهذا ابوها شيخ قد طعن في

السن ورأيت ما كان من لهفته عليها : فهل يليق بنا ان ننغص عيشهما بلا حق ، والاسلام انما يدعو الى العدل والرفق ؟!»

ثم التفت طارق الى الشيخ وقال : «انصرف ايها الشيخ الى منزلك وأنت في أمان حتى تبلغه . واعلم اننا لم نقدم الى هذه البلاد الا رحمة بأهلها ، وان ديننا يأمرنا بالرفق والاحسان ، فكن على يقين انت وكل اهل الاندلس ان من يكف يده عن حربنا فهو في ذمتنا ولا خوف عليه، وأما الذين يجسرون على مناوأتنا فما عندنا لهم الا السيف ..!» ثم نادى: «يا غلام !» فدخل رجل بربري من أعوانه فقال له : «اصحب الشيخ وابنته حتى يصلا الى مأمنهما ..»

فهم الشيخ بتقبيل يد طارق فمنعه وطيب خاطره وصرفه ، فخرج وهو يثني على ما لقيه من طارق وقال في نفسه : «بمثل ذلك يملك الامير الرعية ولا يملكهم بالعنف او الظلم ..»

- ٨ -

تركنا فلورندا وخالتها والرجلين اجيلا وشاتيلا هائمين على وجوههم في ضواحي طليطلة . وكان السبب في ذلك كما علمت من سياق الرواية ان اجيلا وشاتيلا كانا في انتظار فلورندا عند اسفل القصر في تلك الليلة الشاتية المرعدة ، فلما تيسر لها الافلات من بين يدي رودريك بعد ان بغته اوباس كما تقدم اسرعت الى النافذة ، وحملت ما استطاعت حمله من الثياب وأيقونة صغيرة للسيدة العذراء كانت شديدة الاعتقاد بكرامتها ،

فخبأتها بين ثيابها والتفت بالقباء وخالتها العجوز تساعدها في التأهب ، فلما أتما الاستعداد بقدر الامكان أطلت العجوز ونادت وكان الرجلان على أهبة العمل فتسلقا الشجرة وتعاونا على انزال فلورندا سالمة ، ثم العجوز وما بقي من الامتعة الضرورية ، ونزلوا جميعا من الحديقة والرياح تهب والرعود تقصف ، وهم في شاغل من الخوف عن كل ذلك حتى نزلوا الى القارب .. وكانت فلورندا تتوقع ان ترى الفونس فيه لانه هو الذي كتب اليها ان توافيه اليه ، فلما رأته خاليا اشتغل بالها واستحيت ان تسأل عنه ، فخاطبت خالتها في الامر فالتفتت العجوز الى الرجلين وقالت : «وأين الامير الفونس ؟» . فقال شاتيلا : «لم يأت معنا يا سيدتي» . قالت : «وأين هو ؟» . فخاف شاتيلا ان يكون في قوله ما يسيء فلورندا لعلمه بما بينها وبين الفونس من الحب المتبادل ، لان الرجلين كانا قد ادركا سر المهمة التي انتدبهما لها اوباس ، فاشتغل بالتجديف مع اخيه لتحويل القارب الى جهة مجرى النهر ، وكان المصباح قد انطفأ من شدة الرياح . على انه لم يجد مندوحة عن الجواب على سؤالها فقال لها : «نظنه في منزل المتروبوليت لانه هو الذي أمرنا ان نذهب بك الى هناك» .

فسكن روعها ولكنها ما زالت مضطربة الخاطر اذ لم تكن تتوقع ان يكل الفونس انقاذها الى سواه .

سار بهم القارب وهم يطلبون ضفة قريبة من بيت اوباس لانهم كانوا على موعد للذهاب اليه ومعهم فلورندا ، ولكن طال بهم المسير في النهر لهياجه واضطرابه ومقاومة الرياح لهم فضلا عن شدة الظلام .. وكانت فلورندا كلما خافت خطرا استجارت بالله واستخرجت الايقونة وقبلتها فيرتاح خاطرها ويطمئن بالها . وتلك ثمرة من ثمار الايمان ، اذ ليس افضل منه وسيلة لتعزية الانسان .

مضى هزيع من الليل قبل نزولهم الى البر ، فلما نزلوه تشاوروا فيما يجب ان يفعلوه ، فقال اجيلا وكان أسرع خاطرا وأكثر اقداما من اخيه : «ارى ان تمكثوا هنا وأذهب انا الى بيت اوباس ، ثم اعود بمن يحمل هذه الاحمال» . فاستصوب الجميع رأيه فمضى حتى أشرف على المنزل فرأى حوله فرسانا من جند الملك فأجفل وتراجع وقد شغل باله بسبب وجود الجند هناك . ثم ما لبث ان رأى بعضهم يخاطب اوباس فتربص في بعض المنحنيات ليسمع ما يدور بينهما ففهم من خلال الحديث ان الملك بعث بالجند للقبض عليه . فلم يخامره خوف على أوباس لفرط اعتقاده باقتداره ، ولكنه أوجس خيفة على فلورندا لاعتقاده ان سبب ذلك القبض متصل بفرارها . فلما توارى الركب عنه تحول نحو القصر على امل ان يخاطب بعض الخدم فمشى وهو يسترق الخطى استراقا ويحسب الدخول سهلا بعد ذهاب الحرس ، فاذا هو بكوكبة اخرى قد احدقـــوا بالقصر واستخدموا القوة لاخراج من فيه حتى علت الضوضاء وبالغوا فـــي التخريب والتعذيب !.

فلما رأى أجيلا ذلك أيقن بالخطر الذي اصبح هو معرضا له هناك، وبما يهدد فلورندا من الاخطار الجسيمة اذا اطلع الملك على مقرها . فهرول مسرعا ولم يعد له شاغل سوى بذل كل ما في وسعه ووسع اخيه في سبيل انقاذها وحمايتها !

* * *

وكانت فلورندا جالسة على الارض وفي حجرها صرة قد اتكأت عليها بكوعيها والتفت بطرفها التفافا شديدا لشدة البرد والريح . وكان التعب قد غلب على قواها حتى مالت الى النعاس خصوصا بعد ان ظنت نفسها

قد نجت من حبائل ذلك الرجل الشرير، فأسندت رأسها على كفها وأغمضت جفنيها فنامت • ولما رأتها بربارة نائمة اجازت لنفسها الارتياح هنيهة • اما شانتيلا فانه ظل ساهرا قلقا وقد استبطأ اخاه وحسب لغيابه ألف حساب ، وربما لامه لابطائه ومغادرته اياهم عرضة للهواء والبرد ، وتوهم انه لو ذهب هو في تلك المهمة لكان أقدر منه على اتمامها وملاحظة ما قد ينجم عن الابطاء من الاضرار • على انه ما لبث ان رآه عائدا وحده فذعر لانفراده ، ثم سمعه يقول : «هلم بنا سريعا حتى نخرج من هذه الضواحي الليلة ، لاني لا احسب الملك الا وهو يبث علينا العيون والارصاد من صباح الغد !»

فأفاقت فلورندا من رقادها مذعورة وصاحت : «ويلاه والى ايـن نذهب ؟ نجني يا مخلصي ، اين ألفونس ؟»

فقال : «ليس في المنزل احد يا سيدتي» •

قالت : «ولا اوباس ؟»

قال : «لقد رأيته وهو مسوق بين أيدي الجند الملوكي الى قصر الملك • ثم رأيت الجند دخلوا بيته وأخرجوا كل من كان فيه من الخدم، ولم أسمع ذكرا لسيدي الفونس بينهم ، فلعله لا يزال في منزله » •

فقطع شانتيلا كلام اخيه وقال : «ان سيدي الفونس لم يرجع الى قصره قبل خروجنا منه» •

قالت : «اين كان قبل خروجكم ...؟»

قال : «كان قد ذهب في مهمة خاصة بأمر الملك» • فتذكرت للحال ما سمعته من رودريك في تلك الليلة عن ابعاد الفونس ، وكانت تحسبه يقول ذلك على سبيل التهديد ، فأيقنت عند ذلك صدق قوله ولكنها لم تدر هل أبعده او حبسه ، فأعادت السؤال قائلة : «هل انت واثق بذهابه. وهل تعلم الى أين ؟»

قال : «اني واثق بخروجه من قصره وحوله الحرس الملوكي ، وأما الى اين ذهب فلا أعلم • ولكن الغالب انه سار في مهمة الى بعـــض البـــلاد » •

فعاد اجيلا وقطع كلام اخيه فقال : «أظنه ارسل في قيادة حملة الى بعض البلاد لاخماد ثورة او مخابرة بعض الكونتية مما يحدث كثيرا في هذه الايام • ولا بأس عليه باذن الله • ومتى استقر بنا المقام وأمنـــا العيون والارصاد بحثنا عن مكانه • وبذلنا كل ما يؤول الى راحتـــك وراحته فاننا صنيعته وأرواحنا له • والآن لا بد لنا من مغادرة هـــذه الجهات حالا . والفرار من الظلم فضيلة ، ولنترك البحث في مصيرنا الى وقت اخر • دعونا نرجع الى القارب ونسير مع مجرى النهر حتى نخرج من حدود هذه المدينة وأهلها وحراسها في شاغل عنا بالامطار والزوابع ، فاذا صرنا في مأمن نبحث في الذي نفعله» • قال ذلك وتقدم الى فلورندا يريد مساعدتها في النهوض فنهضت وتحولت الى القارب وقد عادت اليها مخاوفها ، وتبعتها خالتها وهي تحمل صرة الثياب وبقي هناك صندوق تعاون الرجلان على حمله ونزلا في القارب وأخذا في التجديف • وكان النوء قد خف وساعدهم مجرى الماء حتى خرجوا من ضواحي المدينـــة وأصبحوا في مكان لا يرون فيه أنسيا ولا يسمعون صوتا غير نقيـــق الضفادع ، وكان قد مضى معظم الليل فأووا بالقارب الى منعطف وراء تلة تداروا بها من الرياح • وقال اجيلا عند ذلك لفلورندا : «نحن الان في مأمن يا سيدتي فاذا شئت الرقاد الى الصباح لا بأس عليك ، وكذلك الخالة ، وأما نحن فاننا تتناوب الحراسة ريثما يطلع النهار ونبحث في الجهة التي نسير اليها» •

ونامت فلورندا بقية ذلك الليل نوما مضطربا ، فلما اصبحت تناولت قطعة من نسيج كتبت عليها الكتاب الذي تقدم نصه ، واستدعت اجيلا

فدفعت الكتاب اليه والدمع يترقرق في عينيها من شدة تأثرها وهي تكتبه وقالت : «لقد رأيت من مروءتك ومروءة اخيك هذا ما يوجب سروري وامتناني كثيرا ، وقد وعدتني بالبحث عن الفونس ، وأطلب اليك فوق ذلك ان توصل هذا الكتاب الى أبي .. هل تعرف من هو ؟»

قال : «نعم يا سيدتي انه الكونت يوليان صاحب سبتة . ولكنني ارى يا مولاتي قبل كل شيء ان ننزلك في مكان امين أعرف الطريق اليه، اذا أنا عدت بالجواب اليك» .

فالتفتت فلورندا الى خالتها وقالت : «ما رأيك يا خالة ؟. اين تظنين مقامنا اقرب الى الامن والسلامة ؟»

قالت : «لا يخفى عليكم ان في هذه البلاد أديارا ينقطع فيها الرهبان عن العالم تعبدا لله تعالى ، وتكون هذه الاديار غالبا في البراري او في الجبال ، ومنها ما لا يدخله الناس الا نادرا . فالرهبان منقطعون عن العالم برمته ، فاذا اقمنا في احدها كان ذلك أستر لحالنا ريثما يتيسر امرنـا» .

فتقدم اجيلا وكأنه تذكر امرا ذا بال وقال : «لقد أذكرني كلام حضرتها أديارا للعذارى ، فالاقامة فيها أولى لمولاتي لانها تكون بين عذارى مثلهـا» .

فقطعت العجوز كلامه وقالت : «صدقت يا اجيلا ، ولكننا لا نستغني عن احدكما معنا ، واني أعرف ديرا بين هذه الجبال (جبال طليطلة) بعضه للرهبان والبعض الاخر للراهبات ، وكل طائفة منهما في قسم من الدير لا علاقة لها بالطائفة الاخرى ولا بسائر العالم الا نادرا . ولا يلتقـي الراهبات والرهبان معا في الكنيسة في اوقات الصلاة . وقد علمت من قواعد هذه الرهبنة ان الراهبة لا يمكنها مخاطبة احد من الناس حتى رئيس الدير او وكيله الا بوجود راهبتين أخريين ، وهذا التدقيق نافع

في منع المحظورات . فأرى اذا استحسنت فلورندا ان نذهب الى ذلك الدير فنقيم انا وهي في قسم الراهبات ، وأنت وأخوك في قسم الرجال ، حتى نرى ما يكون» .

فالتفتت فلورندا وقد أشرق وجهها وقالت : «بورك فيك يا خالة ، لقد نطقت بالصواب . هلم بنا الى ذلك الدير . هل هو بعيد من هنا ؟»

قالت : «لا أظنه يبعد الا يوما وبعض اليوم ، وطريقنا اليه غير مطروق فلا نخاف عينا ولا رصدا . وأظنني أعرفه وقد مررت بذلك الدير منذ بضعة أعوام» .

قالت فلورندا : «ارى يا خالة قبل كل شيء ان يذهب اجيلا بالكتاب الى ابي ، فاذا عاد منه بخير جاءنا الى ذلك الدير» . ثم التفتت فلورندا الى اجيلا وقالت : «سر بحراسة المولى ، ومتى رجعت تعال الى دير الجبل الذي سمعت خبره . واذا استطعت معرفة خبر الامير الفونس فانك أعقل من ان أوصيك بالذي ينبغي ان تفعله» .

فانشرح صدر اجيلا لهذا الاطراء وانحنى بين يديها وودعهم وانطلق. اما هم فخرجوا من القارب وحمل كل منهم ما يستطيع حمله ، وأوغلوا بين التلال والجبال ودليلهم العجوز وهي تسير امامهم كأنها تلتمس منزلا تذهب اليه كل يوم ، فقضوا في سيرهم عدة ساعات لم يلتقوا في اثنائها بعابر ولا قاعد ، وأكثر التلال التي قطعوها جرداء الا ما كان على جوانب الاودية من شجر ملتف مهمل ، قلما امتدت اليه يد الانسان . وكانت الامطار قد اغرقتها في الليل الماضي وغمرتها السيول . فلما اشرقت الشمس في ذلك الصباح سرى في الجو بعض الدفء . على ان وعورة الطريق أتعبتهم خصوصا فلورندا لانها لم تتعود هذه المشاق ، ناهيك بما في قلبها من لواعج الحب وما ينتابها من الهواجس والاشواق .

قضوا معظم النهار في المسير ، وباتوا وشانتيلا حارسهم وعونهم في

كل ما يحتاجون اليه من الطعام ونحوه ، ومشوا معظم اليوم التالي ولا حديث لهم الا تكرار ما فات ، حتى اذا مالت الشمس نحو الاصيل وصلوا الى سفح جبل أطلوا منه على بناء شامخ أشبه بالحصون منه بالاديار ، وظهر لهم لاول وهلة انه على قمة ذلك الجبل . فلما شاهدته العجوز صاحت : «هذا هو ، قد وصلنا ، ولكن لا بد لنا من الصعود» .

قالت فلورندا : «فلنصعد» ، ولملمت أطراف ثيابها وهرولت اليه مشمرة لشدة رغبتها في الوصول والاستراحة . وارسال شاتيلا لاستطلاع الاخبار من طليطلة عن مصير الفونس ، وعن حال اوباس ، ورأي رودريك في فرارها .. كذلك هرولت العجوز وشاتيلا بين يديهما حتى وصلوا الى الدير ، فاذا هو في ساحة في سفح ذلك الجبل ، وهو بناء قديم العهد غريب الشكل ، حوله سور من الحجارة الضخمة الكبيرة عظيم الارتفاع ، ليس فيه من النوافذ سوى شقوق مستطيلة في أعلاه وباب واحد في بعض جوانبه ، لا يتناسب صغره مع ضخامة ذلك السور، وفي أعلاه برج حصين كأنه قلعة ، وهو مرقب يقيم فيه حارس الباب .

وقفت فلورندا وخالتها وشاتيلا وهم يلهثون من التعب ويعجبون من منظر ذلك الدير . فلما استراحوا قال شاتيلا : «هل تأذن مولاتي بأن اقرع الباب وأستأذن في النزول ؟» . قالت : «افعل» .

فتقدم حتى وقف بالباب فاذا هو مصفح بحديد سميك استدل على سمكه من ضخامة قمم المسامير التي كانت بارزة فوق سطحه ولا يزيد علوه على قامة الانسان الا قليلا . فتفرس في جوانبه لعله يرى حلقة يدق بها فلم يجد شيئا ، ثم وقع بصره على حبل مرسل من ثقب في اعلى الباب نحو الخارج فأمسكه وشده ، فسمع جرسا يدق في الداخل فعلم انه قد اصاب المحجّ . وصبر بعد الدق هنيهة فرأى رأسا قد أطل من نافذة صغيرة في البرج المذكور وقد جلله شعر ناصع البياض حتى لم

يظهر من وجهه الا أنف بارز وعينان تتلألآن في غورين ، فوقهما حاجبان بارزان ، وفوق الحاجبين جبين اصبحت غضونه كالميازيب او الاخاديد !.
وأطل الشيخ برأسه ولبث برهة لا يتكلم فلم يصبر شاتيلا على سكوته لعلمه بما ألم بفلورندا من التعب فصاح فيه : «أما من مأوى عندكم للغرباء ولو الى حين ؟»

وما أتم شاتيلا كلامه حتى تراجع الشيخ من النافذة واختفى ولم يبد جوابا . ولم تمض برهة حتى سمعوا قلقلة مفتاح وراء الباب توسموا منها قرب الفرج ـ وطال زمن القلقلة ثم سمعوا صريرا فتدانوا الى الباب يتوقعون فتحه فاذا هو لا يزال مقفلا ، فلبثوا ينتظرون ، فعادت القلقلة وعاد الصرير ولكن الباب لم ينفتح فملوا الانتظار ، وخافوا ان يكون وراء ذلك ما يوجب الخوف ، وخصوصا فلورندا فانها كانت واقفة وبصرها ثابت في ذلك الباب .

وأما العجوز فقد كانت جالسة على حجر ، وقد ذبلت عيناها من أثر ما نالها من التعب حتى كادت تنام ، واذا بصرير عنيف استلفت انتباهها فنظرت فرأت الباب ينفتح بتثاقل كأن فاتحه يجر ثقلا كبيرا ! فظلت فلورندا في مكانها وتقدم شاتيلا نحو الباب ، فاستقبله ذلك الشيخ وعليه لباس الرهبان في أبسط أحواله ، وهو رداء أشبه شيء بالعباءة يستر بدنه الى الركبة وساقاه عاريتان وقدماه حافيتان وقد اصبح اخمصاهما كالنعال لطول ما مر بهما من مصادمة الاحجار والاحتكاك بجذوع الاشجار !. خرج الشيخ الراهب وبيده عكاز أعقف الطرف ، قبض على عقفته بأنامل كأنها عظام عارية قد تصلبت مفاصلها ، وتنأت من قفا الكف حتى اصبح بسطها مستحيلا ، وكأنها خلقت للقبض على ذلك العكاز وما زالت قابضة عليه حتى تصلبت وهي منقبضة !

وكانت تلك العباءة قصيرة الاكمام لا تكاد تصل الى كوع الراهب

الذي تعظم جلده وخشن ، حتى تحسبه اذا نظرت اليه كأنه أخمص القدم ــ وكأن الشيخ قضى عمره يدبدب على أخمصيه ومرفقيه .

★ ★ ★

ظل الشيخ واقفا بالباب فأسرع الجميع اليه وأولهم شاتيلا ، فانه نزع قبعته عن رأسه وهم بتقبيل يد ذلك الشيخ ، وكذلك فعلت فلورندا وخالتها ، فقال الراهب الشيخ وفي غنة صوته خشونة البرية : «ما الذي جاء بكم الى هذا المكان ؟»

قال شاتيلا : «جئنا نلتمس البركة من صاحب هذا الدير ، فهل من مانع ؟» . قال : «كلا . ولكن هذا الدير قسمان : قسم للرهبان ، وقسم للراهبات . فأيهما تريدان ؟» . قال : «كما تستحسنون» .

قال : «وعلى كل حال فان ذلك راجع الى رأي الرئيس العام» . ثم تحول نحو الداخل وأشار اليهم ان يتبعوه فدخلوا في أثره ، فاذا بالباب يستطرق الى ممر قصير فيه بابان آخران مصفحان بالحديد مثله ، وينتهي الى فناء واسع سقفه القبة الزرقاء . ولم يطأوا الفناء حتى سمعوا الابواب تقفل ، ونظروا الى ما حولهم فرأوا جدران ذلك الدير هائلة الارتفاع ، ووجدوا انفسهم في باحة مرصفة بالحجارة الصلبة ، او لعلها من صخر الجبل نفسه ، وأحست فلورندا كأنها في سجن حصين !

وبعد ان مشى بهم الراهب بضع خطوات نحو اليسار انتهى الى باب يلي الجدار الذي دخلوا منه ففتحه وأدخلهم فيه ، فاذا هي غرفة تستطرق الى عدة غرف ، فأشار اليها وقال : «هذه دار الاضياف ، اقيموا فيها ريثما أقابل حضرة الرئيس وأخبره بأمركم ، فالذي يأمر به صائر» . قال ذلك وتحول يريد الخروج ، فسمعوا جرسا يدق ورأوا الراهب حالما سمع دق الجرس القى العكاز من يده ورسم اشارة الصليب ثم صالب يديه

على صدره ووقف وقوف الاحترام ، ففعل الجميع مثل فعله وهم لـــم يدركوا الغرض ، على ان الراهب ما لبث ان التفت اليهم وهو يقول : «لا سبيل لنا الى مخاطبة الرئيس الان لان الصلاة قد آن وقتها ونــزل الجميع الى الكنيسة ، وأنا ذاهب ايضا وبعد الصلاة نرى ما يكون» .

فلما سمعت فلورندا ذكر الصلاة انشرح صدرها وتذكرت ما كان من صلاتها الحارة منذ بضعة ايام وكيف انقذها الله بها ، فتقدمت الى الراهب وهي تخاطبه بلسانها العذب وصوتها الرخيم : «ألا يسوغ لنا حضور القداس واستماع الصلاة يا سيدي ؟» قال : «الصلاة لا تحتجب عن مسيحي ، والكنيسة لا تقفل ابوابها في وجه احد» .

ثم مشى الراهب امامهم وهم يتبعونه في وسط تلك الباحة حتـــى انتهوا في صدرها الى باب كبير اشتموا قبل الوصول اليه رائحة البخور، فعلموا انه باب الكنيسة . فتأدبوا ودخلوا منه في أثر الراهب ، فأطلوا على مذبح في صدره وقد قسم صحن الكنيسة الى شطرين : شطـــر للراهبات ، وشطر للرهبان . فهداهم الراهب الى مكان وقفوا فيـــه لاستماع القداس ، وكانت فلورندا اكثرهم تخشعا ، فكم قرعت صدرها وكم توسلت الى الله والى السيد المسيح ان ينجي خطيبها من المهالك ويعيده اليها سالما . فلما انقضت الصلاة ارفض الجمع فخرج الراهبات من باب ، والرهبان من باب اخر ، وعاد الراهب العجوز بفلورنـــدا وصاحبيها نحو دار الاضياف ، ولحظ وهم خارجون ان فلورنـــدا استخرجت من جيبها نقدا وضعته بين يدي الايقونة التي كانت تصلي امامها ، ورأى النقد اصفر لامعا فاستدل من ذلك على ان الاضياف من اهل الثروة وربما تبرعوا بمال كثير لصندوق الدير ، فرافقهم الى دار الاضياف وهرول راجعا وهو يتوكأ على عصاه حتى اتى الى الرئيس وقص عليه ما كان من قدوم هؤلاء الغرباء الى ان قال : «ويظهر مـــن

قيافتهم ولهجة لسانهم انهم من اهل طليطلة ، ويؤيد ذلك ما رأيته من كرمهم ، فهل تأذن لهم بالمجيء اليك ؟»

قال الرئيس : «بل ارى ان أذهب انا اليهم» .

قال ذلك ونهض وعليه رداء بسيط ايضا ولكنه ارقى حالا من رداء الراهب البواب ، وهو مؤلف من عباءة أطول قليلا من تلك وقد تمنطق عليها بحبل واحتذى نعلا من خشب ، وعلى رأسه شبه قبعة سوداء . وكان الرئيس كهلا بادنا ربع القامة ، حسن الطلعة ، صحيح الجسم ، نير البصيرة . وكان كثير المطالعة والبحث فصيح اللسان ، وذلك ما رقاه الى درجة الرياسة وهو كهل وتحت حكمه عشرات من الرهبان معظمهم شيوخ مثل راهبنا العجوز . والارتقاء في رتب الكهنوت يغلب ان يكون عن أهلية ، خصوصا في الرهبنات اذ لا تأثير هناك لدالة القرابة او نفوذ العصبية ، والكل سواء في الاغتراب والاعتزال . لايتفاضلون بارث ولا بصنيعة ، بل لكن منهم نصيبه من اجتهاده وسعيه واقتداره . فاذا ارتقى راهب الى الرياسة او نحوها مع صغر سنه كان ذلك دليلا على امتيازه عن رفاقه فيما يؤهله الى تلك الرتبة . ويغلب في هذه الاحوال ان يكون السابق محسودا او مكروها ، اما رئيس دير الجبل فقد كان على الضد من ذلك بالنظر الى ما فطر عليه من اللطف والدعة وكرم الخلق ، بدليل انه لما سئل عن مجيء اولئك الضيوف اليه تبرع بأن يذهب هو اليهم بنفسه مجاملة وتلطفا !

وكانت فلورندا مذ عادت من الكنيسة جالسة على مقعد في احدى غرف الضيافة وقد هاجت أشجانها ، وتنبه ذهنها للتفكر في الفونس ، فاستغرقت في الهواجس والعجوز الى جانبها صامتة لا تتكلم وقد غلب عليها النعاس لفرط التعب . بينما ظل شاتيلا واقفا بالباب ينتظر رجوع الراهب ، وكانت الشمس قد اشرفت على المغيب . ولمغيب الشمس في

الجبال هيبة ورهبة ، خصوصا حيث يقل الناس .

★ ★ ★

لم تمض برهة حتى أقبل الرئيس وبيده رق كان يطالع فيه لما كلمه الراهب . فلما رآه شاتيلا مقبلا تأدب في وقفته ولكن لم يكد يقع نظره عليه حتى توسم فيه رجلا يعرفه ، او انه يشبه رجلا يعرفه ، ولو ان ذاكرته لم تسعفه في تلك الفرصة الضيقة . فلما دنا الرئيس من دار الاضياف اشار شاتيلا الى فلورندا ينبهها الى مقدمه ، وتقدم حتى جثا بين يديه وتناول انامله فقبلها ، والرئيس يظهر عدم ارتياحه الى ذلك المجد الباطل . ولما دنا من الباب خرجت فلورندا لاستقباله وجثت وقبلت يده ، وكذلك فعلت خالتها . وكان الرئيس عندما استقبل الفتاة لم يمعن نظره فيها على جاري العادة ، على انه ما لبث حين جلست بين يديه حتى تذكر انه رآها قبل الان فقال لها : «لعل هذه السيدة والدتك ؟»

قالت : «كلا يا مولاي بل هي خالتي» . قالت ذلك واستعاذت بالله من تلك الاسئلة وخافت ان يسألها عن اسمها ونسبها ولا مندوحة لها عن الجواب الصريح لانها تكره الكذب كرها شديدا ، وودت لو يوجه الرئيس اسئلته الى شاتيلا لانه أقدر منها على التخلص . على انها تذكرت ما للناس من الثقة في جماعة الكهنة حتى ليسلمون اليهم اسرارهم بالاعتراف ويقصون عليهم كل ما اقترفوه ولو كان عظيما ، فهان عليها الامر وعزمت ان تجعل حديثها مع الرئيس من باب الاعتراف اذا رأت ما يدعو الى ذلك .

مرت كل هذه الخواطر بذهنها في لحظة ، فلما سألها الرئيس السؤال الثاني كانت قد تهيأت للجواب .

قال لها : «ومن اين انتم قادمون ؟»

فالتفتت فلورندا اليه وقالت : «هل يأذن لي حضرة الاب المحترم في كلمة ارجو ان لا تثقل عليه ؟» . قال : «كلا . قولي» . قالت : «اذا لم يكن لحضرتكم بد من الاستفهام عن كل ما يتعلق بنا فاني أستميح الاذن في ان تجعل ذلك على سبيل الاعتراف ، لان في حكايتنا سرا لا يمكن ايداعه عند احد الا عن هذا السبيل» .

فحنى الرئيس رأسه وقال : «لا يهمني البحث عن أحوالكم الا على امل ان استطيع خدمتكم في شيء ، فأنتم مخيرون في الكلام او السكوت . وفي كل حال فانكم أضياف مكرمون» .

فقالت فلورندا وقد أعجبت بلطف الرئيس : «نشكرك في كل حال، ولا نقبل مع ذلك الا اطلاعك على سرنا لما توسمناه فيك من اللطف ، ولان مكاشفة أمثالك بالاسرار فرج ورحمة . فهل نقفل الباب ؟»

ولما سمع شاتيلا كلام فلورندا بعد عن الباب فخف الرئيس بنفسه الى الباب كأنه يهم باقفاله ، ولكنه اشار الى العجوز ولسان حاله يقول: «وهل تبقى هذه المرأة لسماع الاعتراف ؟» . فأدركت فلورندا قصده وقالت : «ان هذه الخالة مستودع اسراري فلا بأس من بقائها» .

وأغلق الرئيس الباب فأظلم المكان فعاد وفتحه ، وصفق فجاء راهب وبيده مصباح مضيء بالزيت فوضعه على مسرجة في الحائط وانصرف، فأغلق الرئيس الباب ثانية وجلس ، وأصاخ بسمعه لما تريد فلورندا ان تقصه عليه . ولم تكد تبدأ بالحديث حتى أهمه الوقوف على تمامه ، على انها لم تصرح له بكل شيء وانما قالت له : «نحن من طليطلة ، وقد خرجنا للتخلص من اناس ارادوا اغتيالنا فلم نجد فرجا غير الفرار» .

فقال الرئيس : «ولماذا لم تلجأوا الى الملك فانه الموكل بنصرة المظلومين» . فلم تدر فلورندا بماذا تجيب وأدرك الرئيس اضطرابها فتوسم شيئا احب ان يقف على حقيقته فقال : «يظهر ان الملك ايضا من

جملة ما تخافونه ؟» • فتصدت العجوز للجواب وقالت : «نعم ، ولماذا الكتمان ؟ بل كل خوفنا من الملك نفسه !»

فبغتت فلورندا لهذا التصريح ، ولكنها اطمأنت لاعتمادها على سر الاعتراف وهو مقدس لا يباح به • ولحظ الرئيس بغتتها فحول وجهه عنها وقال : «ومن هو الرجل الذي جاء معكما ؟»

قالت فلورندا : «هو من أتباع بعض اهلنا» •

فابتسم الرئيس وقال : «أليس هو من أتباع الامير الفونس ؟!»

فلما سمعت فلورندا ذكر الفونس احمر وجهها حتى كادت تختنق ، وتلعثم لسانها والتفتت الى خالتها كأنها تتوقع مخرجا من عندها ، فاذا بالعجوز تقول : «بلى يا مولاي انه من خدم الامير الفونس بن غيطشة ملك الاسبان السابق • وهل تعرفه ؟»

فتحول الرئيس من الابتسام الى الانقباض حالا ولم يستطع التوقف عن الجواب فقال : «نعم أعرف غيطشة وأعرف اولاده وكل اهله • ومن من كهنة اسبانيا لا يعرف اخاه الاسقف اوباس ، ومن لم يستفد من عظاته او قدوته او حكمته او درايته ؟ ذلك الرجل الذي لا اظن الزمان يجود بمثله ، ولكن !»

فلما سمعت فلورندا اطراءه اوباس اطمأن بالها الى ان الرجل ميال الى حزب الملك السابق فلا خوف منه على سرها • ولكنها لحظت منه انه يحاذر ان يكاشفها بما في ضميره للسبب الذي تخافه هي من مكاشفته لولا الاعتراف ، فعزمت على استطلاع حقيقة رأي الرجل وهي في مأمن على ما تقوله في ظل سر الاعتراف فقالت : «ألا تدري اين هو اوباس الان ؟» • قال : «كلا • وأين هو ؟» • قالت : «انه سيق الى السجن منذ يومين» • قال : «ومن ساقه ، ومن يتجرأ ان يفعل به ذلك ؟» • قالت : «ساقه الملك رودريك • بعث الى بيته بكوكبة من الفرسان اخرجوه من

فراشه » .

فوقف الرئيس مذعورا وظهرت على وجهه امارات الغضب وقال : «ساقوه الى السجن ! أمثل اوباس يسجن ؟! قبح الله الجهل !. كيف تجرأوا على مس يده لغير التقبيل ، وكيف خاطبوه بغير الاحترام والتبجيل ؟! »

فتحققت فلورندا عند ذلك ان الرئيس من مريدي اوباس وأهله ، فتاقت نفسها الى استنجاده او مشورته في امر الفونس ، ولكنها استحيت فأطرقت ، فتناولت خالتها الحديث نيابة عنها وقالت : «وألفونس ؟ هل تعرفه ؟ »

قال : «كيف لا وقد عرفته منذ طفولته ، وكثيرا ما كنا نلتقي به في طليطلة ايام المواسم ولاعياد على عهد المرحوم ابيه» .

فوقفت العجوز ونظرت الى الرئيس نظر المتفرس وقالت : «أما وقد برح الخفاء فأخبرك ان الفتاة التي تراها بين يديك هي خطيبة الفونس . فأراد ملك طليطلة ان يحرمه منها بالقوة فقذفه في مهمة الى اقصى بلاد الاسبان . فلما رأت عزمه وفهمت مراده خرجت من قصره فرارا ، ثم علمنا ان رودريك القى القبض على اوباس لانه ساعد في انقاذها من بين مخالبه ! هذه واقعة الحال كما هي ، وأنت وشأنك» .

فتفرس الرئيس في فلورندا وقال : «أليست هذه بنت يوليان حاكم سبتة خطيبة الفونس ؟ اني اول الشاهدين على خطبتها ، وقد كان اهلها يتحدثون بخطبتها الى الفونس وهما طفلان ، ثم خطبها وأوباس واسطة ذلك العقد ، فكيف يتجرأ رودريك على حله ؟!»

فلما سمعت العجوز كلامه تذكرت انها كانت تراه يتردد الى قصر طليطلة على عهد غيطشة بلباس غير هذا اللباس فقالت : «ألست الاب سرجيوس ؟ »

قال : «انا سرجيوس ، وكنت كاهنا اتردد على طليطلة بالنيابة عن هذا الدير ، فلما رأيت الدسائس تتعاظم ضد المرحوم غيطشة ولم اجد سبيلا الى نصرته اقمت في هذا الدير حتى توليت رياسته . ولو أطاعني اوباس لاقمنا هنا معا في أمن وسلام» . ثم التفت الرئيس الى فلورندا وقال لها : «كوني مطمئنة يا ابنتي . ان سرك محفوظ في بئر عميقة ، واعلمي اني نصيرك ونصير اوباس في كل شيء . سامحه الله كم طلبت اليه ان يدع طليطلة ويأتي الى هذا الدير نعبد الله فيه ونبتعد عن دسائس العالم وشرور اهل المطامع ، وعندنا من المؤونة والاموال ما يكفينا طول العمر ، ولكنه ابى الا البقاء هناك . وأظنه بقي لرعاية ابناء اخيه خصوصا الفونس» . ثم أطرق وهز رأسه وقال : «اوباس في السجن الآن ؟»

قالت فلورندا : «علمنا انهم ساقوه الى السجن ولا ندري أسجنوه ام قتلوه ؟ وكان في عزمنا بعد نزولنا في هذا الدير ان نبعث هذا الشاب الى طليطلة يتجسس الاحوال ويعود الينا» .

فقطع الرئيس كلامها قائلا : «لا . لا يصلح هذا لذلك ، لانهم يعرفونه ويعرفون انه من أتباع الامير الفونس او الاسقف اوباس ، وربما قبضوا عليه وسجنوه او قتلوه . دعوا ذلك لي ، فقد اصبح البحث في هذا الامر من واجباتي .. كونوا براحة فتأتيكم الاخبار صاغرة» . قال ذلك ونهض وهو يقول : «وقد آن لكم ان تستريحوا من عناء السفر ، واعلموا ان الدير ومن فيه تحت شارتكم لاننا جميعا صنيعة الملك غيطشة، ونحن وقف على خدمة ابنه وكل من يلوذ به . فهل تقيمون في شطر الدير المختص بالراهبات ويبقى خادمكم شانتيلا في هذا القسم ، ام تفضلون البقاء معا في هذه الدار ولا ندخل اليها احدا سواكم ؟»

فنهضت فلورندا وقد أحست بحمل ثقيل نزل عن عاتقها وشكرت الله

لانه استجاب صلواتها وعلقت آمالها بقرب الفرج • فأثنت على الرئيس سرجيوس وقبلت يده واستشارت خالتها في الاقامة فقالت : «ارى البقاء هنا بعيدين عن الناس وشاتيلا معنا حتى نرى ما يكون» •

فقال الرئيس : «ذلك لكم» • ثم خرج وكان الليل قد أسدل نقابه ، وأوقد الرهبان نيرانا في بعض جوانب تلك الباحة للاستدفاء والاستنارة• وكان شاتيلا قد اختلط بالرهبان وهم يسألونه عن احواله ولا يسمعون منه جوابا مفيدا • فلما خرج الرئيس من دار الاضياف سكنت الغوغاء وتشاغل الرهبان باعداد الطعام ، وبعث الرئيس الى قيم الدير وأمره ان يعد للاضياف ما يحتاجون اليه من لوازم الراحة •

صعد الرئيس الى غرفته وهو في هم من امر اوباس لانه كان يحترمه ويحبه ويغار عليه ككل معارفه لما علمت من تعقله ورزانته وابائه ، فأخذ يفكر في سبيل انقاذه • ثم تذكر انه ليس على يقين من حقيقة حاله فعول ان يتولى البحث عن ذلك بنفسه • وكان سرجيوس لم يذهب هذا العام الى طليطلة في عيد الميلاد لحضور القداس الاعظم وتهنئة الملك لشواغل لم تكن لتقتضي تخلفه لو لم يكن هو ميالا الى الابتعاد عن الملك وحاشيته ، لما في نفسه من النقمة لغيطشة • فقد كان حاضرا في المجمع الذي دبر تنصيب رودريك بدله ، ولم يكن ذلك من رأيه ولكنهم غلبوه على امره بالاكثرية ، ثم اصبح يخاف التظاهر بما يعتقده لئلا يناله غضب الملك ، ولم يكن يحتمل مشاهدة ما يغاير اعتقاده فجعل قدومه الى طليطلة نادرا • فلما أقبل عيد الميلاد الاخير تعلل بما يمنعه عن القدوم ، فلم ير شيئا مما حدث لأوباس ، ولو كان هناك لشهد محاكمته وسمع حجته ، وان كان حضوره لا ينفع اوباس شيئا لانه لا يستطيع التغلب على حزب الملك وهم الاكثرون •

فخطر لسرجيوس ان يذهب الى طليطلة بنفسه فيعتذر للملك عن

تخلفه في العيد ، ولكنه خاف ان يتهمه او يشك في سبب قدومه ، وأول من ينبه شكوكه الاب مرتين لانه لا يغفل عن مثل ذلك . فرأى تأجيل الزيارة الى يوم رأس السنة فيذهب لتهنئة الملك بالعيدين ، ولا يكون ثمة ما يدعوه الى الشك في سبب ذلك القدوم . ولكنه لم يكن يصبر عن استطلاع حال اوباس طول هذه المدة فعول على ارسال راهب يستطلع ذلك من حاشية الملك من غير ان يشاهد أوباس او يسمع كلامه .

قضى سرجيوس معظم الليل في أمثال هذه الهواجس ، فلما اصبح بعث الى فلورندا وكانت قد باتت تلك الليلة في راحة على أثر ما قاسته من تعب البدن واضطراب العواطف ، خصوصا بعد ما آنست من الرئيس سرجيوس مشاركته لها في شعورها وعزمه على مساعدتها ــ وأفاقت في الصباح على صوت الناقوس فنهضت وأخذت تتأهب للذهاب الـــى الكنيسة ، ولكنها لم تلبث ان سمعت وقع أقدام بجانب غرفتها تخالف وقع خطوات شانتيلا . ثم قرع الباب فنهضت خالتها وفتحته فرأت راهبا لم تعرفه فسألته عن غرضه فقال : «ان حضرة الرئيس يدعوكما اليه» .

فمضتا والراهب يسير امامهما وفلورندا تقول في نفسها : «لم تنقض ايام شقائي بعد ، اظن الرئيس غير عزمه على مساعدتي» .

ومشى بهما الراهب في تلك الباحة حتى دار من وراء الكنيسة الى درجات صعدوا عليها الى حجرة طرق الراهب بابها ودخل قبل ان يؤذن له بالدخول ، ثم عاد ودعا فلورندا وخالتها فدخلتا فاذا هما في غرفــة بسيطة الاثاث حسنة الترتيب ، في جدرانها أصناف من صور القديسين مختلفة الاشكال والاحجام ، وفيها صور كبيرة الحجم من صنع مصوري رومية تمثل اهم حوادث الانجيل مثل ولادة المسيح في بيت لحم ، وتعميده في النهر ، وصلبه وصعوده الى السماء . فلما أطلت فلورندا على الغرفة انشرح صدرها لتلك المناظر وتأثرت لها تأثرا عظيما لما فطرت عليه من

التقوى والورع ، وقد زادتها المصائب تمسكا بحبل الدين ، فتخشعت عند دخولها تلك الغرفة مثل تخشعها عند دخول الكنيسة ، فخف الرئيس لاستقبالها ودعاها الى الجلوس فلم تتمالك قبل الجلوس من تقبيل أيقونة للمسيح المصلوب كانت قريبة منها ، ثم جلست فابتدرها الرئيس قائلا : «لم يبق بيننا حجاب وقد اطلع كل منا على اسرار الاخر فلنبسط الكلام صريحا . وعدتك يا فلورندا ان أستطلع لك حال اوباس ، وكنت عازما ان أتولى ذلك بنفسي ثم خطر لي ان ذهابي الى طليطلة اليوم بعد ان تخلفت عن حفلة العيد يدعو الى الشك . وربما آل الى عرقلة مساعينا ، فرأيت ان أؤجل ذهابي الى رأس السنة وهو قريب ، فما قولك ؟!»

فخفق قلب فلورندا وعدت ذلك التأجيل فاتحة العراقيل وبدا اثر ذلك في وجهها ، ولم يخف اضطرابها على الرئيس فاستأنف الكلام قائلا: «ولكنني مرسل احد الرهبان اليوم ليتفقد الحالة من حاشية رودريك ، فاذا اطلعنا عليها ساعدنا ذلك على تدبير الوسائل قبل ذهابي الى طليطلة » .

فاطمأن بال فلورندا واكتفت بانتداب الراهب وأرادت ان تبين له ما تود الاطلاع عليه من امر الفونس فضلا عن اوباس ، وانها تريد ان تعرف رأي رودريك في فرارها وهل هو جاد في البحث عنها ، ولكن الحياء منعها من الكلام في هذا الشأن صراحة فقالت : «اذا كان الراهب الذي ستنتدبه نبيها وأتانا بالتفصيل اللازم كان ذلك خيرا من ذهاب حضرتك قبل الاطلاع على شيء» . فقال الرئيس : «فلنبحث فيما يطلب الاطلاع عليه» .

فقالت العجوز : «لا اخفي على مولاي الرئيس المحترم ان اهم النقط التي يطلب البحث عنها انما هي اوباس وحاله ، ثم يهمنا الاطلاع على رأي رودريك في فرارنا لاننا فررنا من قصره رغم أنفه . ثم نحب الاطلاع

على المكان الذي بعث اليه الامير الفونس» . قال : «فهمت المطلـــوب وسأوصي الرسول به ونظنه يعود الينا بالخبر اليقين» . فنهضت فلورندا وقبلت يد الرئيس وكذلك فعلت العجوز ، واستأذنتا في الذهاب رغبة في تفرغ سرجيوس لقضاء تلك المهمة . فأذن لهما فانصرفتا . اما هو فانه صفق فجاءه الراهب الذي يتولى خدمته ، فأمره ان يدعو راهبا سماه ، وكان له به ثقة كبرى وكثيرا ما كان يكاشفه بما في نفسه ضد رودريك فلما جاء أوصاه بما يطلب الاطلاع عليه واستحثه ان يسرع في الرجوع.

وسافر الراهب على دابة من دواب الدير وعليها «الخرج» كأنـــه منصرف الى المدينة على نية الاستبضاع مما يحتاج اليه اهل الدير من الادوات والامتعة . وكانت عادة ذلك الدير ان يرسل رسولا لمثل هذا الشأن مرتين او ثلاثا كل سنة ، والغالب ان يكون ذلك في الصيف لانهم يفضلون السكن في الشتاء كما يفعل سائر اهل الجبال . على ان ذلك لا يمنع شخوصهم الى المدن في هذا الفصل .

وقضى الراهب في مهمته خمسة ايام عاد في نهايتها . وكانت فلورندا قد ملت الانتظار وحسبت تلك الايام أجيالا . وكانت في اثناء الانتظار تصعد مع خالتها وشانتيلا الى سطح الدير تشرف منه على الاودية والتلال لعلها تجد الرسول عائدا . واتفق صفاء الجو وامساك المطر كل تلك المدة فكانوا اذا جلسوا على السطح أطلوا على جبال اكثرها عار من النبات الاخضر ، وبعض رؤوسها وكهوفها مكسو بالثلج ، وكانوا يشاهــدون الضباب في كل صباح يغشى الاودية يحسبه الناظر بحرا تتلاطم أمواجه ، ويحسب ما يبرز في وسطه من قمم الجبال جزرا يفصل الماء بينها ، فاذا حمي الجو قبل الظهر عاد الضباب بخارا وعادت الجزر جبالا ! فكانت فلورندا تعلل نفسها في اثناء تسلط الضباب ان يكون الرسول على مقربة والضباب يحجبه عن بصرها . وكانت تستأنس بذلك الشيخ الهرم بواب

الدير لان غرفته او برجه يستطرق الى السطح فكان يخرج في بعض الاحيان ليجالسها ويقص عليها ما مر به من الغرائب في اثناء عمره الطويل فتستريح الى سماع حديثه ، لانه على شيخوخته لم يكن يكثر الكلام الذي لا يلذ السامعين ولو كانوا شبانا .

ففي أصيل اليوم الخامس رأت وهي على السطح راكبا أطل من بين أكمتين لم يكد بصرها يقع عليه حتى علمت انه الراهب الرسول ، فخفق قلبها ونادت خالتها قائلة : «ها قد اتى فلنمض الى الرئيس لنسمع حديثه» . قالت : «هلم بنا اليه» . وتحولتا نحو غرفة الرئيس وكان جالسا ببابها يطالع في درج باللاتينية . فلما رأى فلورندا والعجوز قادمتين نهض لهما ورحب بهما فقرأ على محيا فلورندا امارات الدهشة والقلق ، فأدرك انها تكتم شيئا فقال لها : «خيرا يا بنية ، ما الذي حدث؟» قالت : «ارى رسولك قادما فاستدعه لنسمع حديثه» . قال : «وهل اتى ..؟ اني أشد قلقا منك في انتظاره ، ولا اقلب هذه الكتب الا تعللا وتشاغلا» . ونهض لساعته وأوصى خادمه ان يسرع في استقدام الرسول. فهرول الرجل وعاد بعد قليل والرسول في أثره وهو لا يزال يعلو وجهه وثيابه غبار السفر . فلما وصل سلم وبارك وجلس ، فقال له الرئيس : «قص علينا ما رأيته على عجل ، وابدأ بأوباس» .

فقال الراهب : «اما حضرة الاسقف فانه مسجون في حجرة على حدة» . قال : «وما سبب سجنه ؟» . قال : «اتهموه بالتآمر على خلع الملك وحاكموه في مجمع الاساقفة» . فقطع الرئيس كلامه قائلا : «وكيف ذلك ولم نسمع بالتئام المجمع» . قال : «فعلوا ذلك التماسا للسرعة ، فألف الملك مجمعا من الاساقفة كانوا في طليطلة يوم العيد» .

قال : «وماذا كانت نتيجة المحاكمة ؟» . قال : «لا ادري ولكني سمعت ا نالاسقف أبدى من البسالة والحمية في اثناء المحاكمة ما أفحم

به خصومه» .

وكانت فلورندا تتطاول بعنقها لسماع اقوال الراهب وتود الوصول الى خبر الفونس .

فقال الرئيس : «وهل تظن تلك التهمة في محلها ؟» . قال : «هل اقول كل ما سمعته ؟» . قال : «نعم قل» . قال : «بلغني من اهل القصر الملوكي ان لمحاكمة اوباس سببا سريا لم يطلع عليه الا نفر قليلون!» فقال : «وما ذلك ؟» . قال : «بلغني ان الامير الفونس كان خاطبا فتاة من اهل القصر الملوكي ، وان رودريك ارادها لنفسه ، فوبخه اوباس على ذلك ، فغضب عليه وأراد الانتقام منه !» . قال الرئيس : «وماذا تم في امر الفونس وخطيبته ؟» . قال : «أما الفونس فقد ارسله الملك في مهمة حربية الى بلد بعيد ليخلو له الجو بعده . فكان ذلك سببا لتدخل اوباس. اما الخطيبة فقد بلغني انها فرت من طليطلة والناس يستغربون فرارها من القصر الذي كانت فيه والحراس من حوله . وأما الملك فقد اشتد غضبه على تلك الفتاة وعول على الانتقام منها حالما يظفر بها !»

ولا نظن الراهب لم يلحظ من قرائن الاحوال ان فلورندا هي الخطيبة الفارة ولكنه تجاهل مجاراة لما اراده الرئيس فقال : «أكد لي العارفون ان الملك ربط عليها الطرق وأقام الارصاد ، وبث العيون في كل انحاء المملكة ، ولا يكاد يمر يوم الا ويحملون الى قصره فتاة او فتيات ممن يعثرن عليهن في اثناء التفتيش ، فاذا وقع بصره عليهن أطلق سراحهن اذ لا يرى تلك الفتاة بينهن !»

فلما سمعت فلورندا ذلك اضطرب قلبها لاول وهلة ثم شكرت الله لدخولها هذا الدير وتوفقها الى ذلك الرئيس المحب ، وعولت على البقاء هناك حتى يعود اجيلا من عند والدها . ولكنها احبت السؤال عن مقر الفونس فأومأت الى خالتها ان تسأل عنه فقالت : «وهل عرفت المكان

الذي ذهب اليه الامير الفونس ؟» . قال : «لم استطع الوقوف عليه صريحا ولكنني سمعت ان الملك أنفذه مع فرقة من الجند الى استجة ، ولم أتحقق تماما لاني لم أدقق في البحث عنه» .

فأومأ الرئيس الى فلورندا ان تكتفي بما تقدم ريثما يتوفق هو للذهاب الى طليطلة والبحث عن كل ذلك . فسكتت ثم وقف الرئيس وصلى صلاة وجيزة ، فلما فرغ انصرفت فلورندا وهي غارقة في لجج التأمل لما سمعته عن اوباس وسجنه ، وعن تشديد رودريك في البحث عنها ، فلم تر مندوحة عن البقاء مستترة في ذلك الدير لترى ما يأتي به القدر ، معللة نفسها بالاطلاع على تفاصيل اخرى بعد رجوع الرئيس من طليطلة .

ولكن الطبيعة ابت الا معاكستها فتغير الطقس وتوالت الامطار وتكاثرت الثلوج حتى سدت طرق الجبال وانقطعت السابلة فمنعت الرئيس من السفر اياما عديدة وهو قاعد على مثل الجمر، فكيف بفلورندا والجمر يتقد في قلبها وفي رأسها . خصوصا بعد ان مضى شهر وبعض الشهر ولم يرجع اجيلا من مهمته الى والدها .

وكان الرئيس يتردد اليها فيطمئنها ويعدها خيرا ويريها ابواب الفرج لثقته الكبرى بتعقل اوباس وحسن درايته وعظم سطوته على العقول والقلوب . ولم تكن هي أقل اعجابا به لانها شبت لا تسمع اسمه الا مشفوعا بعبارات الاطراء والتبجيل حتى خيل لها انه قادر على كل شيء. ولم تصدق ان احدا يستطيع اذيته او التغلب على رأيه ! وكان سرجيوس يعمل فكرته في طريقة لاخراج اوباس من السجن ، فاذا خرج جاء الى الدير وأقام فيه بسلام . ولكنه لم يهتد الى شيء ، لما بلغه من تشديد الملك في الاحتفاظ به والسهر على حراسته .

* * *

وأفاقت فلورندا ذات صباح من أواخر فبراير على هبوب العواصف وانهمار المطر وأكثره من الثلج او البرد . واشتدت الانواء والرعود والبروق نحو ساعتين ، ثم انقطع حبل الغيث وسكنت الرياح بغتة ــ وتلك عادة هذا الشهر في البلاد المعتدلة فانالجو ينقلب في اليوم الواحد من ايامه تقلبات شتى ، بين صحو ومطر ونوء وصفاء ــ فلما كفت الامطار أطلت فلورندا من باب الغرفة فاذا بفناء الدير قد غمرته الثلوج الى باب غرفتها ومع ذلك اشرقت الشمس على ذلك الثلج فتكسرت أشعتها عليه وانحل النور في بعض الاخاديد فبدا الطيف الشمسي بألوان قوس قزح . فوقفت فلورندا وهي تتأمل ذلك المنظر الجميل ، ثم ما لبثت ان رأت الرهبان يتقاطرون من كل جانب وفي أيديهم المجارف والمعاول وأخذوا في جرف الثلج وحمله الى الخارج، وبينهم الراهب الشيخ صاحب الباب ، وقد استبدل بالعكاز مجرفة يجرف بها الثلج بنشاط الشباب ، وكان فوق ذلك لا يزال عاري الساقين والزندين وقد اكتفى من وسائل الدفء بلف شملة من الصوف حول صدغيه وأذنيه. ورأت شاتيلا كذلك يشتغل معهم . فلم تمض برهة حتى نظفت الباحة وكان بعضهم يجرف الثلج عن السطح ايضا ، فلما فرغوا خرجت فلورندا وبربارة وصعدتا الى السطح وأطلتا على الجبال على سبيل الفرجة . ولم تمض برهة حتى أثر الزمهرير في فلورندا ولم يغنها القباء ولا الكساء ، ثم تغير وجه السماء بغتة وتكاثفت الغيوم وأوشكت السماء ان تسطر فهمت فلورندا بالرجوع فرأت الشيخ الراهب في باب حجرته على السطح وهو يشير اليها ان تأتي اليه ، فتحولت وتبعتها خالتها حتى اقبلتا على الغرفة واذا هناك نار في اناء يشبه الموقدة في بعض جوانب الحجرة . فلما دخلت أحست بالدفء وشعرت بلذة غريبة . فقال لها الراهب اجلسي يا بنية وتدفئي فان البرد شديد جدا اليوم . فجلست وخالتها الى جانبها . واتفق جلوسهما بجانب

النافذة ، فأخذ الراهب يقص على ضيفتيه احاديث شبابه وكهولته على سبيل التسلية ، والخالة العجوز تشاركه في تحقيق بعض النقط وان كانت هي أصغر منه سنا .

وكانت فلورندا في اثناء ذلك تنظر من تلك النافذة الى ضواحي الدير ، فاذا هناك دابة تمشي صاعدة نحو الدير وعليها راكب ، فأمعنت النظر فيه وصاحت قائلة: «اجيلا ، اجيلا !» فلما سمع الراهب قولها نظر الى القادم ولم يكن يعرفه فقال : «ومن هذا يا بنية ؟!»

قالت : «هو رسول ارسلناه في مهمة وقد عاد الينا ، فهل تسرع في فتح الباب له حتى لا يضر به البرد ؟»

فقال : «سمعا وطاعة !» وتناول عكازه وتحول نازلا وظلت فلورندا وخالتها مطلتين من النافذة لتتحققا امره فاذا هو اجيلا بعينه على جواده ولما دنا من الدير وقف الجواد وأجيلا ينظر الى الدير ويضحك ضحكا شديدا . فلما رأته فلورندا يضحك استبشرت وانبسطت نفسها ولم تتمالك ان نادته قائلة : «اجيلا» فلم تسمع منه جوابا ، فظنت هبوب الريح اضاع صوتها قبل وصوله اليه ، ثم رأت الراهب الشيخ قد خرج من الدير ، حتى اذا أقبل عليه شهر عكازه وأخذ في ضربه ضربا عنيفا وأجيلا لا يتحرك ، والراهب يزداد عنفا بالضرب ويصيح ويستغيث بالرهبان الاخرين ، فخرج اثنان منهم وفي يد كل منهما عصا غليظة فأمسك احدهما بزمام الفرس وعمل الاخر على ضرب الراكب حيثما اتفق وهو ساكت ، فاستغربت فلورندا ذلك وتولتها الدهشة لما رأته من خشونة ذلك الضرب لغير سبب يدعو اليه ، فجعلت تصيح بالرهبان تستمهلهم وتستفهم عن سبب اعتدائهم وهم لا يبالون بكلامها، فغضبت وتحولت من تلك الغرفة تريد غرفة الرئيس لتشكو اليه قسوة رهبانه ، وسارت الخالة في أثرها حتى اذا نزلتا الى باحة الدير قالت فلورندا

لخالتها : «اذهبي انت الى الرئيس وأنا اخرج لمخاطبة اولئك الرهبان» .
ثم نادت شاتيلا فلم تسمع جوابا فأسرعت الى باب الدير حتى خرجت منه فرأت شاتيلا عاملا مع الرهبان على ضرب اخيه ايضا وقد أنزلوه عن الفرس وأمسك احدهم برجليه وآخر بيديه وأخذ الباقون يضربونه على القدمين والكتفين ضربا موجعا ، فازدادت فلورندا دهشة واستغرابا وصاحت : «شاتيلا ، ما هذا العمل ؟» . ولكنه لم يرد عليها ، وبعد هنيهة رأتهم هموا بأجيلا فحملوه وأسرعوا به الى الدير لا يبدي حراكا فظنته مات من شدة الضرب . فكادت تبكي لغيظها وأسفها . ولكن الاستغراب ظل غالبا عليها فلما دخلوا به سارت هي في أثرهم فصعدوا الى غرفة صاحب الباب فتعقبتهم وهي لا تجسر على الكلام لئلا يصيبها حظ من ذلك الضرب ، ولكنها كانت تتلفت يمينا وشمالا لعلها تجد الرئيس قادما لتستنجده او تستفهمه ، واذا به مسرع على السطح من جهة اخرى والعجوز في اثره وهي تشير الى فلورندا ان تطمئن .

فأسرعت فلورندا الى الرئيس وسألته عن سبب ذلك فقال : «لا تجزعي ، فانهم انما يفعلون ذلك لحفظ حياته !»

قالت : «كيف يحفظون حياته وقد أماتوه من الضرب ؟!»

فضحك الرئيس وقال : «يظهر انك لم تسمعي (بالدنق) !»

قالت : «وما الدنق يا مولاي ؟»

قال : «هو الموت من البرد الشديد . فالظاهر ان رسولك هذا أوشك ان يدنق من البرد ، فعمدوا الى ضربه ليتحرك دمه وتعود اليه الحرارة فلا يموت» .

قالت : «لم يكن يشكو من برد مطلقا بل رأيته يضحك سرورا» .

فضحك الرئيس حتى قهقه وقال : «ان الضحك في البرد من علامات الدنق !» قال ذلك ودخل الحجرة وهو يقول : «اسقوه قليلا من الخمر

وادنوه من النار» .

فأسرع الراهب صاحب الباب الى ابريق في بعض أركان الحجـــرة صب منه في كأس ودنا من الرجل ، وتقدمت فلورندا نحوه ايضا وتفرست في وجهه فرأته قد فتح عينيه ولكنه لا يزال منحل القوى ، فتحققت ما قاله الرئيس وشكرت الله على نجاته .

* * *

قضوا ساعة في معالجة اجيلا بالدفء وشرب المنبهات حتى صحـا وعاد الى رشده ، فاستأذنت فلورندا في نقله معها الى دار الاضياف فأذن لها ، فنزلت به ومعها شانتيلا والخالة . فلما استقروا في الغرفة سألته عن سبب غيابه فأخبرها انه قاسى في اثناء رجوعه عذابا أليما من مقاومة الطبيعة وأرصاد رودريك حتى اضطر ان ينام في النهار ويسافر بالليل خوفا من ان يقع كتاب يوليان في أيديهم ، وهذا هو السبب في وصوله على هذه الحالة من البرد الشديد حتى كاد يموت .

ثم سألته عن والدها فقص عليها ما كان من وصوله اليه وما اصابه من الغيظ واليأس لما قرأ كتابها الى ان قال : «وقد صمم على الانتقام من رودريك انتقاما لم يسبق له مثيل في تاريخ الاسبان» .

ثم أخبرها عن اتفاق والدها مع جند العرب على المسير معهم الـــى اسبانيا ليكون عونا لهم على فتحها كلها ، ومد يده الى جيبه واستخرج أنبوبا مختوما سلمه اليها ففضته فرأت فيه لفافة من القباطي ، وهو نسيج مصري قديم ، ففتحها فاذا هي كتاب من والدها اليها ، فحالما رأت خط يده خفق قلبها وتذكرت حنوه فدمعت عيناها ، ولم تستطع قراءة ذلك الكتاب الا بعد ان سكن جأشها ومسحت دموعها ثم تناولت الكتـــاب وقرأته فاذا فيه :

«من الكونت يوليان الى ابنته الحبيبة فلورندا • باسم الاب والابن والروح القدس • قرأت كتابك ايتها العزيزة فسبقتني الدموع الـــــى تفهمه ، لما هاجه لي من المصائب الكامنة • وقد ساءني ما اقترفه ذلك الوحش الكاسر من الاساءة الى الدين والى الفضيلة والى يوليان • اما الاولان فالله كفيل بالقصاص لهما • وأما ما اراده من مس عرضي فأنا أتولى الانتقام له بنفسي • وابشري فانني حامل عليه وعلى بلاده بجند من العرب لا شك ان الله ناصرهم على ذلك الخائن ، لما نعلمه من غضب الاسبان والقوط عليه • وان العمل الذي اشرت اليه في كتابك يكفي وحده لغضب السموات والارض على ذلك الدخيل في القوطية • ولا أطيل الشرح لان ناقل هذا الكتاب يوضح ما يشكل عليك ، وانما كتبت هذه الاسطر تثبيتا لاقواله ولكي أبشرك بالفرج القريب • وسوف تريـــن رودريك الخائن قتيلا مضرجا ، او اسيرا مكبلا ، فامكثي حيث تستأمنين حتى آتي اليك • واذا أعوزك الوصول الي فأنا مع كبير جند العـــرب حيثما يكون ، والسلام •• كتب في سبتة »

فلما وصلت الى آخره لم تتمالك ان نهضت تريد الرئيس وكان قد ذهب الى غرفته فسارت وحدها وهي لا تفقه ما تمر به لفرط تأثرها من ذلك الخبر المفاجىء وقلبها يرقص طربا لما حواه ذلك الكتاب من بشائر الانتقام ، والانتقام من اقوى ملذات الانسان ، فلما اقبلت على الرئيس أنكر ما يبدو في محياها من آثار البغتة مع شيء من الخفة فوقف لها فدخلت فحيته وقالت : «جئتك بأمر ذي بال وفيه القضاء المبرم علـــى رودريك ! »

فانذهل لتلك المباغتة وقال : «وما ذلك ؟» • قالت : «ان الشـــاب الذي وصل في هذا الصباح وكاد يموت من البرد انما هو رسول كنت بعثت به الى والدي في سبتة وبعثت معه كتابا مختصرا شكوت فيه مـــا

اصابني من رودريك ، فعاد الرسول اليوم بهذا الكتاب» . ومدت يدها، واستخرجت الكتاب ودفعته الى الرئيس ، فتناوله وقرأه وهو لا يصدق انه في اليقظة ، وأعاد قراءته ثانية وثالثة وفلورندا صامتة تتوقع ما يبدو منه . فلما تفهمه جيدا رفع بصره اليها وقال : «ان والدك سيعمل عملا يغير به وجه هذه الجزيرة ، سيعمل عملا يقضي به على هذه الدولة . وسيعلم رودريك عاقبة ما كان من خرقه حرمة الدين ، نعوذ بالله من غضب الله !» . وصمت برهة ثم قال : «وهل نقل الرسول اليك شيئا من التفاصيل ؟ »

قالت : «اخبرني ببعض الشيء ولم أستطع صبرا على نقل هذا الخبر اليك ، فاذا أذنت بعثنا الى اجيلا يقص علينا ما شاهده بعينيه» . قال : «احب سماع ذلك» ثم صفق فجاء خادمه فقال : «الي بالرجل الذي جاءنا هذا الصباح وهو في دار الاضياف» .

فمضى الرجل وعاد بأجيلا فانحنى هذا امام الرئيس وقبل يده ثم جلس متأدبا فجعل الرئيس يسأله عما شاهده بعينه ، فقص عليه ما عاينه من شجاعة العرب واتحاد كلمتهم ، وصبرهم في الحرب ، ومواظبتهم على الصلاة ، وطاعتهم لرؤسائهم ، الى ان قال : «وزد على ذلك ان مولاي الكونت يوليان عون لهم في ارشادهم الى المسالك علاوة على ما سيلقونه من مساعدة اليهود المتسترين بأثواب النصرانية ، وهؤلاء لا يدخرون وسعا في نصرة اي داخل كان ، لانهم يكرهون هذا الملك ويكرهون حكومته لما يقاسونه فيها من الاحتقار والذل» .

فلما سمع الرئيس ذلك هز رأسه وقال في نفسه : «قد انقضت دولة هذا الباغي ، وربما انقضت بانقضائها دولة القوط كلها !» . ثم التفت الى فلورندا وقال : «فاذا ذهبت الان الى اوباس اخبرته بهذا الخبر الجديد ، وأطلعته على هذا الكتاب ، ولا أظن اهل البلاط قد علموا به

بعد . ثم نحتال في اخراجه من سجنه ونأتي به الى هذا الدير يقيم فيه معنا . وطالما كان ابوك مع العرب فنحن في مأمن منهم اذا هم غلبوا . واذا غلبوا فلا يكون علينا بأس من رودريك لاننا لم نتعرض لحربه» .

فتضاعف سرور فلوراندا لما سمعت عزم الرئيس على استقدام اوباس اليه . وبعد بضعة ايام ذابت الثلوج وانكشفت الطرق ، فركب سرجيوس بغلته ومشى خادمه في ركابه الى طليطلة .

- ٩ -

اما رودريك فقد جاءه كتاب من صاحب بوتيكة ينبئه بنزول العرب بلاده فأطلع الاب مرتين عليه قبل عرضه على رجال دولته ، فأوهمه الاب المذكور ان العرب انما يريدون الغزو لا الفتح ، فاذا اصابوا غنيمة عادوا على أعقابهم ، وانهم لا يجسرون على مناوأة ملك القوط ، وكثيرا ما كان العرب يسطون على ما يلي مملكتهم من الثغور فيغزون البلاد ويعودون بما يقع في أيديهم من ماشية او نحوها ، فارتاح رودريك لذلك الرأي لقربه من المعقول ولم يطلع رجال حكومته على الكتاب . ثم جاء من طليطلة بعض الذين شاهدوا العرب بخيلهم وابلهم وقد ملكوا الجبل «جبل طارق» ومعهم يوليان صاحب سبتة يدلهم على عورات البلاد ويسهل عليهم الفتح ، وأخبروا قائد الجند العام بذلك .

وكان قائد جند رودريك رجلا باسلا دموي المزاج حاده ، اسمه الكونت كوميس له عند رودريك وجاهة وسطوة ، وكان قد لحظ فيه ميلا الى فلوراندا فنصح له ان يتركها ، فلم يكترث بقوله ، فتركه وشأنه

وفي نفسه شيء عليه . فلما سمع بفرار الفتاة ومحاكمة اوباس نصح له سرا ان يعدل عن محاكمة هذا الرجل لئلا يفضحه . وكان من جملـــة نصائحه له ألا يصغي كبير اصغاء الى مرتين وغيره من جماعة الاكليروس. فلما جاءه الخبر بنزول العرب اسبانيا ومعهم يوليان زاده ذلك جرأة على رودريك واستخفافا به ، واستغرب كتمانه نزول العرب عنه . وكـــان يستبعد ألا يكون عالما بنزولهم . فذهب اليه ذات صباح وهو في مجلس حضره كبار الموظفين . وكان صاحب مناصب الدولة الكبرى عند القوط لا يزيدون على عشرة ، منهم : ناظر الاراضي الملوكية واســـمه «كونت الوطن» ورئيس الاصطبلات ويسمى «كونت الاصطبـــل» وكاتب سر المملكة واسمه «كونت السجلات» ورئيس القضاة وهو «كونت النعم» وقائد الجند ، وصاحب الخزانة ، وقيم القصر الملوكي . ومن اصحاب رتبة الكوتنية عندهم رئيس السقاة ونحوه ممن يخدمون الملك .

كان مجلس الملك حافلا بهؤلاء والاب مرتين بجانبه ، فدخل الكونت كوميس وسلم كالعادة وامارات الغضب بادية في وجهه ، وبعد ان استقر به الجلوس سأل الملك اذا كان قد بلغه شيء من أخبار بونيكة . فقال الملك : «لا أدري .. وهل سمعت شيئا مهما ؟» . قال بصوت خشن : «سألت جلالة الملك هل جاءه خبر مهم من تلك المقاطعة ؟»

فغضب رودريك لهذه المراجعة بما فيها من الجسارة والقحة فقال : «ما معنى هذه المراجعة بعد ما سمعته من جوابي ؟» . واعتدل وتصدر وجعل يلاعب شعر رأسه المرسل على كتفيه ، وقد بدا الغضب في عينيه وأصبح سائر الكوتنية ينظر بعضهم الى بعض والى كوميس ورودريك. ويتساءلون عن سبب هذه الجسارة .

اما كوميس فلما رأى الحضور ينتظرون ما يقولـــه وقد شخصت أبصارهم نحوه بعدما ابداه رودريك من الجفاء عظم الامر عليه ، وقواد

الجند من اعظم الناس انفة وشدة خصوصا في ذلك العصر الذي كانت الكلمة النافذة فيه لصاحب الجند القوي ، وكان كوميس فوق كل ذلك قد غلب على رأي الملك لما علمه من تهوره في مسألة فلورندا وأوباس . فلما سمع كلامه بتلك اللهجة الشديدة قال : «أظن جلالة الملك لا يجهل معنى سؤالي ولو تجاهله !» معنى سؤالي ايها الملك انه حدث في المملكة ما يدعو الى اطلاعنا عليه وقد كتمته . وهو من الاهمية بحيث يجعل المملكة في خطر !»

فضج الحاضرون ومالوا الى الاطلاع على جلية الخبر ، فلم يكن من الاب مرتين الا انه وقف بهيئته المعهودة وتولى الجواب عن الملك ووجه خطابه الى كوميس قائلا وهو يتكلف التأني ويظهر الاستخفاف : «أظنك تعني ما جاء من امر اولئك العربان الذين نزلوا سواحل بوتيكة ! فهؤلاء انما نزلوا للغزو والنهب ولا يلبثون ان يرجعوا الى بلادهم . ولو كان هذا الخبر مهما لعرضه جلالته على مجلس الاساقفة» .

وكان كوميس يحتقر الاب مرتين ولا يعبأ بأقواله فوجه جوابه الى الملك وقال : «أما الاستخفاف بأولئك العربان فمن الخطـــأ الفادح ، خصوصا اذا عرف جلالته انهم قادمون ورائدهم الكونت يوليان صاحب سبتة . وأما اطلاع المجمع المقدس على أمثال هذه الاخبار قبلنا فللملك الرأي فيه . ولكنني أظن قائد الجند أولى بالاطلاع على ذلك من سواه لان عليه حماية المملكة ، وأما السادة الاساقفة فما عليهم الا الصـــوم والصلاة !» . وكان يتكلم والتهكم ظاهر في كل عباراته ، فلم يشأ احد من الحضور الدخول في هذا البحث لدقته ، وفيهم من ادرك اشارة كوميس الى يوليان صاحب سبتة وما وراء ذلك من التعريض والتلميح. ولكنهم ظلوا ساكتين .

اما الملك فاشتد غضبه وأحس بما رماه به كوميس من السهام الحادة،

وأدرك خطورة المركز الذي وصل اليه وانه في حاجة الى قائد الجند اكثر منه الى سائر رجال الدولة ، ولكن عظم عليه الاغضاء بعد مبادأته بالجفاء فقال له : «لم يكن يليق بك يا حضرة الكونت ان تخاطبني بمثل هذا الكلام ، بل كان الاولى بك ان تأتيني من طريق اخر» .

قال : «ان الملك لم يترك لنا سبيلا نأتيه منه ، وقد جعل هذا القسيس لسان حاله والمتكلم عنه ، والكل يعلمون ان هذا وأمثاله لا يصلحون لغير العبادة . وقد جعلهم الملك شركاءه في مهام المملكة ، ولو أخلصوا له النصيحة لما بلغت بنا الحال الى هذا الحد» .

ولا يخفى ان مثل هذا التصريح في ذلك العصر خصوصا في طليطلة كان يعد ضربا من الكفر لما علمناه من سطوة الاكليروس هناك ، ولولا تغلب الحدة على ذلك القائد لم يصرح بما صرح به . ففتح بهذه الجسارة بابا لاستقواء رودريك عليه فاستعلى بحجته وحول وجهة الكلام الى الدفاع عن الاساقفة ، وقد اراد بذلك ان يغطي خطأه فقال : «ألم تكتف بالجسارة على مقام الملك حتى تجاسرت على مقام الاساقفة . ان ذلك خارج عن حدود منصبك» .

وكان الاب مرتين يرتعد من شدة الغضب فلما رأى الملك لا يزال على ثباته تعرض وخاطب كوميس قائلا : «ولا أظنك تجهل يا حضرة الكونت ان كلمة من جلالة الملك او من احد الاساقفة تكفي لتجريدك من هذا المنصب !»

ولم يكن كوميس يتوقع هذا الاستخفاف من الملك نفسه فكيف من ذلك القسيس فوقف ويده على قبضة سيفه وقال : «لقد خسرتم بهذا الكلام وهذه المعاملة سيف كوميس ، وأنتم في أشد الحاجة اليه» . وخرج وقد اخذ منه الغضب مأخذا عظيما !

اما رودريك فقد كان يجادل هذا القائد مدافعة ولم يكن يريد ان

يغضبه في هذا المقام ، ولذلك ساءته عبارة مرتين اكثر مما ساءت كوميس . ولم يجسر احد من الحضور على التوسط في الامر لئلا يتعاظم الخصام وقد وقع ما تخوفوه . ثم وقف الملك فعلموا انه يريد فض الجلسة فخرجوا الا مرتين . فلما انفردا التفت الملك اليه وقال : «أهكذا اغضبت قائدنا وصاحب جندنا ، ونحن في أشد الحاجة اليه ؟» .
قال : «أتلومني ايها الملك على انتهاره بعد ان اهانك وأهان السادة الاساقفة جميعا ؟ ان الصبر على ذلك ذل لا يطاق !»

قال الملك : «انت تعلم ان كوميس اعظم قوادنا ، ولم نكن في وقت من الاوقات أشد حاجة اليه مما نحن الان ، والعدو ببابنا وولاتنا يدلونه على عوراتنا ، سامحك الله على هذا الخطأ ، ألا يكفي ارتكابنا الخطأ الاول باخفاء تلك الاخبار عنه وعن سائر رجال الدولة حتى ارتكبت خطأ أخر شرا منه ؟»

فاستاء الاب مرتين من هذا التعريض وقال : «كأنك تقول لي اني انا مسبب ذلك الخطأ ! فاذا كنت اشرت عليك مشورة فاسدة كان الاولى ألا تقبلها» . قال ذلك ومشى وسط القاعة ويده اليسرى وراء ظهره ، والاخرى يمسح بها ما تناثر من ريقه على شفتيه ولحيته ، فشق ذلك على الملك وعدها اهانة اخرى وقال : «أتكون مخطئا وتضيع منا احسن قوادنا ، ثم تنقم علينا وتستخف بأقوالنا ويكون الذنب مع ذلك ذنبنا ؟!»

فأجابه مرتين وهو يهز رأسه ويمشي ولا يلتفت اليه : «صدقت ايها الملك ، ان الذنب ذنبي والخطأ كله خطئي ، وكل هذه الشرور من نتائج أعمالي ، لاني لو لم أسيء الى بنت صاحب سبتة لم يكن والدها عونا للعرب على فتح بلادي !» . ثم وقف بغتة وحول وجهه اليه وقد اشتد غيظه وارتعدت أطرافه وزاد لسانه لعثمة وتمتمة وقال : «تخطىء يا رودريك ثم تلصق الخطأ بشيبتي ؟ ثم اذا أهين الاساقفة لا يهمك الدفاع

عنهم وهم الذين ولوك هذا المنصب ونصروك وعضدوك ! ألم يكونوا هم الذين دافعوا عنك بالامس وسط المجمع واتهموا رجلا بريئا بتهمة لا اصل لها ؟ ثم تقول اني كنت سببا في خسارة ذاك القائد ، وأنت انما خسرته بسوء تدبيرك وانهماكك فيما لا ينفعك . وبسوء تدبيرك خسرت ايضا الاب مرتين الذي لم يكن ينبغي ان تنسى تعبه في مصلحتك ودفاعـــه عنك !» . قال ذلك والتف بردائه وخرج من القصر . فلما خلا رودريك بنفسه . وتصور عظم الخطر المحدق به جلس على كرسيه وألقى رأسه على كفيه ، وراجع ما مر به من الحوادث في الاشهر الاخيرة ، وتذكر فاورندا ووالدها فتحقق لديه ان يوليان انما انحاز الى العرب غضبا لها ، فاشتد حنقه وتراكمت عليه الهواجس ، وعظم عليه الامر خصوصا بعد ان فقد قائده وأساء الى قسيسه .

* * *

واتفق وصول الرئيس سرجيوس في اليوم الثاني من هذا الخصام ، فنزل في الكنيسة الكبرى على عادة الاساقفة ورؤساء الاديار اذا جاءوا طليطلة . فعجب لوجود الاب مرتين بها وعهده به في قصر الملك . فسلما وتخاطبا مليا في شؤون مختلفة والرئيس يستطلع ما في نفس مرتين . وكان الاب مرتين على كبر سنه حاد المزاج سريع التأثر ، متسرعا فيما يخطر له كما تبين لك من وصف اخلاقه ، فلم يخف على سرجيوس شيئا مما وقع بالامس له وللكونت كوميس . وحملته حدة مزاجه وتسرعه على الايقاع برودريك والتنديد بفساد رأيه كأنه من ألد اعدائه ، وهو انقلاب غريب لا يحدث الا في اصحاب المزاج العصبي او الدموي الحاد .

اما سرجيوس فقد جاء طليطلة وهو لا يتوقع سبيلا الى مقابلة اوباس او انقاذه ، فلما لقي مرتين هان عليه ذلك فذكر اوباس بين يديه وزعم

انه سمع بسجنه . فلما سمع مرتين اسم اوباس تذكر ما كان من اعتدائهم عليه وانه سجن ظلما او على الاقل أسيء اليه بتهمة لم تثبت عليه . ونظرا الى غضبه على رودريك رأى في انتصاره لأوباس ما يشفي بعض غليله انتقاما من ذلك الملك ، فقال لسرجيوس : «ان اخانا اوباس سجن لتهمة اتهمه بها رودريك وقد حوكم فلم تثبت عليه التهمة ، فأجلت المحاكمـــة وسجن الى أجل غير مسمى ريثما تعاد محاكمته ، ولكن يظهر ان الملك لن يطلب العودة اليها» .

فقال سرجيوس : «وهل تظن انه يبرأ اذا استأنفوا محاكمته ؟» . قال: «لا ريب عندي في ذلك» . قال : «ولماذا لم يطلب الاستئناف ؟» . فابتسم مرتين وهز رأسه وهو يقول : «وكيف يطلب ذلك وهو محجور عليه في غرفة لا يرى فيها احدا ، لان رودريك منع الناس من الدخول ؟»

فقال : «وهل من سبيل الى رؤيته بغير اذن الملك ؟» . فقال مرتين وهو يبتسم : «ان ذلك هين علي . فهل ترى ان نحرض اخانا المذكور على طلب الرجوع الى المحاكمة ؟»

قال ذلك لا رغبة في نصرة اوباس ولكنه كان يتوقع ألا تغيب الشمس قبل ان يبعث اليه رودريك ليسترضيه ، فلما اصبح الصباح ولم يأته من قبله احد اشتد حنقه ، فلما خاطبه سرجيوس في شأن أوباس اراد ان يستنهضه لاستئناف محاكمته لاعتقاده ان رودريك يخاف ذلك الطلب ، خصوصا بعد ما ظهر من غضب يوليان وكوميس ، فلا يرى له مندوحة عن استرضائه لملافاة الامر .

اما سرجيوس فاستبشر بما سمعه وقال : «اذا أدخلتني اليه نبهت ذهنه الى ذلك» . فنهض مرتين للحال وأتى بدواة وقلم وكتب رقعة الى الضابط الموكل بحراسة اوباس ان يأذن للرئيس سرجيوس بمقابلته . فأخذ سرجيوس الرقعة وهو لا يصدق انه قبض عليها وسار مسرعا الى

اوباس .

وأما اوباس فكان ما يزال في سجنه وقد قطعوا كل علاقة بينه وبين سائر العالم ، وهو يتلقى ذلك بصدر رحب ويغالب المصائب بالصبر . ولم يكن يشعر بوحشة الانفراد لما في ذهنه من الموضوعات التي لا يستطاع التأمل فيها الا باعتزال الناس . وكان اذا فكر فيما سجن من اجله أشفق على رودريك وأمثاله لما هم فيه من الغرور . ولما يرتكبونه من السيئات المهلكة التماسا للذة وقتية او سعيا وراء وهم زائل . فكانت هذه التأملات وأمثالها في غرائب ماجريات الطبيعة تستغرق منه الساعات والايام ، وهو سابح في عالم الفلسفة يحسب نفسه في نعيم وسائر الناس في شقاء ، لولا ما كان يعترض تأملاته من امر فلوروندا وألفونس، وان كان قد وكل امرهما الى الله اذ لا حيلة له في مساعدتهما او في معرفة السبيل اليهما .

فلما كان اليوم الذي جاءه فيه سرجيوس دخل عليه حارسه وقال له ان رئيس دير الجبل يريد مقابلته . فلما سمع اسم ذلك الرجل عرفه وخفق قلبه خفوق البغتة لطول عهده بالاعتزال ، وأذن له وهو يستغرب مجيئه وحصوله على الاذن في الدخول عليه . وكان سرجيوس يتوقع ان يرى تغييرا في سحنة اوباس بعد ما سمعه من طول سجنه . فلما دخل عليه رآه مقبلا لاستقباله بثوبه الكهنوتي ـ لانه لم يبدله منذ اقام هناك الا قلنسوته فلم يكن يلبسها ـ فمشى الى سرجيوس وشعره مرسل على ظهره وكتفيه وقد زاده مقامه في تلك الخلوة هيبة وجلالا .

فلما تلاقت الابصار أسرع سرجيوس وأكب على يد اوباس كأنه يريد تقبيلها فمنعه من ذلك وعانقه وضمه اليه ، ثم تصافحا وسرجيوس لا يستطيع امساك دمعه ، وأوباس ينظر اليه ويده على كتفيه لطول قامته بالنسبة اليه . ثم دعاه للجلوس فجلسا على مقعد متحاذيين وسرجيوس

يتأهب للكلام فسبقه اوباس قائلا : «اهلا بصديقي وأخي سرجيوس ..
من اين انت آت الان ، ولماذا ؟»

قال : «اتيت من دير الجبل ولا غرض لي الا رؤية الاسقف اوباس
فأحمد الله على سلامته . ولا بأس مما قاساه من البلاء ، فان الله يجرب
خائفيه » .

قال : «انت من اهل العلم والحكمة وتحسب اعتقالي في هذه الغرفة
بلاء ؟ أليس الناس جميعا محبوسين على هذه الارض ، وآجالهم قصيرة،
وقواهم محصورة ، وأعمالهم لا تملأ أفئدتهم ؟ وهل من فرج الا في
العالم الباقي لمن أحسن عملا ؟ وأما اهل الظلم فانهم يشقون في الدنيا
والآخرة . فلا تشفق على سجين بريء الساحة نقي السريرة ، فان
سجنه وان طال قصير ، ولكن ابك اناسا منحهم الله السلطة على اخوانهم
من بني الانسان ليحكموا بينهم بالعدل ، ويكونوا عونا لهم على دنياهم،
فظلموا وأساءوا اليهم ، وأهرقوا دماء الالوف منهم في سبيل لقمة
يلتقمونها او لذة ينغمسون فيها ، ولكنهم انما يظلمون انفسهم ولا
يعلمون !» . قال ذلك بصوت هادىء لا يتخلله اضطراب ولا حدة ولا
شيء من عواقب الانفعال النفساني ، فزاد اعجاب سرجيوس بما سمعه
من الحكمة والموعظة . على انه اراد ان يؤدي المهمة التي جاء من اجلها
فقال : «لقد صدق مولاي ، ولكن الله كثيرا ما يعاقب الظالمين ويثيب
المحسنين في هذه الدنيا ليكونوا عبرة لسواهم . وقد اتيتك الان بأخبار
جديدة لا ريب انك مشتاق للاطلاع عليها . ألا تريد الاطلاع على ما كان
من امر فلورندا بعد فرارها من بين يدي رودريك ؟»

فلما سمع اوباس ذلك تحركت فيه عاطفة الحنان ، وبدا الاهتمام في
وجهه ، ونسي ما كان من فلسفته واستخفافه بحوادث الطبيعة ـ والانسان
مهما يكن من تعقله وزهده لا يلبث اذا تحركت فيه عاطفة الحب لن يهتم

بالحياة وأهلها ــ فقال : «وهل تعلم شيئا عنها ، وأين هي ؟»

قال : «هي في دير الجبل» . ثم قص عليه ما علمه من خبرها منذ خروجها من قصر رودريك في طليطلة حتى اتت الدير الى ان قال : «وهي مقيمة عندنا في أمان وسكينة . ولكنها في قلق شديد عليك وعلى الفونس لانها لا تعرف مقره . ولو عرفته لا تستطيع الذهاب اليه ، لما اقامه رودريك في سبيلها من العيون والارصاد» .

فاطمأن بال اوباس على فلورندا ولكن ساءه تضييق رودريك عليها فقال : «ألا يزال هذا الرجل يتعقب هذه الفتاة ويضيق عليها ؟»

فابتسم سرجيوس وقال : «ولكنه لا يلبث ان يقع هو في الضيق ويفرج عن الناس كافة ، خصوصا انت» . ورأى اوباس في عيني سرجيوس ما يدل على أمور مهمة يريد التصريح بها فأبدى الاهتمام وقال: «وكيف ذلك ؟»

فمد سرجيوس يده الى جيبه واستخرج كتاب يوليان وهو لا يزال في أنبوبته وقال : «لما خرجت فلورندا من طليطلة كما قدمت لسيادتكم لم يسعها الا ان تكتب الى ابيها كتابا تشكو فيه ما حل بها من الشقاء في قصر رودريك وما اراده منها . وبعثت بالكتاب مع اجيلا فجاءها جواب حاسم لما نحن فيه ، واليك هو» . ودفع الانبوبة اليه ، فتناولها اوباس واستخرج منها الكتاب ملفوفا وفضه وقرأه وأعاد قراءته وسرجيوس ينظر الى ما يبدو من آثار ذلك في سحنته فلم ير تغييرا يذكر ، فلم يستغرب ذلك لانه من جملة أدلة رباطة الجأش وسعة الصدر. ولكنه توقع ان يسمع ما يدله على ذلك الاثر فاذا هو يقول : «هل زادكم اجيلا ايضاحا ؟»

قال : «نعم . انه رأى جند العرب ينزلون شواطىء اسبانيا ويوليان معهم يدلهم على عورات البلاد» .

قال : «وهل علم رودريك بذلك ؟» . قال : «نعم جاءته الاخبار منذ ايام فلم يعبأ بها ولا اطلع اهل مجلسه عليها ، فآل ذلك الى زيادة الخرق اتساعا وبات رودريك في أشد الضيق وأصبح خروج الملك من يده امرا محتوما » .

فقال اوباس : «وما سبب هذا الانقلاب ؟» . قال : «لان الكونت كوميس قائد الجند العام علم بنزول العرب شواطىء اسبانيا من اناس اتوا طليطلة من هناك ، وتحقق ان رودريك اخفى ذلك الخبر عنه فعاتبه في مجلس حضره كبار الموظفين ، فآلت المعاتبة الى المنافرة ، فخرج كوميس من الجلسة غاضبا من رودريك ومن قسيسه مرتين . وبعد انفضاض المجلس عاتب رودريك قسيسه ، فخرج هذا وأقام في الكنيسة الكبرى حيث لقيته وفهمت منه انه ناقم على رودريك ، وساعدني من اجل ذلك في الوصول اليك برقعة كتبها الى الحارس . ويرى الاب مرتين انك لو طلبت استئناف النظر في قضيتك لا ريب في خروجك بريئا . وفي كل حال فان الله رد كيد الظالمين الى نحورهم . وهذا رودريك قد هجره قائد جنده وأخص أخصائه وبات هزءا بين الناس ، ألا ترى ذلك من تدبير العزيز الحكيم ؟»

وكان سرجيوس يتكلم ويتفرس في وجه اوباس ليتبين ما يبدو فيه، وأوباس مطرق يمشط لحيته بأنامله وهو مستغرق في الافكار وقد قطب حاجبيه وبان الاهتمام في عينيه . فلما فرغ سرجيوس من الكلام رفع اوباس بصره اليه وهو لا يزال مستغرقا في الافكار وجعل يحدق ببصره في وجه سرجيوس كأنه يستطلع ضميره . فلم يستطع سرجيوس احتمال أشعة تينك العينين او الصبر على التحديق فيهما وهما كأنهما منفذ المسيال الكهربائي المتولد في الدماغ من امعان الفكر ، فكلما زاد الدماغ عملا زاد ذلك السيال غزارة . وظل كلاهما صامتا بضع دقائق ، ثم تكلم اوباس

قائلا : «أتستحسن الانتقام من رودريك في هذه الفرصة ؟» . فقال سرجيوس : «وهل تتوقع فرصة أثمن منها وهو الان متضعضع الاحوال، اعداؤه يهددونه وأصدقاؤه يتوعدونه ؟»

فنهض اوباس وجعل يخطر في ارض الغرفة ذهابا وايابا وأنامله في لحيته يمشطها ، وشعر رأسه يجلل كتفيه ، وقد زاده السكوت وقارا وهيبة ، وسرجيوس ينظر اليه ولا يتكلم . ثم وقف اوباس بغتة امام سرجيوس فنهض هذا وأصغى استعدادا لما سيقوله ، فاذا هو يقول : «أمن المروءة يا سرجيوس ان نغتنم ضعف عدونا ونحمل عليه وهو في أشد الضنك ؟ وهل من الحكمة والتعقل ان نساعد الغريب على القريب؟ ان رودريك مهما قيل فيه فهو منا ونحن منه ، نشرب من ماء واحد ، ونقرأ في كتاب واحد ، وتتكلم لسانا واحدا، ونصلي صلاة واحدة ، ونتناول القربان المقدس من كأس واحد ، نجتمع في كنيسة واحدة . فكيف نغتنم ساعة ضعفه ، ونعين عليه اناسا لا نحن منهم ولا هم منا ، ولا دينهم من ديننا ولا وطنهم وطننا ؟ زد على ذلك ان الانتقام من رودريك في هذه الفرصة يجر البلاء على كل بلاد الاسبان اذ نخرجها من حضن دولة ربتها وعاشرتها ، الى دولة جديدة لا نعرف شيئا عنها . ولا ندري ما يصير اليه امر هذه البلاد اذا فتحها العرب . ألم يسفك اجدادنا دماءهم في فتح هذه الجزيرة واستثمارها ، فكيف نسلم بذهابها هدرا ؟!. اما ما في انفسنا من انكار حق رودريك في الملك فانما هو من قبيل ما يحدث من التنازع بين الاخ وأخيه او الاب وابنه ، فلا يجوز ان يستعين احدنا على الاخر بأمة غريبة جنسا ومذهبا ووطنا . وأما ما ارتكبه رودريك من الشطط في اساءتي فيكفيه من ضميره ما يعذبه ، والله يتولى امره . فنحن يا سرجيوس في موقف يقتضي ان ننبذ فيه الضغائن ، وتتحد على العدو المهاجم رغبة في سلامة المملكة . ويجب ان نغضي عما اساء به احدنا الى

الاخر . وها أنذا ابدأ بنفسي فأذهب الى رودريك وأستحثه على الاتحاد في سبيل الوطن» . قال ذلك ومشى الى رف كانت قلنسوته عليه فوضعها على رأسه ، وهم بالخروج وقد ظهر التأثر في وجهه ، ونسي انه في سجن ولا سبيل الى خروجه الا باذن الملك .

وكان سرجيوس في اثناء ذلك الخطاب يتصاغر في عيني نفسه ، فما اتى اوباس على اخر اقواله حتى رأى سرجيوس نفسه امامه كأحقر الناس، وان اوباس من طينة ارقى من طينة البشر ، ولم يتمالك ان أكب عليه فضمه الى صدره وقبل لحيته وعارضيه وقال له : «بورك فيك . ما انت بشر ، انما انت ملك كريم ! لقد حقرتني في عيني وجعلتني مرذولا عند نفسي . فأنا تابع لك فيما تصنعه عامل بما تأمر به» .

وكان اوباس في اثناء ذلك يلبس قلنسوته ويصلح شعره تحتها ، ثم مشى نحو الباب وما ادركه حتى ادرك انه لا يستطيع الخروج بغير اذن الملك ، فتراجع وقد خجل لغياب ذلك عن ذهنه وتناول لوحا من ألواح الكتابة (مكسوا بالشمع) فكتب عليه ما يأتي :

«من اوباس الاسقف الى رودريك ملك طليطلة

«اكتب اليك من سجني لا لرحمة ارجوها ولا لنكبة اخافها ، ولكنني علمت بمصيبة تهدد المملكة فأردت ان اكون شريكا في دفعها ، وأن اضع رأسي بين رؤوس جنودها . ولي كلام احب ان ألقيه على مسامعك ، فمر بحملي اليك ، والسلام» .

وخرج فدفع الكتاب الى الحارس وأمره ان يوصله الى الملك وعاد الى مجلسه فحمل الضابط الكتاب وسار .

وكان رودريك قد اصبح في ذلك اليوم محتارا في امره بعد ان هجره قائد جنده فلا هو يتنازل لاسترضائه ، ولا ذاك يعود اليه من تلقاء نفسه. ولو كان الاب مرتين عنده لاستخدمه في فض هذا المشكل فقضى معظم

اليوم في غرفته واذا بخادمه الخاص يحمل اليه كتاب اوباس ، فتلاه وهو لا يصدق انه يقرؤه فأعاد قراءته غير مرة . ولما فرغ من ذلك أمر ان يكتب باستقدام اوباس مخفورا وخرج لانتظاره في قاعة المجلس .

وبعد هنيهة دخل اوباس بقدم ثابتة وجأش رابط فلبث رودريك صامتا ساكنا ليرى ما يبدو منه . فبدأ اوباس بالكلام قائلا : «اني لم آتك لعتاب او توبيخ ، انما جئت لامر يتعلق بمصلحة المملكة على أثر ما بلغني من نزول العرب في شواطئها وعزمهم على فتحها . وان قائد جندك أغضب نفسه وأغضبك ، واغتنم ساعة حاجتك اليه وهجرك ، وهو ضعف شبيه بضعف يوليان صاحب سبتة فانهما غضبا من احد رجال القوط فعمدا الى الانتقام من المملكة كلها ، ومن نفسيهما لانهما من أفرادها ! على ان خطأهما لا يبرىء الملك من الخطأ الذي اقترفه مما لا نخوض فيه الان» . قال ذلك بسكينة ورزانة والجد باد في وجهه، فاستغرب رودريك ما سمعه وارتاب في اخلاص اوباس ، ولم يتصور مثل هذه المناقب لبعدها عن مناقبه كما يستبعد الشهم الوفي وجود اناس يكافئون على الحسنة بالسيئة ــ فأراد ان يتبين حقيقة مراد اوباس فقال : «وما الذي تراه ؟ »

قال : «لقد احسنت في اقتصارك على الموضوع الذي نحن فيه ، فالذي اراه ان تبعث الى الكونت كوميس والى الاب مرتين ، فاذا حضرا أوبخهما وأحرضهما على الرجوع اليك والعمل معك في انقاذ هذه المملكة من غارة المهاجمين !»

فأمر رودريك بعض الحرس ببابه ان يذهب في استقدامهما حالا . فسار الرجل وأشار رودريك الى اوباس بالجلوس وهو لا يصدق انه يقول ما يقوله عن اخلاص وحمية ، وظل صامتا يخاف ان تبدر منه بادرة يلام عليها لان اوباس بهره بمروءته وجسارته . وأما اوباس فجلس ولم

يعبأ بمن في حضرته • وبعد قليل عاد الرسول وأنبأ الملك بقرب مجيئهما. ثم أقبل كوميس فحيى باحترام وجلس باشارة الملك وقد استغرب وجود اوباس هناك • ثم جاء مرتين وعجب حالما وقع نظره على اوباس • اما اوباس فالتفت الى رودريك واستأذنه في الكلام فأذن له فوجه كلامه الى كوميس قائلا : «قد بلغني يا حضرة الكونت انك خرجت بالامس من مجلس الملك غضبا ، فكيف انت الان ؟»

فقال : «لم اغضب من جلالة الملك الا غيرة على المملكة • ولكنني لم أبلغ منزلي وأخل بنفسي حتى رأيتني عجلت في عملي لاننا في حالة تدعو الى الاتحاد لدفع الاعداء» •

ولم يتم كلامه حتى ابتدره اوباس قائلا : «عوفيت من شهم صادق • ذلك رجائي فيك لعلمي بحدة مزاجك ، وحاد المزاج سريع الرجوع الى الصواب» • ثم التفت الى مرتين وكان جالسا مطرقا وقال : «ولا أظن الاب مرتين الا فاعلا مثل ذلك ايضا» • فظل مرتين مطرقا ولم يجب • فالتفت اوباس الى رودريك وقال : «لا ريب عندي في رغبة قداسة الاب في الوفاق والوئام ونبذ البغضاء عملا بوصية السيد المسيح • ولذلك فاننا لا نطيل الكلام في هذا الشأن بل نبادر الى العمل • فيأمر جلالة الملك بعقد المجلس من كبار الدولة للنظر في الوسائل اللازمة» •

فرفع مرتين رأسه عند ذلك ووجه خطابه الى الملك قائلا : «كيف تبرمون مثل هذا الامر قبل عرضه على مجمع الاساقفة ، وجلالة الملك يعلم ان قوانين المملكة تقضي بذلك ؟!»

* * *

ولم تكن تلك القوانين خافية على اوباس ولكنه اراد السرعة لان جمع الاساقفة يستغرق بضعة اسابيع • على انه خاف اذا أنكر جمعهم ان

يفسد مرتين ما أصلحه فعذر الرجل على تعنته فقال : «لم اطلب ابرام شيء دون رأي المجمع ، ولكنني اردت التئام مجلس الملك للبحث فيما يعرضونه على المجمع» . وقد فاته ان مرتين انما اراد عرض ذلك على المجمع ليشكو اليه خروج اوباس من السجن ، لانه اغتاظ من جلوسه في حضرة الملك ، وزاد غيظه لما رآه جالسا مجلس المشير !

فاستحسن رودريك عقد مجلسه فبعث اليهم وهم الكونتية الذين تقدم ذكرهم فحضروا . وقبل عقد الجلسة طلب الكونت كوميس الجري في عقدها على القوانين الرسمية وهي تقضي باخراج مرتين منها لانه ليس من رجال الدولة فخرج وهو يتميز غيظا !

فلما التأمت الجلسة وقف اوباس ورفع يده وبارك وصلى صلاة حارة شفعها بالتوسل الى الله تعالى ان يجمع قلوب القوط ليتحدوا على حماية بلادهم ، ثم خاطب الحضور قائلا : «انتم تعلمون الاساءة التي لحقت بي من جلالة الملك ومن مجلس الاساقفة حتى سجنوني سجن المجرمين شهرين كاملين لم أر في اثنائهما غير الموكل بحراستي ، وقد حكموا علي بذلك لغير ذنب اقترفته ، ومع ذلك فحالما علمت بما يهدد المملكة من الاخطار استأذنت في مقابلة الملك ، وعرضت نفسي للعمل في جملة العاملين على انقاذها . فأحرى بكم ان تكون رغبتكم في ذلك وأنتم رجال الدولة ومديرو شؤونها ؟ ولست أنبهكم الى امر تعلمونه ، ولكنني أبث لكم عواطفي في هذا الشأن واني اصغر العاملين في هذا السبيل» .

فقال الكونت كوميس : «ان شهامة اوباس ومروءته وتعقله اشهر من ان تذكر ، ولكننا لم نكن نحسب في البشر مثل هذه العواطف . فكيف نرى ما سبقنا به هو ولا تتفانى نحن في خدمة الملك ؟ ولكنني لا ارى تأجيل العمل الى اجتماع الاساقفة لئلا يضيع الوقت بلا طائل» .

فقال اوباس : «ولكن لا بد من استشارتهم في مثل هذا الامر وهم

كما لا يخفى اصحاب الفضل الاكبر في تنظيم هذه الحكومة ووضع قوانينها وأحكامها وتدبير شؤونها» .

فقال رودريك : «لا يمكننا القطع في التجنيد والمحاربة الا بعد مشورتهم » .

فقال كوميس : «لا بأس من استشارتهم ، ولكن الوقت قصير والفرصة ثمينة» .

فخاف اوباس ان يحتد كوميس فيذهب سعيه سدى وتذكر ان مرتين خرج من الجلسة حاقدا ، وخاف اذا لم يسترضوه ان ينقلب عليهم ويهيج الاساقفة على الملك ، فتنقسم المملكة على نفسها وتكون المصيبة الثانية شر من الاولى ، فعمد الى ملافاة ذلك قائلا لكوميس : «اراك ضيقت الفرصة ودققت في الطلب ، فالاساقفة كما قلت لا بأس من استشارتهم بل ارى احترامهم واجبا لانهم واضعو اساس هذه النظم كما تعلم ، فضلا عما قد يترتب على نصائحهم من الفوائد . زد على ذلك ان الاتحاد يقضي علينا باستشارتهم لان غضبهم يفضي الى الشقاق لا محالة . ولا يخفى عليك ايضا ما يترتب على ذلك من ضياع النتيجة التي انما تسل سيفك وتشحذ قريحتك في سبيل الوصول اليها . فرجائي فيك ان تتلافى هذا الخطر ولا شك عندي انك متلافيه فألتمس ان تبدأ بذلك من هنا (وأشار الى باب القاعة حيث خرج مرتين) لان حضرة الاب اذا رضي هان الامر» . ثم وجه كلامه الى رودريك وقال : «هل يأذن مولاي في استقدام الاب مرتين ليحضر هذه الجلسة ونجعل له حظا من هذا البحث ؟»

فكان كلام اوباس نافذا بلا مراجعة لانه بهرهم بما اتاه من الحمية والمروءة ، فضلا عما فطر عليه من قوة العارضة . فأمر رودريك باستقدام مرتين وكان منفردا في بعض غرف القصر . فلما دخل وقف اوباس وبش له وقال : «ليس فينا يا حضرة الاب من يجهل حق سيادة الاساقفة في

شؤون مملكة القوط ، ولكن ولدنا الكونت كوميس رجل حرب يحب المبادرة ، وغيرته على صيانة هذه الدولة هي التي حملته على التسرع ، وهو مصيب بالنظر الى قوانين الحرب . ولكنني ارى رأي حضرة الاب بالنظر الى وجوب استشارة الاساقفة على اني اخاف ان يدعو ذلك الى التأخير فتفوت الفرصة ويذهب سعينا ضياعا ،ولا اظن السادة الاساقفة اذا اجتمعوا واستشيروا يشيرون بغير المبادرة الى الحرب ، بل احسبهم يلوموننا على تأخير التجنيد الى اجتماعهم . فالذي اراه ــ والامر لجلالة الملك ــ ان نبدأ بالتأهب للحرب ومخابرة الاطراف في حشد القوات والاموال ، ونبعث الى الاساقفة فنجمعهم وتتلو عليهم قرار هذا المجلس، او نبعث اليهم بخلاصة اعمالنا وهم في ابرشياتهم لاننا أحوج اليهم الان هناك . واذا أذن لي الملك قلت كلمة في هذا الشأن ، والرأي راجع اليه في كل حال ، ذلك اني ارى ان ينتدب قداسة الاب مرتين لينوب عن جلالته في تبليغ الاساقفة قرار هذه الجلسة ، واذا رأيتم اني أليق بهذه الخدمة قدمت نفسي لها ، او كما تشاءون » .

فلما فرغ اوباس من الكلام لم ير مرتين سبيلا للرد عليه لعلمه ان امر المجلس نافذ لا محالة ، وقد أعجبه رأي اوباس بانتدابه لمخابرة الاساقفة ليتمكن من بث ما في نفسه اليهم ، لكنه اساء الظن في ذلك الانتداب وظن اوباس انما يريد ابعاده عن مجلس الملك ، او ان يفر هو من محبسه لغرض له ، وكلا الامرين لم يرضه . فلم ير خيرا من قبول قرار المجلس ،وعمد الى المغالطة فقال وهو يحاول كظم غيظه من تغلب اوباس على رأيه : «لا اظن حضرة الملك يسيء الظن بقصدي اذا التمست جمع الاساقفة فانه طلب قانوني . وأما الحرب فانها كما قال اخي اوباس تدعو الى العجلة ، وللملك ان يبلغ الاساقفة بالطريقة التي يختارها . وأما انا فاني أعد تلك المهمة شرفا لي ولكنها تبعث الى التطويل لما يقتضيه ذلك

من الانتقال من ابرشية الى اخرى ، وكذلك انتداب حضرة الاسقف . فالانسب ان ينتدب جلالة الملك من شاء من حاشيته ويفرقهم دفعة واحدة فيصل الخبر الى السادة الاساقفة في وقت معا» .

ولم يجهل اوباس ما ينطوي تحت تلك الملاينة من الكظم والحقد ، ولكنه تجاهل رغبة في النتيجة ، وأغضى عن كل سيئة في سبيل الوصول اليها ، فأبدى استحسانه لموافقة مرتين والتفت الى رودريـــك وهو يبتسم وقال : «لقد تم الاتفاق بحول الله ، فما على جلالة الملـــك الا ان يتحد مع مجلسه في التأهب للحرب ، ونحن في كل حال في خدمة المملكة في كل ما تريدون» .

فلم يسع الملك بعد ما عاينه من مساعي اوباس في نصرتـــه الا ان يحترمه ويتصاغر في عيني نفسه ، فقال له : «بورك فيك يا اوباس» . فقطع اوباس كلامه خوفا من اثارة حسد مرتين ، وكانت حجته في قطعه انه لا يريد ان يسمع الثناء على نفسه ، ثم وقف وطلب الى الملك ان يأذن له في الانصراف الى سجنه فقال رودريك : «امكث معنا يا اوباس فانك نعم المشير ، ودع السجون لاهلها» .

فقال اوباس : «اشكرك على ذلك ، ولكنني أستأذن في الانصراف من هذه الجلسة على ان اعود بعد قليل» .

فأذن له فخرج اوباس وقد حمد اللهعلى نجاح مسعاه فلقيه سرجيوس فقص عليه ما كان ، فازداد اعجابا بتلك المناقب الشريفة .

وعاد سرجيوس بعد بضعة ايام الى الدير ، وكانت فلورندا تنتظـــر رجوعه بفارغ الصبر . فلما عاد وقص عليها ما اتاه اوباس الى اخـــر الحديث أحست بانقباض في نفسها لانها عدت ذلك مخالفا لما كانت تتوقعه من سقوط هذه الدولة على يد والدها ، وما تخافه على نفسها وعليه اذا لم يفز العرب في هذه الحرب ، فوقعت في حيرة ولكنها لم تستطع تخطئة

اوباس لان لواميس الشرف والمروءة تؤيده وتنصره ، ولولا ضعف المرأة وايثارها الانتقام لما تخيرت فلورندا غير ما اراده اوباس ، ولكنها لم تكن ترى سبيلا الى السعادة الا بقتل رودريك خصوصا بعد ان جاهر والدها بحربه ؛ فانتصار رودريك يعود بالويل والثبور عليهما • وسألت الرئيس عن الفونس فأخبرها انه في استجة مع فرقة من الجند ينتظر اوامـــر رودريك • فتاقت نفسها للذهاب اليه لعلمها انه لو كان عالما بمقامها لسعى اليها او بعث في استقدامها ، ولكنها خافت العيون واستشارت سرجيوس في ذلك مرة ؛ فقال لها : «البثي عندنا ريثما نرى ما يكون من امر هذه الحـــرب » •

* * *

قضت فلورندا في ذلك الدير بقية فصل الشتاء وكل فصل الربيع ؛ وهي تتنسم الاخبار بواسطة اجيلا وشاتيلا وسرجيوس ، فلم تسمع الا بانتصارات العرب ووالدها معهم ، وقد دخلوا اسبانيا وأوغلوا في مقاطعة بوتيكة • وكان رودريك قد أعد جنده وتأهب للخروج اليهم ، فسمعت انه برح طليطلة بنفسه ومعه العدة والرجال ، واضطربت اسبانيا بجملتها وفيها الخائف والشامت ، والآسف والناقم ، لاختلاف الاحزاب وتضارب الاغراض •

اما اهل دير الجبل فقد كانوا يسمعون الاخبار وهم يرون الخطـــر بعيدا عنهم لبعدهم عن ساحة الحرب • وفلورندا قد تراكمت عليهـــا الهواجس والخوف على ابيها وخطيبها ، لا تدري هل تسير الى احدهما، او كليهما ، او تبقى في ذلك الدير ؟ وكانت ترجح بقاءها هناك على رجاء ان يبعث والدها فيستقدمها كما قال • فلما أقبل الصيف اصبح دير الجبل عليل النسيم عذب الماء نشيط الهواء وقد اكتست أوديته حلة خضراء •

ففي يوم من ايام يوليو استيقظت فلورندا مبكرة وهمت بالخروج من الدير للتمشي في بساتينه على عادتها ، ولكنها قبل ان تخرج جاءها اجيلا يدعوها الى الرئيس ، وكانت قد مضت مدة لم يدعها اليه فاختلج قلبها وأسرعت حتى اقبلت على غرفته ، فرأت عنده كهلا لا تدل سحنته على انه من القوط او من الرومان ، ورأت عليه لباسا تذكرت انها كانت ترى مثله وهي عند والدها في سبتة . ولما دنت من الرجل رأت آثـــار السفر على وجهه بما غشي لحيته وشاربيه من الغبار ، حتى حاجبيه وأهدابه فان الغبار غلب على لونها جميعا . فتوسمت فلورندا من ذلك القـــادم خبرا جديدا فدخلت وحيت فرحب بها الرئيس وقال : «هذا رسول من ابيـــك » .

فلما سمعت ذلك خفق قلبها وتوردت وجنتاها بغتة والتفتت الـــى الرجل وقالت : «ما وراءك ؟» . قال : «اني من اصدقاء ابيك ومحبيـــه والمطلعين على اسراره ، وقد علمت بكتابك اليه وما ترتب على ذلك كله من الانقلاب . ألا تعرفينني يا فلورندا ؟»

فلما سمعت فلورندا صوته وتأملت ملامحه تذكرت انها شاهدته غير مرة في صباها وانه كان كثير التردد على بيت والدها في سبتة. فاستبطأها الرجل وقال : «ألا تعرفين سليمان التاجر ؟»

فانتبهت فورا وقالت : «انت سليمان ؟. نعم اعرفـــك جيدا وكنت تتردد وتحمل الينا الهدايا والاحمال وتبتاع لنا الآنية والثياب . هل انت آت من عند والدي ؟ وأين هو الان ؟»

قال : «هو مع جند العرب على مقربة من وادي ليته» .

قال ذلك واستأذنها بعينيه هل يقول كـــل شيء في حضرة الرئيس فأجابته بالاشارة ان يفعل فقال : «وقد أوغلوا في بوتيكة ولم يلقـــوا معارضة الا قليلا ، وقد عدهم اهل البلاد رحمة ولا يلبثون ان يتملكوا

البلاد كلها» .

فبغت الرئيس وقال : «وماذا جرى لجند الاسبان ؟»

قال : «لم يلتق العرب برودريك بعد ، ولكننا سمعنا بخروجه من طليطلة بجند كثيف وسيعود خاسرا فأبشرا» .

فظهرت البغتة على وجه الرئيس وقال : «هل تعتقد ذلك ؟ وكيف تكون حالنا اذا صح قولك ؟»

قال : «تكون احسن مما انتم عليه الان ، لان العرب اذا فتحوا بلدا قلما يتعرضون لاهله في شيء غير ما يفرضونه عليهم من الجزية او الخراج . وأما الرهبان وجماعة الاكليروس فانهم معفون من كل ضريبة يقيمون في أديارهم مستكنين آمنين . ذلك ما شاهدناه بأعيننا في البلاد التي فتحوها في مصر والشام» .

فأطرق الرئيس وسكت ، فقالت فلورندا : «وما الذي جئت به الان؟»

قال : «كلفني مولاي الكونت والدك ان آتي لاتفقدك ، واذا اردت الذهاب اليه سرت في خدمتك» .

فانبسطت نفس فلورندا لذلك وقالت : «ألا تخاف علينا بأسا في اثناء الطريق ؟» . قال : «لا بأس علينا من اهل اسبانيا ونحن منهم ، ولا من الملك وهو في شاغل من نفسه وجنده» . فالتفتت فلورندا الى الرئيس كأنها تستطلع رأيه فقال : «اذا لم يكن بد من ذهابك فهذه فرصة لا تضيعها ، ونحن ندعو لك بالوصول الى والدك سالمة» . فعادت فلورندا الى خالتها واستشارتها ، فأشارت عليها بالذهاب . وتأهبوا في الغد وسافروا ودليلهم سليمان ومعه اجيلا وشاتيلا ، وأما فلورندا فطلبت الى سليمان ان يمروا في طريقهم باستجة ، فساروا اياما لا يمنع مسيرهم نوء ولا مطر ، والارض كلها مكسوة بالاشجار والاعشاب والطقس جميل حتى أطلوا على استجة ، فخفق قلب فلورندا عند مشاهدة تلك

المدينة وكانوا قد اشرفوا عليها من مرتفع فرأت كنيستها فتبركت بها عن بعد ، وجعلت تناجي نفسها من مقر الفونس فلم تجد بدا من ســـؤال سليمان فقالت له : «اذا أنفذ رودريك جندا الى مدينة مثل استجة فأين يقيــم ؟ »

فقال لها : «أظنك تبحثين عن مقام الامير الفونس ؟»

فبغتت فلورندا وقالت : «نعم • وكيف عرفت ذلك ؟»

قال : «عرفته منذ بضعة اشهر ، اذ جئت هذه المدينة وبلغني قدوم الامير وجنده ، وكانوا يقيمون في هذه القلعة قرب الجسر • هل أبحث عنه هناك ؟»

فاستأنست به فلورندا وقالت : «افعل يرحمك الله ، واتنا بالخبر»•

فتركهم وتحول بأسرع من لمح البصر وترجلت فلورندا وخالتهـــا ولبثوا جميعا ينتظرون الخبر وفلورندا تمني نفسها بملاقاة الفونس ، وكلما تصورت انها لقيته يختلج فؤادها وهي لا تزال تذكره كما شاهدته لاخر مرة في حديقة القصر في طليطلة وعليه لباس الشتاء والفرو والمنطقة، وقد خرج من الحديقة مسرعا مبغوتا عند سماعه الصفير ، ولم يطل زمن اضطرابها وهواجسها لان سليمان عاد سريعا فلما رأته مقبلا شخصت اليه ببصرها وقد منعها الحياء من مبادرته بالسؤال قبل وصوله ، فلما وصل ابتدرها قائلا : «لم اجد احدا في القلعة» •

قالت : «أتظنهم لم ينزلوا فيها ؟»

قال : «لا ريب عندي انهم كانوا نازلين فيها وقد سألت بعض حراس القلعة فأخبرني ان رودريك بعث الى مولاي الامير الفونس ان يوافيه الى وادي ليتة بمن معه من الجند لملاقاة العرب» •

فبغتت فلورندا وأطرقت وهي تتجلد وتمسك عواطفها بين يدي ذلك الرجل ، ولكنها اصبحت قلقة البال على الفونس لانه ذهب الى ساحـــة

الحرب ، وهو في جانب وأبوها في جانب ، واذا فاز الواحد غلب الاخر، وكلاهما عزيزان عندها • وربما لم يفت سليمان ما مر بخاطرها من ذلك فقال لها : «أظننا نلاقي الامير الفونس في الطريق اذا اسرعنا ، والا فاننا ملاقوه في وادي ليتة • فاذا وصلنا الى هناك بحثت عنه وأتيتك بما تريدينه » •

فاطمأنت فلورندا بذلك الوعد وأشارت الى الركب بالمسير فركبوا وساروا حتى تواروا عن استجة وقطعوا نهرها ، وما زالوا سائرين جنوبا وهم يمرون بالكروم والبساتين وكلما اقتربوا من وادي ليتة قل الناس العاملون في الحقول •

وأقبلوا في صباح اليوم التالي على طريق رأوا فيها جماعة من اهل القرى يهرعون كأنهم يفرون من عدو لاحق بهم ، فقالت فلورندا في نفسها : «الظاهر اننا على مقربة من معسكر العرب او ان العرب قادمون» • فالتفتت الى سليمان فاذا هو ينظر الى الافق ويتفرس كأنه يرى شيئا غريبا فنظرت فرأت غبارا يتصاعد فترجح عندها قدوم العرب فخفق قلبها وقالت لسليمان : «يظهر ان العرب قريبون منا • أليس ابي معهم ؟»

فقال : «لا اظن القادمين عربا لانهم سائرون من الشمال الى الجنوب» • ثم التفت الى احد المارة من الفلاحين وسأله عن سبب فرارهم فقال الرجل : «ألا ترى جند الملك قادمين ؟ فهم اذا حلوا بمكان أوقعوا الاذى بالفقراء أمثالنا • فلا يتركون ثمرا لا يقطفونه ، ولا زرعا لا يدوسونه ، ولو اكتفوا بذلك لهان الامر ولكنهم يلحقون الاذى بالناس» • قال ذلك وسار مسرعا في طريقه لئلا يكون مخاطبه من حزب الملك فيقبض عليه !

وكانت فلورندا تسمع كلام الرجل وتأسف على تلك الحال ، وأرادت ان تعلم اذا كان الملك نفسه مع ذلك الجند فقالت لسيمان : «وهل تظن

رودريك مع هذا الجند ؟» • قال : «أظنه معهم» • فلما سمعت ذلــك تصورت قرب الخطر منها ، وسليمان يراقب ملامحها فلما رأى اضطرابها قال لها : «لا تخافي يا مولاتي فانك في أمان • تعالي نختبىء في مكان ريثما يمر هذا الجند» •

قال ذلك ومشى فتبعه الجميع حتى دنوا من خربة مهجورة فوق تل بعيد عن الطريق فدخلوها فقالت فلورندا : «ارى ان أتنكر بثـــــوب الرجال» • فأعطوها ثوبا من أثوابهم وأعطوا مثله للخالة العجوز حتى لا يشك من يراهم عن بعد انهم رجال ، ثم اختبأوا في تلك الخربة وفلورندا شديدة الميل الى مشاهدة تلك الحملة فاهتدت الى شق ارسلت بصرها خلاله الى جهة الغبار فاذا هي بالبنود قد ظهرت والفرسان بينها عليهــم الالبسة الملونة والدروع • ورأت في أواسط الحملة بنودا كثيرة قـــد تجمعت تحملها فرسان بألبسة مرصعة ، وفي وسطهم موكب يتـــــلألأ كالشمس فعلمت انه موكب رودريك • فلم تتمالك عن الاضطراب ولم يقترب الموكب من موقفها حتى اصطكت ركبتاها وارتعدت فرائصها ، فرسمت اشارة الصليب فتشجعت وثبتت قدميها ، ثم شغلها ما سمعته من قرع الطبول وخفق البنود وصهيل الخيل وقرقعة العجلات وعليها المؤونة والذخيرة ، وضوضاء الناس وهم يمرون بين يديها • ثم أقبل الموكب ورودريك فيه على سرير بين دابتين بما يشبه الهودج ، وفوق رأسه مظلة من الديباج المزركش مرصعة بالدر والجوهر ، في مقدمتها صليب مغروس في احد أعمدتها ، ورودريك جالس وعلى رأسه التاج يتلألأ بالحجارة الكريمة وقد ارتدى وشاحا مزركشا وردي اللون وجلس جلسة الملوك على عروشهم ويده في لحيته وهو يجيل نظره ذات اليمين وذات الشمال، ينظر الى جنوده وكثرة ما معه من العدة والرجال • وقد جلس معه في ذلك السرير الاب مرتين وهو يخاطبه ويشير بيده ، ورودريك ينظر الى الاعلام

المحيطة بموكبه ودلائل الاعجاب بادية في وجهه •

فلا تسل عن حال فلورندا لما وقع نظرها على وجه رودريك • وكان سليمان واقفا بجانبها فلما مر الموكب التفت فرأى لونها من الخوف قد تغير ، فأراد ان يشغلها عما بها فقال : «ما ظنك بعدد هذا الجند يـــا مولاتي ؟ »

قالت : «لا أدري ولكنني اراه كثيرا • هل تظن جند العرب اكثر منه ؟ »

قال : «ان العرب لا يزيد عددهم على خمس هؤلاء ، ناهيك بمـــا سينضم الى جند رودريك من الرجال قبل التقائه بالعرب خصوصا جند مولاي الامير الفونس فانه سينضم اليه» • فقالت : «اذن فالعرب في خطر وضعف ؟!» • قال : «لو كانوا ضعفاء ما استطاعوا دخول هــذه البلاد فان القوة ليست في الكثرة وانما هي في الشجاعة • ان العرب يا مولاتي لا يزيد عددهم في هذه الجزيرة على ١٢ الفا ومع ذلك لم يقف في سبيلهم احد» •

فقطعت كلامه قائلة : «ولكنهم لم يلاقوا مثل هذا الجند بعد» • قال: «هذا صحيح ولكنني رأيت من شجاعتهم واتحادهم وصبرهم ما لا اخاف معه عليهم شيئا • ومع ذلك فان النصر من عند الله يؤتيه من يشاء» •

وفي اثناء هذا الحديث مرت بقية الحملة فمكثوا هناك الى اخر ذلك اليوم • وخرج سليمان وحده للبحث عن المكان الذي نزل العرب فيه ثم عاد فأخبر فلورندا ان العرب نزلوا في وادي ليتة قرب مدينة شريش ، فقالت له: «وهل علمت بمعسكر الفونس ؟» • قال : «هو على مقربة من ذلك المكان ، واذا شئت الذهاب توا الى مولاي الكونت والــــدك آوصلتك اليه حالا» •• فأصبحت فلورندا في حيرة لا تدري كيف تسير الى معسكر العرب قبل ان ترى الفونس وتدبر طريقة للاجتماع به او

انقاذه . فلبثت صامتة فأدرك سليمان سبب صمتها فقال لها : «يظهر انك تريدين البحث عن الامير الفونس قبل ذلك ، فاذا شئت فاني لعرف كرما من كروم شريش لعائلة من اهل هذه البلاد ، وفي الكرم بناء مرتفع يطل على سهول شريش كلها ، وحيثما عسكر القوم رأيناهم . فتقيمين هناك مع خالتك والخادمين ، وأمضي انا للبحث عن الفونس وآتيك بالخبر اليقين ، او أستشير والدك» . فاستحسنت فلورندا رأيه وشكرته ، وساروا حتى أطلوا على مدينة شريش وحولها الكروم وفي جملتها كرم صاحبنا الشيخ والد بطرس وهو الذي عناه سليمان فصمدوا اليه واخترقوه يلتمسون العريش فلم يجدوا في الكرم احدا . وكان سليمان لا يمر من هناك الا ويرى الشيخ وأولاده وأحفاده يسرحون في الكرم للعمل او اللعب ، فقال سليمان في نفسه ان لهذا سببا ذا بال . ومشوا حتى اتوا العريش في بعض أطراف الكرم وقبل الوصول اليه سمعوا صوتا يناديهم تعودوا سماع مثله من نواطير الكروم فتقدم سليمان ولم يبال حتى دخلوا العريش فرأى هناك الشيخ وكل ذريته معا ، والقلق باد في وجوههم اجمعين . فلما رأوه مقبلا ذعروا ، ونهض له بطرس فقال : «ماذا تريد ؟» . ثم ما لبث ان عرفه فقال : «سليمان ؟ . مرحبا بسليمان التاجر !» . وكان لذكر اسمه تأثير في سائر اعضاء تلك العائلة لانهم كانوا يسمعون به وبعضهم كان يراه عند قدومه الى شريش لابتياع الخمر في المواسم . وذهب عنهم بعض الاضطراب عند رؤيته ــ وأهل القرى مهما بلغ من ذكائهم واقتدارهم فانهم يعتقدون فضل اهل المدن عليهم ــ فلما رآهم سليمان احتفوا به هذا الاحتفاء بالغ في ملاطفتهم وتقدم الى الشيخ فسلم عليه وسأله عن سبب انزوائهم في ذلك العريش في اثناء النهار والكرم لا يستغني عمن يتعهده فقال الشيخ : «يظهر انك لم تعلم بما طرأ علينا» . وقال : «أظنك تعني قدوم العرب» . قال : «نعم ولا

ندري ما يؤول اليه حالنا بعد هذه الحرب. ورأينا بالامس جند الملك قد عسكر مقابل جند العرب ولا تلبث الحرب ان تنشب ، وعندنا اطفال لا نستطيع الفرار بهم ولا نحن قادرون على ترك مغارسنا» . قال ذلك وصوته يكاد يختنق حنوا على اهله وولده .

فابتسم سليمان وقال : «لا بأس عليكم يا عماه اني كافل لكم كل ما يحميكم ويحمي اولادكم من كل شر . ومعي اناس من اهلي سيقيمون عندكم الليلة ، فهل من مكان لهم ؟»

قال : «على الرحب والسعة» وأشار بيده الى جهة مستودع الخمر في قمة الجبل ، ثم هرول مسرعا ومعه بعض اولاده حتى اقبلوا على فلورندا ورفاقها فتناولوا أزمة الخيل وقادوها الى ذلك المستودع ، وكان بعضهم قد سبق اليه فكنسه ونظفه فصعدت فلورندا وهي لا تزال بلباس الرجال وصعدت خالتها وخادماها ثم سليمان ، وظل اولاد الشيخ أسفل المكان ينتظرون ، فنزل سليمان فدفع اليهم قطعا من الذهب وطلب اليهم ان يأتوهم بالطعام ، وأظهر السخاء فازداد اولئك الغلمان رغبة في خدمته .

اما فلورندا فلما صعدت الى ذلك المستودع أطلت من بعض نوافذه فرأت تحت ذلك الكرم والى شرقيه سهلا واسعا على مـــدى البصر ، يخترقه نهر على ضفتيه الاشجار والاعشاب ، وفي احد طرفي السهل الى يمينها خيام على نمط لم تتعود مثله ، وفي وسطها خيمة كبيرة حمراء اللون امامها علم كبير ، وأمام الخيام الاخرى أعلام اصغر منه . ورأت وراء تلك المضارب خياما منفصلة عنها وفيها الدواب وبينها الجمال وهي لم ترها من زمن طويل . فعلمت انها ترى معسكر العرب فتنسمت ريح والدها من هناك ، وكان سليمان قد فرغ من صرف اولاد الشيخ وصعد فلما رأته قالت : «أليس هذا معسكر العرب ؟»

قال : «بلى يا مولاتي . والخيمة التي ترينها في وسط المعسكر هي

خيمة الامير طارق بن زياد • ومولاي الكونت يوليان والدك يقيم معه».

قالت : «وما تلك المضارب البعيدة ؟»

قال : «هي اخبية النساء ومراتع الماشية • لان العرب اذا ساروا الى الحرب اخذوا معهم نساءهم وأولادهم وماشيتهم ويجعلونهم وراءهم ، فاذا ضعفوا في الحرب وحدثتهم انفسهم بالرجوع لقيهم اهلهم فيعودون وقد تشددوا وتحمسوا !»

فحولت نظرها الى السهل من جهة اليسار فرأت هناك خياما اخرى عرفت انها مضارب الاسبان ، وفيها خيمة رودريك وخيمة الفونس • اما فسطاط رودريك فعرفته من كبره ومما فوقه من الاعلام والبنود وما امامه من الخدم والاعوان ، وان كانوا لا يظهرون لبعد المسافة • وأما خيمة الفونس فلم تستطع معرفتها لتشابه خيام القواد وهم كثيرون فأشارت الى خيمة رودريك وقالت : «أليست هذه خيمة الملك ؟»

قال : «بلى وأظنك تريدين معرفة خيمة الامير الفونس فهذا لا سبيل اليه الا بالبحث • وقد عقدت النية على ان أبحث عن ذلك بنفسي لما لوالدك من الفضل علي» •

فشكرت له فضله ثم قالت : «ومتى تذهب للبحث ؟»

قال : «في هذه الساعة ، بعد ان أهيىء لك ما تحتاجين اليه من الطعام • ولا بأس عليك هنا ومعك خالتك والشابان وهما نشيطان» •

قالت : «ومتى تعود الينا ؟»

قال : «اما الرجوع فلا يمكن تحديد موعده ، وسأبذل الجهد في الاسراع» • وبعد ان دبر كل شيء ودعهم ونزل والشمس قد دنت من المغيب •

* * *

وكان سليمان كثير الاختلاط بالاسبان يتكلم لسانهم مع لسان القوط ، وكان يعرف العربية والبربرية ويحسن التكلم خصوصا بالاسبانية والقوطية فاذا كلم احدا باحداهما ظنه من اهلها . ونظن القارىء ادرك مما تقدم انه هو الرجل الذي جاء الجمعية اليهودية في استجة منذ اشهر وألفونس فيها ، وأنبأهم بما عزم عليه يوليان .

فلما فارق فلورندا عاد الى الطريق التي جاء منها ونزل الى معسكر الاسبان من ورائه ، لئلا يشك احد في قدومه من بعض القرى او المدن. وما زال يتجسس وهو لا يتوقع ان يرى الفونس باقيا هناك فطال تجسسه دون ان يقف على اثره ، فسأل بعض العارفين فدلوه عليه فاذا هو في الطرف وراء معسكر رودريك ، فجعل همه البحث عن يعقوب وعنده كل الاسرار . وكانت الشمس قد غابت قبل وصوله الى المعسكر ، فجعل يمر بين الخيام حتى اذا ما دنا من خيمة الفونس وجد ببابها بعض الحراس ولم ير يعقوب بينهم فمر من ورائها وتظاهر انه شرق بريقه وتنحنح نحنحة خاصة ما لبث ان سمع جوابا عليها من الداخل . فعلم ان يعقوب هناك، وانه علم بقدومه فظل ماشيا في طريقه ، فلم يلبث حتى سمع نحنحة دلته على مكان يعقوب والتقيا فسلما وتحدثا بلغة خاصة فقال سليمان : «اراكم لا تزالون هنا ألم تنجح في اقناعه ؟»

قال يعقوب : «كدت انجح لولا اوباس وكتابه» .

قال : «أتعني الاسقف اوباس الذي كان رجاؤنا في النجاة من هذه الدولة موقوفا عليه ؟»

قال : «بلى ، هو بعينه وقد أطلعتكم على ما دبرناه منذ بضعة اشهر، ورأيتم الفونس نفسه في تلك الجلسة يوم أريناه الدنانير في ذلك التابوت » .

قال سليمان : «وقد رأيت من الفونس اتحادا معنا على هذا الامر .

فما الذي حدث بعد ذلك ؟» . قال يعقوب : «خرجنا من تلك الجلسة وكله اقتناع بنجاح مشروعنا ، وقد افهمته ان العرب اذا اخذوا البلاد ابقوا له كل أمواله وأعادوا الحكم اليه ، وان سعادته في انتصارهم على رودريك. وأخبرته ان سقوط رودريك يتوقف على امر واحد لا يقدر عليه احد سواه وذلك ان ينضم هو ومن معه الى جانب العرب يوم المعركة الاولى ، فاقتنع وتواثقنا على ذلك» .

فقال سليمان : «ثم ماذا ؟» . فمد يعقوب يده الى جيبه واستخرج لوحا مشمعا من ألواح الكتابة عندهم في ذلك العصر ودفعه الى سليمان وقال : «وفيما نحن مطمئنون بذلك جاءه هذا الكتاب من عمه أوباس». فتناول سليمان اللوح ونظر اليه فلم يستطع قراءته لشدة الظلام فابتدره يعقوب قائلا : «لا تتعب نفسك في قراءته فاني حفظته حرفا حرفا ، لكثرة ما أعدت قراءته من شدة غيظي من اوباس مع فرط اعجابي به ..! انه يقول فيه :

«من المطران اوباس الى الابن المحبوب بالرب ولدنا الفونس

«باسم الاب والابن والروح القدس . سلام . اما بعد فقد بلغني ما ارتكبه ولدنا الكونت يوليان من الخطأ في حملته على رودريك بجند العرب ، ولا أظنه فعل ذلك الا انتقاما لابنته . وكأني بك لما بلغك الخبر سررت به لانه يشفي ما في نفسك من هذا القبيل . فأخاف ان يسوقك الضعف البشري الى ما ساق اليه ولدنا المذكور ، فتوافقه على ما يضيع هذه المملكة ، ويبيد هذه الدولة ، فتهدمون في يوم ما بناه أجدادكم في أجيال ، وتدور الدوائر علينا وعليكم جميعا . فاذا كان قد خطر ببالك شيء من ذلك فانزعه عنك فانه من حبائل الشيطان ، واتحد مع ملك القوط للدفاع عن مملكة القوط . وأما ما بيننا وبين رودريك من التباغض فاننا نتنازع عليه بعد الفراغ من محاربة الغرباء . فرجائي ان تصغي الى

نصحي ، ولا تقبل قول سواي والسلام» •

فلما سمع ذلك سليمان قال : «والله انه لقول رجل عاقل • ولكنه اذا عمل به فلا شك ان الضربة تعود علينا نحن اليهود ، خصوصا اذا فاز رودريك واستنطق بعض الاسرى وعلم بجمعياتنا ودسائسنا ومساعينا ضده • والذي اراه من قلة جند العرب مع بسالتهم وصبرهم ان الفونس اذا لم ينضم اليهم فالكفة راجحة في جانب رودريك ، والعياذ بالله» •

فقال يعقوب : «ذلك هو اعتقادي ولكنني قد استنفدت الحيل في سبيل اقناعه • وأنت تعلم يا سليمان كم بذلت من الوقت والسعي من ايام غيطشة لانقاذ شعب الله من هذا الجور ، فتركت منصبي ، وتجاوزت عن أموالي ، وتظاهرت بالنصرانية ، وجعلت نفسي خادما أهيىء الاطعمة وأخدم على المائدة ، وصبرت على ذلك أعواما حتى اذا خلت صبح الفرج قد أقبل أغلقه اوباس ، بعد ان كان اكبر نصير لنا ، بل المحرك الاعظم لمشروعنا ! »

فقال سليمان : «اما اوباس فانه يحسد على هذا العمل بالنظر الى العدل والحق ، فهو لا يريد ان تخرج هذه المملكة من يد ابن وطنه ودينه ولغته ويسلمها الى اناس غرباء عنه دينا ووطنا ولغة • اما نحن فيهمنا اخراجها من هؤلاء القوط على الاجمال ، لان المسلمين خير لنا منهم نظرا الى ما عاينته من معاملتهم لليهود والنصارى في الشام ومصر ، فانهم يطلقون لهم الحرية فيمارس كل منهم طقوس ديانته كما يشاء ، على ان يدفع مالا قليلا يسمونه الجزية • زد على ذلك ان اليهود اقرب نسبا للعرب ، لاننا واياهم من جد واحد هو ابراهيم كما تعلم ، فهم يرفقون بنا بنوع خاص ، فيجدر بنا والحالة هذه ان نكون عونا لهم في تملكهم هذه البلاد، نفعل ذلك حبا لمصلحتنا ، ولا يهمنا كلام اوباس ولا غيره» •

فقال يعقوب : «هذا هو الامر الذي تتمناه ، ولا سبيل اليه الا

بانحياز الفونس الى العرب لان ذلك يقلل جند رودريك ويضعف عزيمته. ولا يخفى عليك ان معظم رجال هذه الحملة يحاربون مع رودريك رياء وهم لا يحبونه . فاذا رأوا ابن ملكهم ينحاز الى العدو يهون عليهم ان يتبعوه ، او ان يتقاعدوا عن الدفاع على الاقل» . قال ذلك ويده فـــي لحيته يلاعب طرفيها بأنامله وشعرها لا يزال متلبدا بالاوساخ . وسكت هنيهة ثم عاد فقال : «فالخلاصة اننا ان لم نستطع اغراء الفونس بالخروج الى معسكر العرب ، ذهبت مساعينا وأرواحنا وأموالنا أدراج الرياح» .

فقال سليمان : «هذا هو الصحيح ، ولو كان هذا الوطر ينقضي بالمال لهان علينا امره ، ولكن الرشوة لا مدخل لها في هذا المشروع ، اذ لا نستطيع ان نرشو الفونس ولا اوباس . واذا رشونا احدا من رجاله لا يستطيع التغلب على رأيه ، وأنت اقرب الناس اليه ولم تستطع شيئا مع كثرة دهائك ومكرك» . قال ذلك وابتسم .

فأجابه يعقوب : «دعنا من المجون فاننا في معرض جد وخطر والوقت قد داهمنا» . قال سليمان : «ومتى ينوي رودريك القتال ؟» . قال : «سمعت انه ينوي مهاجمة العرب غدا» .

فبغت سليمان وقال : «غدا ؟! لقد داهمنا الوقت وفاتتنا الفرصة . ألا تستطيع تأجيل الهجوم يوما او يومين ؟» . قال : «لا أظنني استطيع ذلك . وما الفائدة من التأجيل ؟» . قال : «سأسعى في طريق أظنني ابلغ منه المراد» .

قال : «وما هو ؟» . قال : «لا اقول لك الا بعد قليل ، فاسعفني انت بتأخير المعركة يوما او يومين» .

قال : «لا أظنني قادرا على ذلك يا سليمان ، لان رودريك يـــرى العجلة في مهاجمة العرب قبل ان تأتيهم نجدة فيقوى ساعدهم ، وقد اشار عليه بذلك اوباس» .

فقطع سليمان كلامه وقال : «سبحان الله ، ما اوباس هذا ؟ كيف انقلب هذا الرجل من الشيء الى ضده ...؟»

فقال يعقوب : «اذا كانت عندك حيلة فهاتها قبل فوات الوقت» .

قال : «اني ذاهب الساعة وسأعود غدا صباحا بالامر الذي دبرته فاذا استطعت سبيلا لتأخير المعركة فافعل أستودعك الله» . قال ذلك وتحول راجعا الى حيث اتى ، ويعقوب واقف حتى توارى سليمان عن نظره ، فتحول الى خيمة الفونس وقد مضى هزيع من الليل .

* * *

اما سليمان فانه سافر توا الى معسكر العرب والليل حالك حتى اتى خيمة يوليان ، فلم يعترضه احد لانه كان عارفا بشعار الليل عندهم . وكان يوليان قد أوى الى خيمته للرقاد وقلما كان يستطيعه لما تراكم في مخيلته من الشواغل القديمة والحديثة ، فلما وصل سليمان كان يوليان جالسا في الفراش وقد زاده الارق انقباضا . ولو رآه سليمان على نور المصباح لرأي السوداء مرسومة في وجهه بخطوط واضحة خصوصا بعد ان رأى جنود رودريك بالامس ، وهاله ما رآه من كثرتهم واستعدادهم بينما جند العرب لا يزيدون على خمسهم ، فخاف ان يغلبهم القوط وتعود العاقبة عليه وعلى ابنته وسائر اهله ، وفيما هو في ذلك اذ قيل له : «سليمان بالباب» . فأذن في دخوله ثم ابتدره بالسؤال : «اين فلورندا؟!» قال : «هي في خير ، وستأتي في صباح الغد او بعد الفرار من المعركة» وأخبره بمقامها وطمأنه .

فقال : «وما الذي حملك على المجيء الان ؟» . قال : «حملني عليه امر ذو بال لا أظنه غاب عن بصيرة مولاي» .

قال : «ما في بصيرتي شيء الان غير جنود رودريك فاني استكثرتهم

وخفت على جند العرب منهم . واذا غلب العرب عادوا ولا يمسهم شيء وتقع المصيبة على رؤوسنا ورؤوس اهلنا وكل من قال بقولنا !»

قال : «ذلك ما جئتك من اجله . ولكن اعلم يا مولاي ان الامر على وعورته يتوقف حله على امر هين» . ثم قص عليه حال الفونس وما دار بينه وبين يعقوب بشأنه الى ان قال : «وقد جئت الان ألتمس منك كتابا الى الفونس تدعوه فيه الى التسليم وتضمن له أمواله وأملاكه وأملاك اهله اجمعين ، وتوغر صدره على رودريك بما لا يخفى عليك ، ثـم تعطيني الكتاب فأبعثه بطريقة اختارها» .

فأطرق يوليان هنيهة ثم قال : «عد الي في الصباح فأعطيك ذلـك الكتاب » .

قال : «سمعا وطاعة» . وخرج يلتمس مستودع الخمر وكانت فلورندا في انتظاره على مثل الجمر تتقاذفها الهواجس وتترامى بها الاوهام لم يغمض جفنها الا قليلا . وكيف يزورها النوم وحبيبها على قيد خطوة منها ولا تستطيع الوصول اليه .

وأمر ما لاقيت من ألم الجوى قرب الحبيب وما اليه وصول

مضى معظم الليل وهي في هذه الهواجس، وكلما هب النسيم وسمعت حفيف الورق توهمت سليمان قادما ، وكان شوقها يحدثها انه سيأتـي وألفونس معه . وبينما هي تفكر في نحو ذلك اذ سمعت وقع الخطـى وخشخشة الاعشاب اليابسة بقرب المستودع ، فأصاخت بسمعها وقـد اسرعت دقات قلبها وتعاظمت حتى كادت تسمعها بأذنها فاذا هي بالخطوات تقترب ، ثم سمعت همسا فلم تتمالك عن الوقوف ودنت من النافـذة وأطلت فرأت سليمان يخاطب اجيلا . ثم صعد سليمان السلم ففتحت له فلورندا واستقبلته وهي تقول : «ما وراءك يا سليمان ؟»

قال : «ما ورائي الا الخير» ولكن غنة صوته كانت تدل على شيء في

نفسه فاضطربت فلوراندا وابتدرته قائلة : «يظهر انك تضمر شيئا . قل لي ما الخبر ؟» . فاستيقظت خالتها على هذا الصوت فقعدت وهي تمسح عينيها بأطراف اناملها وقالت : «ما الخبر يا سليمان . هل رأيت الامير الفونس ؟ »

قال : «كلا يا مولاتي» .

فلما سمعت فلوراندا ذلك انشغل خاطرها وقالت : «وأين هو اذن ؟» . قال : «هو في هذا المعسكر» . قالت : «وكيف عدت من هناك ولم تره؟» قال: «لان رؤيتي اياه لا تفيدني ولا تفيدك شيئا ، لانه في حال لا تساعده على سماع كلام احد غير عمه اوباس وهو يأمره ان يتفانى في سبيل رودريك» .

فلما سمعت ذلك تصاعد الدم الى وجهها ، واقشعر بدنها وصمتت برهة ثم قالت وهي تبتسم استخفافا بما قاله سليمان ، ووثوقا بانصياع الفونس لقولها دون سائر العالمين : «أظنه يسمع قولي . لكن ما علاقة ذلك بتوقفك عن مقابلته ؟»

قال : «ان لذلك علاقة كبرى بحياتك وحياتي وحياة مولاي الكونت يوليان ، وحياة كل قوطي ينتمي الى غيطشة ، وكل من لا يرضى ان يعيش ذليلا بين يدي رودريك ، لان بقاءنا جميعا يتوقف على انتصار العرب ، وذلك لا يكون الا اذا انضم اليهم الفونس هو ومن معه ، فينخذل رودريك لا محالة وتخلص البلاد من شره» .

فأعظمت فلوراندا امر الفونس ولكنها ما زالت ترجو ان ينصاع لقولها فعزمت ان تكتب اليه كتابا شديد اللهجة تستجمع فيه كل عبارات التحريض والتوبيخ والاستعطاف فقالت لسليمان : «سأكتب اليه كتابا هل تأخذه اليه ؟»

قال : «نعم يا مولاتي اني رهين هذه الخدمة» . قالت : «اذا اصبحت

تعال فأدفع اليك الكتاب فتحمله اليه وأرجو ان يكون نافذا بعون الله».

فاستبشر سليمان بذلك ومضى وكان الفجر قد دنا فتوسد حصيرا في عريش صاحب الكرم التماسا للراحة فغمضت عيناه ، ولم يستيقظ الا على صوت الطبول والابواق ، فنهض وقد أجفل وأطل على المعسكرين فرأى معسكر القوط يتماوج بالرجال وقد اخذوا في الاصطفاف للقتال وأمامهم الرايات والاعلام ، وفي وسطهم موكب الملك رودريك بمظلته وسريره وفرسانه وأعوانه . والتفت الى معسكر العرب فاذا هم في حركة كأنهم يهمون بالدفاع فأسقط في يده وتشاءم من ذلك اليوم وقال في نفسه : «فاتت الفرصة» . وقد زاد في تشاؤمه ما شاهده من الفرق العظيم بين عدد جند القوط وجند العرب ، ومقدار ما عند القوط من العـــدة والخيل والمؤونة ، فوثب من مكانه وثوب النمر وأسرع منحدرا نحــو معسكر العرب ليأخذ كتاب يوليان الى الفونس فوصل الى المعسكر وهو يلهث من التعب ، فرأى المسلمين وأكثرهم من البربر قد اصطفوا للحرب وعلى رؤوسهم العمائم البيض تقيهم حر الشمس وتتلقى عن رؤوسهم مواضي السيوف وحداد السهام كأنها درع للرأس ، وفيهم حملة الرماح وحملة الحراب ونقلة القسي العربية . وأما الفرسان فقد كانت عليهم دروع من الزرد وعلى رؤوسهم الخوذ لا يظهر من وجوههم غير الحدق ، وفي مقدمتهم فرسان يحملون الرايات وعليها الآيات القرآنية . ولم يصل الى الخيام حتى سمع اصوات التكبير والتهليل وما فيهم الا من قـــرأ الفاتحة والتفت سليمان في وجوه الناس فلم ير بينهم من يبالي بما سيلاقي في تلك المعركة من خير او شر ، فانشغل بذلك المنظر مدة عن يوليان ، ثم تذكر ما جاء به فانخرط في صفوف الاجناد وهو يتطلع ويتشوف فلم يجد يوليان فسأل عنه بعض الوقوف فقالوا له انه ركب في أثر طارق يستحثان الجند على الثبات . ولم يكد يتدبر ما سمعه حتى رأى فرسانا قادمين من

بعض أطراف المعسكر يتقدمهم فارس عليه درع سليمانية ، وعلى رأسه عمامة كبيرة وليس على وجهه درع فظهرت سحنته وبانت ملامحه •

* * *

نظر الى هذ الفارس فاذا هو طارق بن زياد قائد ذلك الجند وكان سليمان قد رآه غير مرة ولكنه لم يره عمره مثل ما رآه في تلك الساعة، فخيل له وهو ينظر اليه انه جبل على فرس وقد ازاح عمامته الى ما وراء جبينه فبان من تحتها جبين عريض تحته حاجبان غليظان ، تحتهما عينان احمر بياضهما من الجهد في الذهاب والاياب • وله شفتان غليظتان ولحية شعرها شديد السواد الا شعرات قد وخطها الشيب • وكان العرق يتصبب من جبينه الى لحيته وهو لا يبالي بمسحه ، ولا يتلفت الى شيء او يتفرس في رجل ، ولكنه كان ينظر الى الجند اجمالا كأنهم رجل واحد • وقد أمسك عنان جواده بيساره ، واستل حسامه بيمينه ، وحسر عنها كمه ، فبان زنده الشديد السمرة ، ولم يكن جواده أقل حماسة منه بل كان يستوقفه طارق فلا يقف الا وهو يتحفز للجري وقد بلل العرق صدره ورأسه •

فتهيب سليمان من منظره ، ثم رأى بجانبه فارسا يختلف عنه لونا وسحنة ويشبهه حماسة واقداما وبسالة ولكنه اصغر منه سنا وأقل جسما• فتنحى سليمان جانبا ريثما يمر طارق ورفاقه لعله يرى يوليان بينهم فينفرد به ويطلب منه الكتاب ، فاذا بطارق قد وقف وتحول بوجهه نحو الصفوف الواقفة بين يديه ، ورفع يمناه والسيف مشرع في قبضته ، فأدرك الناس انه يهم بالكلام فأصغوا اليه فاذا هو يقول بعد حمد الله والثناء عليه ، وحث المسلمين على الجهاد :

«ايها الناس ، اين المفر ؟ ان العدو أمامكم ، والبحر وراءكم ، وليس

لكم والله الا الصدق والصبر . واعلموا انكم في هذه الجزيرة أضيع من الايتام في مأدبة اللئام . وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم الا سيوفكم ، ولا أقوات لكم الا مـــا تستخلصونه من أيدي عدوكم . وان امتدت بكم الايام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم امرا ذهب ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم . فادفعوا عن انفسكم خذلان هذه العاقبة بمناجزة هذا الطاغية ، فقد القت به اليكم مدينته الحصينة ، وان انتهاز الفرصة فيه لممكن ان سمحتم لانفسكم بالموت . واني لم أحذركم امرا انا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس الا ابـــدأ بنفسي . واعلموا انكم ان صبرتم على الاشق قليلا استمتعتم بالارفه الالذ طويلا. فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي ، فما حظكم فيه بأوفى من حظي . وقد بلغكم ما انشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان ، من بنات اليونان الرافلات في الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك امـــير المؤمنين من الابطال عربانا ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة اصهـــارا وأختانا ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم بمجالدة الابطـــال والفرسان . ليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته ، واظهار دينه بهذه الجزيرة . وليكون مغنمها خالصا لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولي انجادكم على ما يكون لكم ذكرا في الدارين. واعلموا اني اول مجيب الى ما دعوتكم اليه ، واني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق ، فقاتلـــــه ان شاء الله تعالى . فاحملوا معي فان هلكت بعده فقد كفيتكم امره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم اليه . وان هلكت قبل وصولي اليه فاخلفوني فـــي عزيمتي هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه .واكتفوا اليوم من فتح هــــذه

الجزيرة بقتله فانهم بعده يخذلون» •

وما فرغ طارق حتى تعالت اصوات الناس بالتهليل وقد تشددت عزائمهم ، وشعر سليمان عند سماعه ذلك الكلام بما فيه من بواعث التحميس ولكنه قلق لضياع الوقت وأوغل في الناس يسأل عن يوليان فرآه في جملة الراكبين مع طارق فأسرع اليه ، فحالما رآه يوليان استدناه منه فجاءه فقال يوليان : «استبطأناك فبعثنا الكتاب مع رسول اخر» •

فانشرح صدر سليمان لعدم ضياع الفرصة ، وتحول راجعا الى الكرم ليأخذ كتاب فلورندا اذ كان اكبر تعويلا عليه لما سيحويه من مثيرات العواطف • فوصل الى المستودع فرأى فلورندا واقفة على السلم والكتاب في يدها فتناوله ولم يفه بكلمة محافظة على الوقت وهرول لا يلوي على شيء وهو في قيافة لا يشك من يراه فيها انه من رجال رودريك ، وكانت الشمس قد أطلت على معسكر القوط ، فانعكست أشعتها على البستهم وبنودهم وخوذهم خصوصا موكب رودريك • فجعل سليمان طريقه من وراء الجند والناس في شاغل لما هم فيه من التأهب ، فرأى جند القوط قد ترتب على هيئة كراديس مثل نظام جند الروم ، وكان العرب الى ذلك العهد لا يزالون ينظمون جيوشهم صفوفا متراصة ، فكان جند رودريك مؤلفا من ميمنة وميسرة يقود الاخيرة الفونس • وأما القلب فكان قائده رودريك نفسه ومعه الكونت كوميس ، وقد جلس رودريك على سريره وفوق رأسه اوراق من ديباج يظلله ، وهو في غاية من البنود والاعلام وبين يديه المقاتلة بالسلاح وفيهم الفرسان بالثياب المزركشة ، وأما ثياب رودريك فقد كانت مرصعة بالدر والياقوت والزبرجد ، حتى خفه فانه كان من الذهب المرصع ! فأعجب سليمان بالفرق بين بساطة العرب وبذخ هؤلاء القوط ، وأين قعود رودريك على ذلك السرير من ركوب طارق على ذلك الجواد ؟ على انه رأى في موكب رودريك رجلا

طويلا واقفا على دكة مرتفعة عليه لباس الكهنوت وقد رفع يديه نحـو السماء وفي احداهما صليب مرصع ، ورفع صوته في الصلاة ليتضرع الى الله لينصر جند القوط . فعرف سليمان من طول قامته وقوة عارضته انه أوباس . فوقف بالرغم عنه فرآه لما فرغ من الصلاة والتضرع اخذ في حث الناس على الصبر والاتحاد ، وذكرهم بمجد آبائهم وشـدة بطشهم وكيف فتحوا هذه البلاد بدمائهم .

ولم يقدر سليمان على الصبر هناك فسار مسرعا حتـى اتى ميسرة الجند وكانت عيناه شائعتين للبحث عن يعقوب ليدفع الكتاب اليه فلـم يجده في مصاف الجند فتحول للتفتيش عنه في الخيمة . فلما وصل اليها رأى ببابها رجلا في مثل زي الجند لكنه لم يكد يتفرس فيه حتى عرف انه من رجال يوليان . فعلم انه هو الذي نقل رسالة يوليان الى ألفونس فلما وصل اليه كلمه بحيث لا يسمعه احد فعلم منه ان الفونس داخـل الخيمة يتلو الرسالة وعنده يعقوب .

- ١٠ -

وكان الفونس منذ اتاه كتاب اوباس يغالب عواطفه ويقدر عواقب تلك الحرب فلا يرى في الثبات خيرا ، ناهيك بما فيه من الخطر على فلورندا وأبيها . وكان منذ قرأ كتابها الى والدها في تلك الغرفة المظلمة ما يزال يبحث عنها فلا يقف على خبرها ، ولم يكن يستطيع التدقيق في البحث خوفا من رودريك . ثم سمع بقدوم العرب وايغالهم في بوتيكة ويوليان رائدهم ، وكان في عزمه ان ينضم اليهم اذا لم يكن انتقاما من رودريك

فاكراما لفلورندا ، ولكن جاءه كتاب اوباس فأثر في عقله تأثيرا عظيما كأنه استهواه بالتنويم المغناطيسي ، فأصبح كأنه في بحر لا قرار له ، يشعر من جهة انه يجب ان يفعل بمشورة عمه ، ويرى ذلك من الجهة الاخرى مخالفا لعواطفه ومناقضا لمصلحته ، حتى اذا اتاه الامر من رودريك ان يوافيه الى شريش رجح عنده رأي عمه ، واشتغل بالحرب والاستعداد لها وصورة فلورندا مع ذلك لا تبرح مخيلته ، ولكن عواطفه كانت مقيدة بسلطان عمه فأصبح بسبب ذلك منقبض النفس ضيق الصدر ، وقد نسي الابتسام وأغفل الاجتهاد وسلم امره الى الاقدار !

ولما جاء رودريك بالامس وعسكر هناك ، سلم الى الفونس قيادة ميسرة الجند وأمره ان يكون على استعداد للهجوم في صباح ذلك اليوم. فبكر الفونس في الفجر وأمر قواده فرتب كل منهم فرقته في موضعها ، ودخل خيمته ليلبس درعه وكان يعقوب يرافقه وعيناه ترقبان مجيء سليمان او خبرا من عنده حتى خاف ضياع الفرصة ، واذا هو برجل لا يعرفه يطلب مقابلة الفونس ويبدو من عينيه انه يحمل خبرا سريا فسأله: «هل معك كتاب اليه ؟ وممن ؟»

قال : «معي رسالة من الكونت يوليان» . ومد يده ودفع اليه لفافة من جلد ، فتناولها يعقوب ودخل وحده ، ولم يكن في الخيمة غير الفونس فلم يتنبه له ، فأقبل يعقوب حتى دنا منه وتنحنح نحنحة تعود الفونس ان يكون وراءها خبر مهم ، وكان قد خلع قباءه ونزع قبعته وأخذ في لبس الدرع ، فبدأ بالجزء الذي يكسو الصدر والظهر وهم بلبسه ، وقد علقت حواشيه بأطراف ضفائر شعره المسترسل على كتفيه فأخذ في تخليصها ، فلما سمع نحنحة يعقوب التفت اليه فاذا هو يحمل بيمناه لفافة مختومة وقد جعل يسراه على صدره . فتناول الفونس اللفافة وفضها فاستخرج منها ورقا مكتوبا ، فما قرأ اسم يوليان حتى خفق قلبه واستيقظت عواطفه،

وتصاعد الدم الى وجهه وظهرت عليه البغتة خصوصا بعد ان أتم تلاوته . وكان يعقوب واقفا امامه وقد أسند يديه متصالبتين على صدره فدفع الفونس اليه الكتاب كأنه يستشيره في امره ، فتناوله يعقوب وقرأه فاذا فيه :

«من يوليان كونت سبتة الى الامير الفونس

«بسم الاب والابن والروح القدس . لا حاجة بي ايها العزيز الى اطالة الشرح في المصائب التي توالت على هذه الجزيرة منذ تولاها هذا الباغي ، الى ما تعلمه من تعديه على الملك واخراجه من أيدي اهله بقتل والدكم المرحوم . فكرسي الملك لبيت غيطشة وأنت أرشدهم جميعا . ولم يكتف بتعديه على الحقوق حتى تجاوزها الى الاعراض ، فمن كان هذا شأنه فكيف يطاع امره ؟ والعرب يا الفونس دولة جديدة ملكت الخافقين بالعدل والرفق ، وهي منتصرة على رودريك لا محالة ، لان اهل مملكته كلهم عليه حتى اقرب أقربائه ، والذي ينصره انما ينصر الظلم والغدر . وأنت تعلم اني ضنين بك شفيق عليك ، لما بيننا من رابطة النسب الصحيح ، فاذا أطعتني وانضممت الى جند العرب فاني ضامن لك كل ضياع المرحوم والدك في الاندلس وهي ثلاثة آلاف ضيعة سلبكم رودريك اياها ، وترجع انت وسائر آل غيطشة الى ما كنتم عليه قبل استبداد هذا الطاغية . وانما كتبت هذا اليك رفقا بك وشفقة عليك ، والسلام » .

وكان يعقوب يتلو الكتاب وألفونس مطرق ، وشعره لا يزال مسترسلا على كتفيه وقد علق بعضه بهداب الدرع ، فلما فرغ يعقوب من قراءته نظر الى الفونس وقال : «وما الرأي يا مولاي ؟» . قال : «الرأي ؟.. انت أدرى مني بما كتب به الينا عمي اوباس . فهل أعصي عمي وأطيع يوليان ؟» . فقال يعقوب وهو يحك قفاه : «لا أشير عليك

بشيء فانك أدرى بالصواب ، وأنا معك الى الممات . ولكنني أستغرب ذلك الرأي من اوباس وهو أعلم الناس بما اصابك وأصاب سائر القوط من هذا الطاغية ، ولولا اعتقادي بقوة عقل اوباس وصحة بدنه لقلت انه يتكلم عن خرف . على اني لا احسبه الا كتب ذلك الكتاب ثم ندم عليه، وفي كل حال فالرأي لك» .

فقال الفونس : «كيف تقول انه ندم ، وأنا لا أجتمع به الا حرضني على الثبات ، ولا يزال صوت خطابه يرن في آذاننا وهو يحرضنا على الاتحاد والصبر في ساحة الحرب ، وهو لا يتكلم جزافا اذ لولا اعتقاده بحسن عاقبة هذا الاتحاد لم يدعني اليه ؟!»

قال يعقوب : «عمك اوباس يا مولاي حكيم وفيلسوف ، وواعظ ولاهوتي ، ولكنه لا يعرف أمور السياسة . ولعلك اذا سمعت مني ذلك نقمت علي وظننت اني اخدعك . ولكن دع ذلك عنك وانظر الى الكونت يوليان فانه والد فلورندا، وهو انما ركب هذا المركب الخشن في سبيل الدفاع عن .... »

فمد الفونس يده وسد بها فم يعقوب بلطف وهو يقول : «يكفي يا يعقوب فاني عامل برأي عمي لانه لا يجهل شيئا نحن نعلمه ، وهو أدرى مني ومنك بالاسباب التي حملت يوليان على ذلك . وقد آن لي ان اخرج لقيادة الجند» . وعاد الى لبس الدرع فيئس يعقوب منه ولبث واقفا يحك عثنونه بطرف سبابته ، فسمع نحنحة سليمان خارج الخيمة فاستبشر وخرج ، فدفع اليه سليمان كتابا قال له انه من فلورندا ، فدخل به على الفونس فتناوله وفضه ، وحالما وقع نظره على الخط علم انه من فلورندا فاختلج قلبه وتزايدت ضرباته ، وظهرت البغتة على وجهه ، وارتعشت اناملة حتى ظهر ذلك في اهتزاز الكتاب ، ثم امتد الارتعاش الى كل أطرافه وهو يتجلد ويتظاهر بعدم التأثر ، ويعقوب يرى كل ذلك ويتجاهل .

اما الفونس فقرأ الكتاب فاذا فيه :

«أكتب اليك على قطعة من ردائي بمداد من دمي ، وهو الرداء الذي قابلتك به في حديقة القصر ، وقد تمزق تلك الليلة بين يدي رودريك دفاعا عن جوهرة هي لالفونس اكثر مما هي لي . وقد ارسلت اليك مع حامل هذا بعض ما تناثر من شعري في اثناء ذلك الدفاع ، ناهيك بما علق منه بنواتىء تلك الشجرة اليابسة تجاه نافذة قصري وأنا هاربة من الوحش الكاسر !. هذا هو رودريك الذي اراك اليوم تحارب بسيفه ، وتدافع عن عرشه ، لتحفظ له ملكا اختلسه من ابيك ، وتستبقي له يدا سيمدها ثانية الى خطيئتك ، الى فتاة تزعم انك تحبها ، وقد فاتك انك ذاهب بها وبأبيها وسائر اهلك وأهلها الى الدمار !. وكأني بك لم تعلم بما ارتكبه رودريك او عزم على ارتكابه . فاعلم انه اراد ابتذال عفتي وهتك ستري ، فهددني وخوفني ، وأملني ومناني ، وأراني السعادة في طاعته والشقاء في عصيانه، ولم يصغ الى بكائي ولم يرق لتضرعي . فعصيته وآثرت الشقاء حبا لك ومحافظة على ودادك . ولعل طول البعد أنساك عهودك على ضفة نهر التاج ، يوم مسست شعر رأسك بأناملك وقلت ان بقاء هذا الشعر حرام عليك ان لم تف بقولك ! أهذا هو الوفاء ؟ كأنك تعهدت بقتلي وقتل والدي وسائر اهلك وأهلي ، وكأنك اقسمت ان تؤيد سلطان هذا الباغي! فاذا علمت ما ذكرته لك وتذكرت ماضي عهودك ورأيت البقاء عليها ، فاترك رودريك وجنده وتعال الى فوق هذه الرابية في مستودع الخمر بين المعسكرين ، او الى والدي في معسكر العرب . وأما اذا كنت لا تزال على نصرة ذلك الظالم وكان لحب فلورندا بقية في قلبك ، فلا تتركني اموت قبل ان اراك وأشكو اليك جفاك ، وأخاطبك وأعاتبك ، وأتزود منك بنظرة انسى بها ذلك الشقاء . واذا ضننت حتى بهذا فأستودعك الله الى ان نلتقي بين يدي الديان العظيم ، ومعنا رودريك يشهد على نفسه

وعليك ، والسلام .

« فلورندا »

* * *

وما فرغ الفونس من تلاوة ذلك الكتاب ، وشاهد شعر فلورندا حتى أحس كأنه استيقظ من رقاد . او هي عواطفه تنبهت من غفلتها ، وانحلت من قيود الاستهواء ، فاستولى عليه سلطان الغرام فأنساه اوباس وكتابه وحكمه وآدابه . والحب سلطان نافذ الكلمة ماضي القضاء غالب على كل سلطان ، يستذل الملوك ويحطم سيوف القواد .

ظل الفونس بضع دقائق مطرقا كأنه غائب الرشد ، ولم يبق في مخيلته الا صورة فلورندا بثوبها الارجواني الذي رآها فيه اخر مرة ، وبشعرها الذهبي ضمن تلك الشبكة ، وفي يده بضعة من كليهما ، وتذكر ما دار بينهما من التشاكي والعتاب ، وما تعهد لها به من اسباب السعادة باتتزاع الملك من رودريك . وتعاظم خجله واضطرابه حتى توهم انه يسمع صوت توبيخها وتمنيفها ويرى دموعها . وكان يعقوب واقفا بين يديه فلما رأى اضطرابه وتأثره خرج من الخيمة تأدبا ليخلو الفونس الى نفسه ، فلما خرج لقيه سليمان وكان واقفا هناك على أحر من الجمر . فلما رأى يعقوب استفهمه بالاشارة فأجابه باطباق عينيه ان الطبخة قاربت النضج. وفيما هما واقفان رأيا فارسا مسرعا نحوهما وفي يده شيء فتقدم يعقوب نحوه للسؤال عن غرضه فاذا هو من أتباع اوباس ، فلما تلاقيا تعارفا فسأله يعقوب عن غرضه فقال انه قادم بكتاب من اوباس الى الفونس ، فاستعاذ يعقوب بالله من ذلك الكتاب مخافة ان يكون فيه ما يفسد تلك الطبخة فعمد الى الاحتيال فقال : «ان مولاي الامير يغير ثيابه ولا

يستطيع احد الدخول عليه» .

قال : «اني مأمور بايصال هذا الكتاب اليه حالا» .

قال : «هاته وأنا أدخله عليه بعد قليل» . فدفعه اليه وانصرف وهو لا يشك انه أتم مهمته . اما يعقوب فانه تظاهر بدخوله الخيمة ودار من ورائها وفض الكتاب فاذا هو بخط اوباس ونصه .

«لا يخدعنك اليهود بدسائسهم ، فانهم انما يريدون مصلحتهم وليست هي في بقاء المملكة للقوط . أثبت في الدفاع عن الوطن كما هو ظني فيك ، واصغ الى قولي فاني بمنزلة ابيك» . فلما قرأ يعقوب الكتاب انقلب الضياء في عينيه ظلاما ، وعجب لتيقظ اوباس واتباهه ، وأدرك انه اذا لم تنفذ حيلته في تلك الساعة ذهبت مساعيه ومساعي سائر اليهود هباء منثورا . فاستقدم سليمان وأطلعه على ذلك الكتاب وتفاوضا فقررا كتمانه عن الفونس ، وأن يعجلا العمل قبل ان ينشب القتال ، فدخل يعقوب فرأى الفونس جالسا على وسادة هناك وهو لا يزال مطرقا ولم يتم لبس الدرع وشعره لا يزال مسترسلا على كتفيه ، ولما رآه انتبه لنفسه ، فوقف وفي خاطره ان يطلع يعقوب على كتاب فلورندا ولكن الحياء منعه ، فابتدره يعقوب قائلا ان الرسول لا يزال واقفا في انتظار الجواب وقد امره صاحب الكتاب ان يعود سريعا .

فخطر لالفونس ان يرى الرسول ويسأله شيئا لعله يتخلص من ذلك التردد فقال : «ادخله علي» .

فخرج واستقدمه فدخل سليمان وسلم متأدبا فسأله الفونس قائلا : «هل رأيت كاتب هذا الكتاب ؟»

قال : «نعم يا مولاي» .

قال : «ومن هو وماذا تعرف عنه ؟»

فأشار سليمان بعينيه نحو يعقوب كأنه يخفي امرا لا يريد التصريح

به بحضوره ، فأشار الفونس الى يعقوب فخرج . فتقدم سليمان الى الفونس وقال : «أتسمح لي يا مولاي ان أصرح بما أعلمه ؟» . قال : «قل» . قال : «اني من اصدقاء الكونت يوليان صاحب سبتة وقد كلفني ان أستقدم ابنته فلورندا من دير كانت فيه قرب طليطلة فوصلنا بالامس» . قال : «وأين هي الان ؟» . قال : «هي على مقربة من هذا المعسكر» . قال : «ولماذا لم تذهب الى والدها ؟» . فأطرق سليمان وتظاهر بشيء يمنعه الحياء من ذكره ، فازداد الفونس رغبة في الاطلاع عليه فقال : «قل كل ما تعرفه ولا تخف شيئا» .

فرفع سليمان نظره الى الفونس وقد تباكى حتى ظهر الدمع في عينيه وقال : «ماذا اقول يا مولاي ؟ ان فلورندا اصبحت في حال يرثى لها من الضعف ، ولم أرها يوما واحدا في اثناء رجوعها غير مبللة العينين . وكنت أظنها تفعل ذلك شوقا الى والدها فجعلت أمنيها بقرب لقائه فلا تزداد الا بكاء ، ولما صرنا على مقربة من معسكر العرب حيث يقيم والدها أبت الذهاب اليه حتى كاد يغمى عليها . ثم فهمت من خالتها العجوز ومن قرائن اخرى انها مخطوبة لك ، وسمعتها تقول انها تريد المجيء اليك ولو كنت في ساحة الحرب . لم ار في حياتي مثل هذا الحب فانها لم تبال بأبيها في سبيل لقائك . ولا اخفي على مولاي انني عرفت ذلك رغم كتمانها اياه عن كل البشر . وهي التي سلمتني هذا الكتاب وأوصتني ان اعود اليها بالجواب حالا وهي تبكي !»

قال ذلك وتساقطت عبراته كأنه يبكي بكاء صادقا ، فلم يتمالك الفونس عن ارسال الدمع . ثم سمع دق الطبول ونفخ الابواق في المعسكر فعلم انهم شرعوا في القتال ، فدق قلبه ورأى انه لا بد له من من القطع في احد الامرين . فتشاغل بلبس درعه واصلاح ثيابه وقد

ترجح له ان يتبع هوى قلبه ويطيع فلورندا ولكن الحياء كان يمسكه .

* * *

وبينما الفونس في تلك الحيرة اذ دخل الخيمة رجل بلباس الكهنوت وهو يهرول ويتمتم . فنظر الفونس اليه فاذا هو الاب مرتين بلباسه الرسمي الموشى وعلى صدره صليب مرصع . والغضب باد في وجهه . ولم يكن الفونس يحبه . فلما رآه داخلا على تلك الصورة تلقاه بالسؤال قائلا : «كيف تدخل خيمتي قبل ان تنبهني الى ذلك مع خادمي ؟»

فقال مرتين وهو يتمتم كالعادة : «اي خادم تعني ؟ ومتى كان الاب مرتين يستأذن قبل الدخول ؟ اين الكتاب الذي جاءك من عمك الان ؟ ولماذا تخلفت عن القتال وأنت قائد ميسرة الجند ؟» . فأكبر الفونس اسئلته على تلك الصورة ، وكبر عليه ان يعتذر عن سبب تخلفه او ان يصرح بعدم وصول الكتاب اليه فقال : «وما شأنك وحضوري القتال . او ما يرد علي من الكتب من عمي او من غيره ؟» . فحمي غضب مرتين ولم يعد يعي ما يقوله وقال : «ان لي فيه شأنا تعلمه . واذا كنت لا ترى ذلك من شأني فلا أظنك تنكره على جلالة الملك . صاحب هذا الجند وقائده الاكبر» . وكان سليمان واقفا في بعض أطراف الخيمة بحيث تقع عينه على عين الفونس ، وكلما قال مرتين قولا اشار سليمان بشفتيه وحاجبيه اشارة الاستخفاف والاستياء . واذا رد عليه الفونس أبدى سليمان استحسانه واعجابه فازداد الفونس استمساكا بحميته . فلما عرض مرتين بذكر رودريك وسلطانه زال حياء الفونس مما كانت نفسه تحدثه به ، ولم يكن جوابه الا الخروج من الخيمة مسرعا الى جواده فامتطاه ، وحول شكيمته نحو ميسرة الجند وهو يقول : «سوف ترون من هو صاحب هذا الجند وما هو مصير اهل البغي ! وقد كنت أتردد في

الذهاب وحدي فها أنذا ذاهب مع جندي !»

وكان القتال قد بدأ وتطايرت السهام وتلألأت السيوف ، وعلا ضجيج الرجال وصهيل الخيول وصلصلة اللجم ، والملك في قلب الجيش وحوله فرسانه وأعلامه وبنوده . وأوباس يطوف الجيش على جواده وقد نزع قلنسوته فاسترسل شعره على كتفيه وظهره . وأمسك زمام الجواد بيسراه ورفع يمناه يحمل بها صليبا مرصعا ، وهو يستحث الجند على الثبات والصبر .

ولما ركب الفونس جواده وقعت عينه على اوباس عن بعد ، فخاف ان يدركه قبل الفرار فيثنيه عن عزمه ، فساق جواده ولم يلتفت يمنة ولا يسرة حتى اتى فرقته ، فلاقاه ومبا وزميله قائدا الفرقة بعده ، فحدثهما ووعدهما خيرا . وقد علمت انهما كانا يحبانه ويكرهان رودريك فأطاعاه وأمرا الجند بالخروج من المعركة فتحولت ميسرة القوط كلها نحو معسكر العرب ، فتضعضع جند القوط واضطربت جوانبه !

اما مرتين فانه ما انفك منذ خروج الجند من طليطلة وهو يراقب حركات اوباس ويلقي الشكوك لدى رودريك في اخلاصه وصدق نيته ، فلما نزلوا سهل شريش واصطف الجند للقتال رأى الفونس قد تأخر عن الخروج للحملة ، ثم رأى اوباس دفع الى بعض حاشيته كتابا سار به الى خيمة الفونس ، فظن سوءا وأسرع الى الملك فأراه الرسول راكبا الى تلك الخيمة وهرع هو اليها كما تقدم . فلما خرج الفونس وسليمان وبقي هو في الخيمة وحده عظم عليه ما كان من استخفاف الفونس به ، فالتفت الى ما حوله فوقع نظره على رق ملفوف فتناوله وهو يحسبه كتاب اوباس ، فاذا هو كتاب فلورندا وقد نسيه الفونس هناك لغضبه وتسرعه ، ففرح مرتين بذلك الكتاب فرحا شديدا وفهم منه مقام فلورندا ، ولكنه ما زال يعتقد (او يريد ان يعتقد) ان اوباس كتب اليه

بالانضمام الى العرب !

وخرج مرتين من الخيمة ونظر الى الجند فرأى الفونس وفرقته يسيرون نحو معسكر العرب . فركض الى رودريك وكان لا يزال على سريره في وسط موكبه ، فنظر الى مرتين فاذا هو يشير باصبعه الى الفونس ورجاله ، فلما رآهم رودريك يسوقون خيولهم الى معسكر العرب استشاط غضبا وقال : «ما الذي غيرهم ؟»

قال : «غيرهم كتاب حضرة الاسقف . وقد قلت لك اني لم اكن أطمئن بظواهره فمر بالقبض عليه الآن واسجنه . قبل ان يفر هو او يحرض باقي الجند على الفرار !» . فأمر رودريك رئيس حرسه ان يقبض على أوباس حالا فأسرع رئيس الحرس ومعه كوكبة لانفاذ امر الملك !

اما مرتين فلم يشف غيظه القبض على اوباس فأراد ان ينتقم من الفونس ، فاغتنم غضب رودريك ودفع اليه كتاب فلورندا فتلاه وهو ينتفض من شدة الغيظ . لما حواه من الطعن فيه والتحريض على اذيته . فلما فرغ من تلاوته اصبحت لحيته ترقص على صدره وأنامله ترتجف . وصاح في مرتين : «اين هو المستودع الذي تقيم فيه هذه الفاجرة ؟»

فاشار مرتين الى المستودع وهو يقول : «أظنه هذا» .

فأمر رودريك كوكبة من فرسانه ان يذهبوا للقبض على من فيه . ويسوقوهم اليه أحياء او أمواتا .

* * *

ظلت فلورندا بعد ذهاب سليمان من عندها في ذلك الصباح جالسة الى النافذة تراقب حركات الجند وسكناته ، وكان اكثر اهتمامها بالميسرة لعلمها ان الفونس هناك ، ولا تسل عن اضطرابها وقلقها ، فلما رأت الميسرة تهرع الى معسكر العرب اطمأنت وأيقنت بالفرج ، ورقص قلبها

طربا . وكانت الخالة واقفة الى جانبها وهي لا تكاد تتبين ما يجري لقصر نظرها ، فلما اخبرتها فلورندا بما رأته شاركتها الفرح ، وكان اجيــــلا وشنتيلا واقفين على مرتفع بجانب المستودع يراقبان حركات القتال ، فلما رأيا ميسرة القوط انضمت الى العرب اسرعا الى فلورندا فأخبراها ففرحوا جميعا ووقفوا يتحادثون بما شاهده كل منهم في اثناء المعركة مما لم ينتبه له الاخرون .

وفيما هم في ذلك اذا بالشيخ صاحب الكرم قد اسرع ومعه بعض غلمانه وأطفاله يركضون حتى صعد المستودع وهو يصيح : «اين سليمان التاجر ، فانه وعدنا بالحماية ؟»

فأطلت فلورندا من النافذة فرأت كوكبة من فرسان القوط يسوقون خيولهم بين الدالية لا يبالون بتكسيرها ، حتى وصلوا الى المستودع وفي أيديهم السيوف مسلولة . فحالما رأتهم فلورندا علمت انهم من رجـــال رودريك فاصطكت ركبتاها وارتعدت فرائصهـــا وصاحت : «أجيلا ! شاتيلا ! »

وكانا قد جاءا للدفاع قبل سماع صوتها ولم يباليا بكثرة الفرسان القادمين ، وساعدهما على ذلك اولاد الشيخ ونساؤه ، وعلت ضوضاء النساء والاطفال وفلورندا واقفة في النافذة مع خالتها تقرع صدرهـــا وتصلي الى الله ان ينجيها ، وتتوسل الى السيد المسيح والى العذراء مريم ان يدفعا عنها ذلك الشر . ثم نظرت الى أسفل المستودع فرأت أجيـــلا وشاتيلا قد وقعا قتيلين بعد ان قتلا بضعة من رجال رودريك فحزنت عليهما حزنا شديدا . ولكنها اصبحت في شاغل من نفسها ولم تجد من تستغيث به غير الله . فجثت في وسط المستودع وكشفت صدرها وحلت شعرها ونظرت الى السماء وجعلت تقول وهي تلطم وجهها وتقرع صدرها وصوتها مختنق من شدة البكاء : «الهي انت نصير الضعفاء . الهي انت

منقذ المظلومين . اللهم اشفق على صباي . احمني من هؤلاء الظالمين اكراما لدم ابنك المسفوك على الصليب» . ثم اختنق صوتها فبلعت ريقها وعادت الى الصلاة وهي لا تبالي بوقع الاقدام على السلم الخشبي المؤدي اليها ولم تلتفت الى شيء مما حولها ، وانما صوبت حواسها وعواطفها وأفكارها كلها الى السماء وهي على ثقة تامة ان الله لا يتخلى عنها . وكانت خالتها جاثية بجانبها تعيد دعاءها وتؤمن لها .

اما الفرسان فانهم قتلوا ذينك الشابين وبضعة من اولاد الشيخ . وصعدوا الى المستودع صعود الذئاب الخاطفة يتقدمهم رئيسهم وهو من اهل بلاط رودريك ، وكان قد شاهد فلورندا في طليطلة غير مرة فلما رآها في المستودع لم يعرفها لما طرأ عليها من التغير بالاسفار ، ثم ما كان من تغيير حالها في تلك الساعة وهي محلولة الشعر مكشوفة الصدر حاسرة الزندين ، وقد توردت وجنتاها من اللطم والصفع ، واحمرت عيناها وتكسرت أهدابها من البكاء ، وبلل الدمع وجهها وامتزج بالعرق المتساقط على صدرها فتبلل شعرها وقميصها . فلما رآها الفارس على تلك الحال وقد دخل ولم تنتبه له ناداها فلم تجبه ، فتقدم اليها وأمسكها بزندها وجذبها نحوه فالتفتت اليه فرأت بيده الاخرى سيفا لا يزال يقطر دما وقد تلطخت انامله الاخرى بالدم ، فلما شاهدت ذلك ازدادت رعبا ولكنها تجلدت وقالت : «ماذا تريدون ؟»

قالوا : «نريد ان نمضي بك وبمن معك الى الملك رودريك» .

فلما سمعت اسم رودريك صاحت : «لا . لا . لا أذهب اليه» .

فقال لها الفارس : «سيري برضاك والا اخذناك قهرا ، ولا أظنك تستطيعين النجاة من أيدينا ونحن جماعة !» . قال ذلك وصاح في رجاله فقبضوا عليها وجروها والعجوز تصيح فيهم وتستعطفهم وما من مجيب . حتى نزلوا من المستودع فأركبوها فرسا وأركبوا خالتها فرسا اخر

وساقوهما وفلورندا لا تزال محلولة الشعر مكشوفة الصدر ، محمرة الوجه ، دامعة الطرف ، وهي تستغيث بالله وتستنصره على القوم الظالمين ، والفرسان لا يبالون بصياحها ونحيبها حتى انحدروا من تلك الاكمة واتهوا الى ساحة الحرب . فوقع نظر فورندا على رودريك في موكبه وقد حمي وطيس الحرب والتحم الجندان بين فارس وراجل واختلط المسلمون بالقوط . وقد تضعضع هؤلاء حتى اضطر رودريك للنزال والدفاع بنفسه .

وكانت فلورندا قد يئست من النجاة فودت لو ان نبلا من النبال المتساقطة يصيب صدرها فينجيها من رؤية رودريك . ثم التفتت فرأت فارسا من جند المسلمين يجول في المعمعة على مقربة منها وهو صبوح الوجه متناسب الملامح لولا عمامته ولباسه العربي لظننته قوطيا ، وقد شد عمامته على رأسه شدا وثيقا ، واستل سيفه وأخذ يهاجم صفوف القوط فيبددها ، ثم التفت الى فلورندا فلما وقعت عينه على عينها صاحت فيه واستنجدته بلغة لم يفهمها ، ولكنه فهم مرادها من اشاراتها وملامحها. ووقعت من نفسه موقعا عظيما من اول نظرة وأسرع للدفاع عنها فحول شكيمة جواده نحوها وشهر سيفه وصاح : «ابشري يا مليحة اتاك بدر . لا تخافي !»

وجاء في أثره بضعة من فرسان البرابرة يصيحون بكلمة التوحيد وبأيديهم السيوف ، فلم يستطع فرسان رودريك الثبات امامهم طويلا فلما خافوا اخفاق مسعاهم أسرع احدهم الى الملك يستنجده فلم يتمالك ان جاء بنفسه وقد تحول عن سريره الى جواد مثقل بالزخارف ، والمجوهرات على تاجه ونطاقه وسيفه وقبائه حتى نعاله ، وكذلك عدة الفرس فقد كانت مرصعة ، كما كان الجواد من اجمل الخيول شكلا وقواما ، ولكن جواد بدر يفضله خفة وسهولة مثل سائر خيول العرب .

وكان بدر قد شتت شمل الفرسان عن فلورندا حتى اوشكت ان تنجو واذا برودريك قد أقبل بأثقاله فلما وقعت عينها على عينه صاحت هـــي وخالتها بصوت واحد ، ناهيك بصوت يرجو به صاحبه النجاة من الموت والعار معا : «هذا هو طاغية القوط !»

فتحول بدر اليه وعرف من قيافته انه الملك ، وتبارزا ، وكان بدر أنشط بدنا وأخف مركبا فتجاولا وتصاولا اذ كان رودريك من القواد المعروفين . وكانت فلورندا على جوادها وعيناها شاخصتان الى الرجلين تراقب كل حركة من حركاتهما ، وقد حبست أنفاسها لئلا يشغلها التنفس عن مراقبة تلك المبارزة لعلاقة ذلك بحياتها او مماتها ،فاذا هجم رودريك اشارت بيدها كأنها تشارك بدرا في تلقي ضربته ، واذا هجم بدر احست كأنها تهجم معه وهي بالحقيقة واقفة مكانها ولكن جوارحها كانت تشارك نصيرها بكل حركة. ثم ما لبثت ان رأت رودريك يستمهل بدرا بالاشارة، وكان بدر يود ان يقبض عليه ويسوقه الى طارق اسيرا لينال بأسره فخرا، فلما رآه يستمهله اجابه بالاشارة ايضا ان يمضي معه الى معسكـــر المسلمين ، فعاد الى استمهاله فأمهله دون ان يفكر في انه انما يخدعــه وينوي الفرار ، فقد كان بدر مستخفا بالرجل ولكن رودريك حـــول شكيمة جواده نحو خيامه وأطلق له العنان ، فالتفت بدر الى رفاقه وكلمهم بالبربرية ان «خذوا هذه الفتاة الى خيمتي» واقتفي أثر رودريك .

وكان القوط قد ضعفت عزائمهم فلما رأوا ملكهم فارا أركنوا الى الفرار . اما بدر فما زال يتعقب رودريك ورودريك يجول في معسكره كأنه يفتش عن ضائع ، وبدر يتبعه ويعجب من مسيره على تلك الصورة، حتى انتهيا الى خيمة خرج منها كاهن امتطى فرسا وهم بالفرار ، فصاح رودريك فيه «مرتين !» فالتفت مرتين واقترب من رودريك فابتـــدره بسيفه وهو يقول : «كل هذا البلاء من فساد سريرتك وضعف رأيك» .

فأصابت الضربة عنقه فوقع مضرجا بدمه ، فتركه صريعا وساق جواده نحو الوادي وبدر يتبعه ، حتى وصل ضفة النهر . والظاهر انه لم يقوى على رد جماح جواده فأرسله في الماء فغرقا معا . ويقال انه فعل ذلك عمدا وفضل الموت غرقا على ان يقتله احد من اعدائه . فرجع بدر وهو يصيح : «قتل الطاغية ! قتل الطاغية !» فازداد المسلمون جرأة وأوغلوا في معسكر اعدائهم . ولم تسل شمس ذلك اليوم الى الاصيل حتى خلا المعسكر من القوط الا من وقع قتيلا او أخذ اسيرا ، واستولى المسلمون على ما فيه من العدة والذخيرة والزاد والامتعة والخيول والماشية وغير ذلك .

وكان طارق بن زياد في اثناء المعركة يجول على جواده ويحرض المسلمين على الثبات ، ويكافح ويجالد ويقاتل لا يبالي بقلة رجاله بالنسبة الى رجال القوط . ولم يكن يعلم بما كتبه يوليان الى الفونس ، ولكنه صمم على التفاني في سبيل الفتح منذ وطىء الاندلس كما رأيت من خطابه الذي ذكرناه ، فأحرق سفائنه حتى ييأس رجاله من التعلق بها او الالتجاء اليها اذا غلبهم القوط ، ولذلك لم يكن يبالي بكثرة عدوه او قلته وانما كان همه وهم من معه الصبر والثبات .

فلما رأى الفونس ورجاله ينضمون اليه شكر الله على ذلك وازداد ثقة بالنجاح ، وحرض المسلمين على الثبات حتى قضى على القوط بالفرار كما رأيت ، وكانت تلك الواقعة الضربة القاضية على مملكة القوط قتل فيها ملكهم ونخبة قوادهم .

***

فلما فرغ الجند من الحرب وتراجعوا الى خيامهم أمر طارق بأن يحملوا اليه الغنائم والسبايا والاسرى على العادة بعد كل قتال ، فحملوا

كل ما غنموه من العدة والسلاح والآنية والذخيرة والجواهر والتحف، وأكثرها من الصلبان والخواتم وفيها الفضة والذهب بين مرصع وغير مرصع ، وجاءوا بالاسرى وفيهم المقيد والموثق والسليم والجريح . فتجمع من ذلك كله شيء كثير حتى اصبحت الاسلاب ركاما امام الفسطاط ، والاسرى جماعات مشدود بعضهم الى بعض بأعناقهم او أيديهم او أرجلهم والرجال لا يزالون يأتون بهم زرافات ووحدانا .

واجتمع قواد الجند امام فسطاط طارق على بساط كبير من جملة الغنائم افترشوه هناك ، فجلس طارق في صدر المكان والى يمينه الكونت يوليان والى يساره الامير الفونس وبين يديه كبار القواد وفي جملتهم بدر . وكان الفونس قد لقي يوليان ساعة انضمامه الى جند العرب وتحادثا مليا في شأن المملكة وما كان من امر اوباس وذكرا فلوروندا وانها مقيمة في المستودع حتى يرسلوا في طلبها ، وصمما على ان يستقدماها في صباح الغد بعد الفراغ من قسمة الغنائم والاسلاب . وكان الفونس منذ انقضاء المعركة يتفرس في الاسرى لعله يرى اوباس بينهم وهو لا يتوقع ان يراه اسيرا لعلمه انه يفضل الموت على الاسر .

فلما تكامل اجتماع القواد وكل طارق الى كبير منهم ان يخرج خمس الغنائم حسب العادة لبيت المال ويقسم الباقي بين القبائل على مقتضى تعدادها وكان يقول ذلك وامارات الاعتزاز والافتخار بادية في وجهه ، وألفونس ويوليان يتساءلان في امر اوباس هل قتل او فر او أسر ، وكلاهما يستبعد وقوعه في الاسر ، واذا هم بجماعة من جند العرب يحوقون رجلا طويلا شعره مسترسل على ظهره وكتفيه ولما دنوا من الفسطاط تقدم احدهم وهو يقول لطارق : «وجدنا هذا الاسير مغلولا في مضارب القوط فحللنا وثاقه وجئنا به» .

فقال : «الي به» .

فأقبل أوباس وهو لا يزال كما كان في اثناء القتال محلول الشعر وفي صدره صليب وبيده صليب • فلما وقع نظر الفونس عليه لم يتمالك ان نهض حتى وصل اليه فجثا امامه وأكب على يده وجعل يقبلهما ودموعه تتساقط بلا بكاء ، وفعل نحو ذلك يوليان وقد امتزجت في وجهه امارات السرور بالنصر بامارات الخجل من الخيانة ، فانحنى على يد اوباس فقبلها وأمسك به ودعاه للجلوس في صدر المكان • وكان طارق وبدر وسائر القواد قد تحولت أنظارهم الى ذلك القادم وقد زاد هيبة وجلالا باسترسال شعره ، فأخذ ينظر الى الذين حوله بلا اكتراث • ولما دعاه يوليان للجلوس أمسك عن مجاراته وظل واقفا في مكانه يتفرس في وجوه الناس • ولو استطاع الفونس التفرس في عيني اوباس لرآهما تتلألآن بالدمع رغم اعتقاده ان الطبيعة لا تستطيع قهره ، وهي لا تستطيع قهر العاقل اذا استذل عواطفه وأخضعها لعقله ، فانه لا يرى في حوادث الطبيعة ما يدعو الى الحزن او الى الفرح ، والحياة بجملتها في نظره نسمة من نسمات الوجود ، فما قولك بأعراضها ! ولكن المرء لا يخلو من العواطف فهو عرضة للحزن والفرح ، فلا تلومن اوباس على البكاء وقد رأى ذهاب دولة القوط من اسبانيا بسوء تدبير رجل واحد رغم ما كان يؤمله هو من ملافاة ذلك ، حتى اذا كاد يدرك مراده ذهبت مساعيه أدراج الرياح وجوزي جزاء سنمار !• على ان اسفه ما لبث ان تحول الى الاعتبار ، فلما دعاه يوليان للجلوس توقف هنيهة ثم قال بصوت جهوري فيه خشونة من عظم التأثر : «تدعوني يا يوليان للجلوس في مكان تحسبه بيتك وأنت قد خسرت اليوم هذا البيت ؟ بعته يا يوليان بأرخص الاثمان ، وأنت تزعم انك فعلت ذلك انتقاما من رجل ساقه ضعفه الى مس كرامتك ، فسقت نفسك وأهلك وسائر رجال القوط والاسبان الى ضياع انفسهم وأموالهم وأعراضهم • -نى ابنتك التي

ارتكبت هذه الخيانة غيرة على عرضها قد ذهبت سبية في يد رجل لا هو من دينك ولا أمتك ولا لغتك !»

وكان اوباس يتكلم والحضور مطرقون حتى العرب ، مع انهم لم يكونوا يفهمون ما يقول ولكنهم هابوا صوته ومنظره . اما يوليان فانه كان يذوب خجلا فلما سمع ما يقوله عن فلورندا وسبيها انتبه وأجفل، وكذلك الفونس ، ولم يتمالكا ان قالا بصوت واحد : «اين هي ؟» ولم يستغربا اطلاعه عى ذلك ولا استخفا بقوله لانه لا يقول عبثا . فلما سألاه عنها وجه خطابه الى الفونس وقال : «ضاعت خطيبتك منك ، وما انت لها وقد ارتكبت ما لم يرتكبه رودريك ، لانك خنت بلدك وأهلك وأضعتهم جميعا !. فاذا كنت فعلت ذلك عقابا لرجل اراد ان يمس عرضك ، فما هو مقدار العقاب الذي تستحقه انت وقد جعلت أعراض القوط وأموالهم وأرواحهم عرضة للسلب والقتل ؟»

فلم يكن جواب الفونس غير البكاء . وأما يوليان فانه أحس بتبكيت الضمير خصوصا لما سمع بضياع ابنته ، وأراد ان يستفهم عنها فتهيب وظل مطرقا .

وكان طارق وبدر يسمعان كلام اوباس ويعجبان به وهما لا يفهمان ما يقوله . فالتفت طارق الى ما حوله يبحث عمن يترجم له اقواله . فرأى سليمان التاجر فأدرك سليمان غرض طارق قبل ان يسأله ، فتقدم وفسر له كلام اوباس وهو يتوقع ان يستاء منه فاذا هو قد زاد اعجابا وخاطب اوباس بواسطة سليمان قائلا : «بورك فيك من رجل عاقل وشهم كامل ! اني لاعجب من فشل جند القوط وفيهم رجل حكيم مثلك ، مع كثرتهم واستعدادهم » .

فقال اوباس : «لا تعجب يا ولدي ان للدول آجالا كما للناس . فاذا جاء أجلها خابت الحيل في استبقائها . على اني كنت احسب أجل هذه

الدولة اطول من ذلك ، فعجلـة ضعف رأي الملك وفساد نيات أهـل شوراه . وهكذا اراد الله» .

قال طارق : «فاذا كانت هذه ارادة المولى فلا يسؤك خروج هـذه الدولة من أيدي القوط ، فان دخولها في حوزة المسلمين من أسباب سعادتها ، لان اهلها يعيشون في ظلنا ندفع عنهم الاعداء ونضمن لهـم الامن ، ولا نكلفهم عن ذلك الا جعلا قليلا هو الجزية ، فاذا أدوها بات كل منهم آمنا على عرضه وروحه وماله» . قال ذلك وأمسك بيد اوباس ومشى به وهو يقول : «هلم بنا الى الفسطاط ريثما يفرغ القواد من قسمة الغنائم» .

فمشى اوباس ويوليان وألفونس وبدر ومعهم سيمان ويعقوب حتى دخلوا الخيمة وكانت كبيرة ، فقعد طارق في صدرها وأقعد اوباس الى يمينه ويوليان وألفونس الى يساره ، وقعد بدر في جانب من جوانب الخيمة وهو لا يزال لابسا الثوب الذي حارب به وعليه السيف والدرع. ولم يكد يوليان يراهم استقروا هناك حتى ذهب تهيبه من اوباس فعاد الى الاستفهام عن فلورندا فقال : «سمعتك يا مولاي تقول ان فلورندا ذهبت سبية فهل تعني ذلك حقيقة ؟»

قال : «ومتى كان اوباس يتكلم جزافا ؟»

فزاد اهتمام يوليان واستغرابه وأراد الاستيضاح فسبقه الفونس وقال : «وكيف ذلك ؟ ومن سباها ؟»

فقال اوباس : «لا أعرف اسم الرجل ولكنني رأيتها وأنا مسجون في الخيمة محلولة الشعر تستنجد السماء لتنقذها من رودريك وكان قد بعث يستقدمها اليه . فجاءها فارس عربي لكنه غير بربري عليه عمامة بيضاء فأنقذها وتعقب رودريك لا ادري الى اين ، ولكنه أمر رجاله ان يحملوها فحملوها نحو هذا المعسكر ـ سبية بالطبع ـ وهي ملك للـذي

سباها ! »

فقال يوليان : «هل تعرف ذلك الرجل اذا رأيته ... ؟ يظهر انه اخذها اليه وأخفاها عن الامير طارق لاني لم أرها بين السبايا» .

قال اوباس : «أظنني أعرفه اذ انه يمتاز عن كل الجند ببياض لونه وشقرة شعره» .

فلما سمع يوليان ذلك اتجه فكره الى بدر فالتفت اليه وكان جالسا على عدة خطوات منه ، يسمع كلامه ولا يفهمه لانه لا يعرف القوطية . على انه لو فهم ان سبيته ابنة يوليان لم يبال لانه ما زال حاقدا عليه منذ حرمه بنت الشيخ صاحب الكرم ليلة نزولهم شريش . وكان يوليان خشن المعاشرة بسبب ما تسلط عليه من السوداء منذ بضعة عشر عاما لمصيبة ألمت به فأذهبت صبره وأصبح ضيق الخلق قصير البال ، فكان رفقاؤه لا يسرون بمعاشرته خصوصا بدر لما بينهما من البون في السن . فلما نظر اليه يوليان كان يتلهى بتقليب سيفه بين انامله وفكره عند فلورندا لانه كان قد افتتن بجمالها ، فلما رآه يوليان مشتغلا عنه التفت الى طارق وأفهمه خلاصة حديثه مع اوباس ، وانه يظن بدرا هو الذي سباها ، ورجاه ان يطلبها منه ، فالتفت طارق الى بدر وناداه : «بدر» .

وكان بدر قد سمع كلام يوليان لطارق وفهم قصده فلما سمع طارق يناديه اجابه وهو لا يزال جالسا : «نعم» .

وكان طارق شديد التعلق ببدر يحبه ويدلله ويعامله معاملة الاب لابنه او الاخ الاكبر لاخيه ، فلما رآه اجابه بلا اكتراث ابتسم له وقال : «اراك لا تزال جالسا ، ألم تسمع ندائي ؟»

فقال : «سمعت وأجبتك» .

فقال طارق : «قم الي لاسألك سؤالا» .

فوقف وقال : «وما سؤالك ؟ اسأل كل ما تريده . اطلب ما شئته الا

سبيتي فانها لي ولا حاجة الى كثرة الكلام» • قال ذلك وهو يصلح عمامته كأنه يستعد للنزال ، فضحك طارق حتى بانت نواجذه وقال : «لا ادري ما سبب غضبك ونحن لم نخاطبك في شيء بعد • ألا سمعت قولنا ثم قلت ما تقوله ؟»

قال بدر : «قل فاني سامع» •

قال : «احك لنا كيف عثرت على هذه السبية» •

★ ★ ★

فقص عليهم بدر الحكاية باختصار حتى انتهى الى فرار رودريك وكيف انه قتل الاب مرتين ثم غرق في النهر • وكأن الفونس وأوباس لا يفهمان ما يقول فتقاربا واستدنيا سليمان ليترجم لهما • فلما وصل الى مقتل مرتين بيد رودريك قال اوباس في نفسه : «لم يكن يليق قتله بغير تلك اليد !» فلما فرغ بدر من حكايته قال له طارق : «لا شك انك استأثرت بهذه السبية وأنت لا تعلم انها ابنة الكونت يوليان !»

قال : «نعم اني لم اكن أعلم ذلك ، ولكن علمي لا يغير شيئا من عزمي ! »

قال ذلك وتحول يريد الرجوع الى مقعده فناداه طارق بلهجة الجد وقال له : «كيف لا يتغير عزمك والكونت يوليان هو الذي اكسبنا هذا النصر ، ولولاه لم ندخل هذه البلاد ؟ أيليق بنا ان نسبي ابنته ووحيدته؟• ارجعها اليه ولك ما شئت من سبايا هذه الجزيرة وغنائمها» •

فقال : «لا أريد شيئا غير هذه ، وهي غنيمتي في الحرب • وهو الذي منعني بالامس من غنيمتي الاولى لانها لم تؤخذ في اثناء القتال ، وهذه ؟ ألم أغنمها في ساحة الوغى ؟ ألم أحارب ملك القوط من اجلها ؟ وقد قتلته وكان قتله سببا في فشل جنده • أتستكثرون علي فتاة سبيتها،

وقد تركت لكم نصيبي من سائر الغنيمة ؟»

فقال طارق وهو لا يزال يرجو اقناعه : «اذا كنت تفعل ذلك نكاية في الكونت يوليان وانتقاما منه فانتقم من غير هذا السبيل . وأنت تعلم يا اخي ان عملك هذا يخالف حق الجوار ومعرفة الجميل . ماذا يقول المسلمون اذا علموا فضل الكونت في هذا الفتح ثم قيل لهم اننا اخذنا ابنته سبية ؟ فارجع الى ما هو أجدر بك من كرم الخلق ، افعل ذلـــك اكراما لي وعملا بحقوق الاخوة» .

وكان بدر شهما لا يرضى ارتكاب هذا العار ، ولكنه أحب الفتاة منذ رآها ، وزاد تعلقا بها لانه تعب في انقاذها فشق عليه التخلي عنها . فأطرق هنيهة ثم رفع رأسه وعلى وجهه دلائل البشر وقال : «صدقت ايها الامير ان اتخاذ هذه الفتاة سبية يعد غدرا وخيانة ، ولكنني احببتهـــا ، ولا يمكنني التنازل عنها فليزوجني الكونت اياها بشرع الله . فهل له بعد ذلك عذر ؟»

فالتفت طارق الى يوليان كأنه يستطلع رأيه فقال يوليان : «ان الفتاة مخطوبة وهذا خطيبها» وأشار الى الفونس .

فقال بدر : «لا يهمني ، فان الخطبة يسهل حلها» .

فحمي غضب يوليان لهذا الجدال وضاق صدره فقال : «لقد أمللت الكلام بلا طائل ! ان ابنتي مخطوبة وهذا خطيبها . وهب انها غير مخطوبة فلا نصيب لك فيها» .

فوثب بدر ويده على قبضة حسامه وقال : «انها سبيتي في ساحة الوغى ، اخذتها بحد هذا السيف ، فلا أتخلى عنها لاحد ولو كان امير المؤمنين ، الا ان يأخذها مني بالسيف كما اخذتها» .

وكان سليمان يترجم لالفونس وأوباس كل ما يدور من الجدال ، فلما بلغ الى طلب المبارزة وقف الفونس ويده على قبضة سيفه وقال :

«انا أولى الناس بمنازلة هذا الشاب ، وكلانا طالب ، فأينا غلب فهي له !»

فوقف يوليان وأمسك الفونس وهو يقول : «بل انا أولى بذلك منك فاذا قتلت هذا الغلام فقد أنلته الجزاء الذي يستحقه ، وان قتلني فموتي خير من وقوعي في مصيبة ثانية شر من مصيبتي الاولى . ولا طاقة لي على احتمال الاثنتين معا» . قال ذلك وتقدم ويده على قبضة حسامه ، فسبقه بدر واستل الحسام فناداه طارق فلم يصغ ، ونادى واباس يوليان فلم يطعه لانهما خرجا من طور التعقل لشدة الغضب ، وأقسم كل منهما انه لا يرجع حتى يقتل صاحبه او يقتل هو ، فعلا الضجيج في الخيمة ويعقوب وسليمان في ناحية منها يتساران !

وبدأ بدر فأطلق حسامه على يوليان بعزم شديد ولولا عمود الخيمة لقتله لا محالة ولكن السيف غاص في العمود ووقف فيه وتصدعت يد بدر لشدة الصدمة ولم يعد يستطيع اخراج السيف من العمود فاغتنم يوليان انشغاله بذلك وانقض عليه انقضاض الصاعقة ، فخاف طارق على بدر فصاح في يوليان فلم يصغ له ، وفعل ذلك ايضا اوباس ويوليان لا يبالي. فوثب طارق للفصل بينهما بالقوة ، فرأى سليمان التاجر قد سبقه وتوسط بينهما وأمسك زند يوليان وهو يقول : «تمهل يا كونت بحياة طوماس !»

ولم يكد سليمان يتلفظ بذلك الاسم حتى رمى يوليان السيف من يده واستلقى على الارض وأخذ في البكاء ، فبغت الجميع حتى بدر ، والتفتوا الى سليمان كأنهم يستفهمون عن السبب ، فأشار اليهم ان يصبروا فوقفوا جميعا ، وتقدم سليمان الى يوليان وأمسكه بيده ، وجعل يخفف عنه وهو مستغرق في البكاء . ثم التفت هذا الى سليمان وقال : «لماذا اذكرتني بهذه المصيبة يا سليمان ؟»

فقال : «وهل كنت ناسيا اياها ؟»

قال : «كلا ولكنني لم أسمع هذا اللفظ منذ أعوام ، ولو لم تحلفني

به لكنت قضيت على هذا الغلام وخلصت من وقاحته وحماقته !»

قال : «لا تبالغ في شتمه وانظر الى وجهه وتفرس فيه ، فانك تذكر به حبيبا تحبه وتتوهم انك فقدته وهو حي بين يديك !»

★ ★ ★

فلم يفهم يوليان مغزى الاشارة ، وكان قد جلس وتحول غضبه الى حزن . وظل اوباس وطارق وألفونس واقفين وقد علتهم البغتة مما شاهدوه ، وهم ينتظرون ما يقوله سليمان . فلما سمع يوليان اشارته تنبه وتفرس في سليمان ليرى هل هو يقول الجد او يهزل ، فرأى الجد باديا في كل جارحة من جوارحه . وقبل ان يقول كلمة نهض سليمان والتفت الى الحضور وأشار اليهم ان يقعدوا ليسمعوا حديثا يريد ان يقصه عليهم فقعدوا الا بدرا ، فانه اغتنم فرصة اشتغالهم وخرج لاستبدال سيفه استعدادا لمنازلة يوليان ثانية . اما سليمان فقعد وقال : «اسمعوا أقص عليكم سرا حفظته منذ أعوام وفيه موعظة وحكمة» . وأخذ يقص حكايته بالقوطية ويترجمها الى العربية . قال ووجه خطابه اولا الى اوباس :

«لا يخفى على مولاي الاسقف ما قاساه اليهود في اسبانيا من ظلم حكامهم القوط من صنوف الاضطهاد والجور حتى اجبروهم اخيرا على النصرانية او يرحلوا من بلادهم ، فكان منهم من رحل ومنهم من تظاهر بالنصرانية وبقي في البلاد يسعى الى افساد امرها على الحكومة. ولا اخفي عليكم اني احد هؤلاء المتنصرين وقد قضيت مع الكونت يوليان أعواما وهو يحسبني نصرانيا ، والحقيقة اني لا ازال على دين آبائي وأجدادي . وأظن مولاي الاسقف يعلم ان يعقوب (وأشار اليه) حبر من أحبار اليهود وغني من كبار أغنيائهم ، قد تظاهر بالنصرانية وأدخل نفسه في خدمة البلاط الملوكي من ايام غيطشة المرحوم ، وسعى لديه في رفع

الضغط عن اليهود ، وكاد ينجح لو لم يحل دون ذلك أجل غيطشة • فلما تولى رودريك عاذ الضغط الى ما كان عليه ونحن نعقد الجمعيات السرية ونبذل الاموال في مقاومة هذه الحكومة الظالمة وهدم أركانها • ولم نكن ندخر وسعا في معاكستها ومعاكسة رجالها من الكوتيـــة او القواد او غيرهم ، ولكننا لم نكن نستطيع ذلك جهارا فكنا نفعله سرا • وأتيح لي بعد تظاهري بالنصرانية الرحلة الى الآفاق فنزلت سبتة منذ بضعة عشر عاما وتقربت من حضرة الكونت وبذلت ما في وسعي لاكتساب ثقته ، ففزت بذلك وصرت أتردد على منزله كواحد من اهله ، وكان له ولدان احدهما انثى وهي فلورندا ، والثاني ذكر اسمه طوماس • واتفق في اثناء ذلك ان الحكومة جددت اضطهاد اليهود ، وأتتنا التعليمات السرية ان ننتقم لهم بأي وسيلة كانت • فتهيأ لي ان أحرم الكونت أعز ولديه وهو الصبي ، ولم تسمح نفسي بقتله فاحتلت في سرقته وحمله معي في اثناء أسفاري الى بعض قبائل البربر وبعته لاحد كهنتها الوثنيين بيعا رخيصا، ولم أقل له من اين اتيت به ، فاشتراه ثم سلمه الى زياد والد الامير طارق فرباه مع اولاده • فشب الغلام لا يعرف والده ولا احد يعرفه سواي ، وسموه بدرا لبياضه وهو هذا الشاب الذي بين يديكم • وبما ان الكونت يوليان قد انقلب على حكومة القوط الان ونصر اعداءهم حتى اصبح من أنصارنا ، فلذلك وجب علينا اطلاعه على هذا السر !»

وكان سليمان يتكلم وهم يتطاولون بأعناقهم خصوصا يوليان فقد حسب نفسه في حلم ، وكان وهو يسمع الحديث يبحث ببصره عن بدر في جوانب الخيمة وقلبه يخفق • وكانت الشمس قـــد غابت وأظلمت الخيمة وأحس طارق من تلك الساعة كأن غشاوة قد أزيحت عن عينيه اذ عرف اصل هذا الغلام والتفت ونادى «بدر !» فلم يجبه احد ثم انشق باب الخيمة ودخل بدر وقد بدل سيفه •

فلما رآه يوليان وثب وهو لا يدري ماذا يقول ونادى : «طوماس ! طوماس !» • وهرع نحوه ، فلما رآه بدر مسرعا اليه تراجع ويده على قراب سيفه كأنه يهم ان يضربه به ، فوقف سليمان وقال : «تعال يا بدر وقبل يد الكونت ودعه يقبلك فانه ابوك !»

فبغت بدر وحسبه يهزل حتى تقدم اليه طارق وقال له : «نحمد الله انك وجدت أباك ، وقد كنا منذ عرفناك ونحن نتساءل عنه» • فنظر بدر الى طارق وهو يقول : «الكونت يوليان ابي وفلورندا اختي ؟ من اين اتت هذه القرابة ؟»

وكان يوليان في اثناء ذلك واقفا امام بدر وهو يتفرس فيه على نور الشفق ، ثم جاءوا بمصباح تناوله يوليان بيده وجعل يتفرس ببدر ويتأمل ملامحه ومعاني وجهه فتذكر بعد قليل ان لتلك الصورة شبها في ذهنه ، فثار الحنو في قلبه فأكب على بدر وضمه الى صدره وجعل يقبله ويتنشق ريحه ويبكي بكاء الفرح ، والناس وقوف وما فيهم الا من تحركت عواطفه لذلك المنظر الغريب ، ولم يتحقق بدر انه في يقظة الا بعد قليل فقبل يد والده ووقف كأنه أصيب بالجمود !

مضت دقائق قليلة وأهل الخيمة يتبادلون عبارات الاستغراب ويحمدون الله على نجاة بدر من سيف والده بفضل سليمان • ثم التفت اوباس وهو لا يزال الى ذلك الحين مكشوف الرأس محلول الشعر كما جاء وقال لطارق : «يأمر الامير طارق حفظه الله ان تأتي ابنتنا فلورندا الى هنا ليتم التعارف» •

فقال طارق : «وأين هي فلورندا يا بدر ؟» • قال : «هي في خيمتي» فأمر سليمان ان يأتي بها •

وكانت فلورندا بعد ان جاءت تلك الخيمة قد اصلحت من نفسها وهي تتوقع ان يأخذوها الى ابيها فلما ابطأوا طلبت من الحراس ذلك فلم

يفهموا مرادها على انهم أفهموها بالاشارات انها لن تبرح الخيمة ، فمكثت ومعها خالتها الى العشاء اذ جاءها سليمان فلما رأته استأنست به وهشت له وقالت : «اين والدي ؟. اين الفونس ؟»

فضحك وقال : «ان والدك مشتاق الى رؤيتك وسترينه قريبا ، وأما الفونس فلا أرب لك فيه بعد الان لان الفارس العربي الذي انقذك من يدي رودريك لم يقبل الا ان تكوني له عروسا !» . فبغتت وقالت : «وهل قبل والدي ذلك ؟» قال : «وماذا يفعل ؟» . قالت : «وألفونس كيف فعل ؟. لا أقبل احدا غيره. يظهر يا سليمان انك تمزح» .

قال : «تعالي وانظري مجلس ذلك الشاب من ابيك» .

فخرجت فلورندا وخالتها بجانبها ومعهما سليمان حتى اقبلوا على خيمة طارق ، فدخل سليمان وأشار اليهم ألا يتكلموا فدخلت فلورندا والبغتة غالبة على فرحها بلقيا والدها ، فسبقها سليمان الى بدر وأخذه بيده وجاء به اليها وقال له : «قبل فلورندا يا بدر !»

فأجفلت هي وتراجعت فصاح بها ابوها : «قبليه يا فلورندا !»

فلما سمعت ذلك وتحققت ان أباها اراده لها زوجا حولت وجهها عنه وأخذت في البكاء وهي تقول : «لا . لا حاجة لي بذلك» .

فوقف عند ذلك يوليان وضم ابنته بيمينه فقبلت يده وقبلها ، ثم ضم بدرا بيساره وقبله وقال : «قبليه يا فلورندا . انه اخوك طوماس الذي فقدناه منذ بضعة عشر عاما» .

وكانت فلورندا تسمع وهي طفلة انه كان لها اخ وضاع وقطعوا الامل من حياته ، فلما قال لها ابوها ذلك تفرست في بدر وهي لا تعرف صورته وما زال الخجل يمنعها من تقبيله ، حتى نهض اوباس وناداها فأجفلت لانها لم تكن تتوقع ان تسمع صوته هناك والتفتت فلما رأته هرولت اليه وأكبت على يده فقبلتها والعبرات تتسابق الى عينيها وهي لا تعلم ماذا

تقــول .

اما هو فباركها وقال : «نحمد الله على سلامتك وعلى وجود اخيك بعد ان قطع الامل من لقائه ، ونحمده على التقائك بألفونس ونجاتك من الشراك » .

فتصدى الفونس وقال : «ان نجاتها يا عماه يرجع الفضل فيها اليك وحدك ، فانك بركتنا ونعمة من الله لنا» . واختنق صوته ، فتنهد اوباس وقال : «يا ليتني استطعت ما أتمناه . ولكنني لو استطعته ما التقى بدر بأبيه وأخته ،ولا التقيت انت بخطيبتك . المرء يسعى في سبيل ، والله يدبر من سبيل اخرى . هذه ارادة المولى فما علينا الا ان نشكر الله على ما وقع » .

وكانت الخالة العجوز واقفة فلما قيل لها انهم وجدوا طوماس ودلوها عليه ضمته الى صدرها وقبلته وسلمت على يوليان وألفونس ، ثــــم تناولت يد اوباس فقبلتها وقالت له : «بقي امر لا يتم سرورنا الا به ، ولا يقدر عليه سواك» .

قال : «أظنك تعنين زفاف فلورندا الى الفونس ؟ وهذا واجب علي لاني واضع عربون الخطبة فامهليني الى مساء الغد» فلم تستطــــع الاعتراض .

ثم وقف طارق وقال : «يسرني ان يتم لكم هذا الاجتماع في يوم نصرنا الله فيه ، وأنتم منذ الان في ذمتي فتقيمون حيثما تشاءون آمنين مطمئنين مكرمين ، انتم ومن يلوذ بكم» .

وقضوا برهة يتحادثون في شؤون مختلفة وعينا فلورندا لم تنتقلا عن عيني الفونس ، ناهيك بما دار بين العيون من الحديث الخفي ، حتى اذا انقضى هزيع من الليل قال يوليان : «هلم بنا ننصرف الى مراقدنا فاننا نحتاج الى الراحة بعد ما قاسيناه من العناء في اثناء النهار» . قال ذلك

وخرج فتبعه اوباس وألفونس وفلورندا وبدر ، ودل يوليان كلا منهم على مكان ينام فيه • وتذكر الفونس يعقوب فبحث عنه فلم يره بينهم فظنه ذهب للمنام في بعض الخيام •

* * *

باتوا تلك الليلة ولا نظنهم استطاعوا رقادا لفرط تأثرهم من ذلك الملتقى الغريب ، ولما اصبحوا احب اوباس ان يشرف على تلك الموقعة ثم يمر بين المعسكرين ليعلم من مات من كبار الدولة ومن هرب ، فمشى ورافقه يوليان وبدر وألفونس ، فرأوا الجثث مبعثرة هنا وهناك ، وعرفوا من القتلى جماعة من القواد في جملتهم كوميس فأسفوا عليه اسفا شديدا • ثم مروا بخيمة الملك فرأوا بالقرب منها الاب مرتين مجندلا فلم يشأ اوباس ان يتفرس فيه ، ولما عادوا من ذلك الطواف طلب اوباس من طارق ان يأذن لهم بنقل بعض الجثث للصلاة عليها ودفنها ، فأجابه الى طلبه فنقل جثث القواد وجثة مرتين وصلوا عليها ودفنوها • فلما رأتهم فلورندا يدفنون الموتى ذهبت الى اوباس وأخبرته بمقتل اجيلا وشانتيلا وطلبت اليه ان يصلي عليهما ويدفنهما ، فأجابها الى ما طلبت وقد اسف لمقتلهما ، فدفنهما ودفن معهما من قتل من اولاد الشيخ صاحب الكرم • ولما اخبرته بما كان من دفاع الشيخ وأولاده عنها اوصى طارقا به وبأهله خيرا •

ولما غربت الشمس تهيأ الفونس لعقد اكليله على فلورندا في خيمة يوليان فاحتفلوا بذلك على ابسط الطقوس وقلوب الجميع تطفح سرورا لذلك اللقاء ووجوههم تبتسم ، الا اوباس فانه ما زال ساكنا كعادته لم يتغلب عليه فرح ولا حزن • وبعد تمام الاكليل سألهم اوباس عن المكان الذي يفضلون الاقامة فيه فقالوا : «حيثما تريد انت» • فقال : «اما انا

فاتركوني وشأني» .

فقالوا : «كيف نتركك وأنت حكيمنا ومرشدنا ؟»

قال : «لو كنت كذلك لنفعتكم . انني سأقضي بقية هذه الحياة في العبادة والصلاة منقطعا عن هذا العالم فقد رأيت من شروره ما كفاني . وهل أتوقع ان ارى بعد هذه الواقعة غير ما يزيد اسفي ويضاعف حزني، وأنا لا استطيع العمل بما يدعوني اليه ضميري ويستحثني عليه الواجب ؟ فالاولى بي ان اقضي بقية هذه الحياة في مكان لا ارى فيه بشرا ، ولا يراجعني احد منكم في ذلك» .

فلم يستطع احد ان يراجعه الا رجل تصدى له من جملة الحضور وقال : «وأنا اين أذهب ؟»

فتوهم الفونس انه يسمع صوت يعقوب ولكن القيافة غير قيافته . اما اوباس فعرفه فقال : «هذا يعقوب قد وفى نذره وأصلح لحيته واغتسل ! »

فتذكر الفونس شيئا من ذلك منذ اجتمع بعمه في طليطلة ، فنظر الى يعقوب فاذا هو حسن الهندام وقد اصلح لحيته وتزيى بزي حاخامي اليهود تماما فقال له : «ما ذلك يا يعقوب ؟»

قال : «قد آن لي وفاء النذر والتحرر من ربقة الذل ، اذ اصبح الناس بعد هذا الفتح احرارا يتبع كل رجل دينه . وأنا يهودي جنسا ودينا ، فأحب الرجوع الى مذهبي ، فأصلي في كنيستي وأقرأ في كتابي » .

وباتوا تلك الليلة فلما اصبحوا لم يجدوا اوباس في خيمته ولا في سائر المعسكر ولا عثروا عليه من ذلك الحين . فعلموا انه ذهب للتنسك كما قال .

وأما الفونس ويوليان فظلا عونا لطارق وجنده حتى أتم فتح

الاندلس ، وقلما لاقى مشقة بعد تلك الواقعة الا في استجة فانهم ساروا اليها توا بعد واقعة شريش وحاربوها حربا شديدة ، فلما فتحوها وقع الرعب في قلوب الناس وهربوا الى طليطلة فأشار يوليان على طارق ان يفرق جيوشه في مدائن الاندلس لان الناس أخلوها وساروا الــــى العاصمة ، فبعث جيشا الى قرطبة ، وجيشا الى غرناطة ، وجيشا الــى مالقة ، وجيشا الى تدمير ، وسار هو ومعظم الجيش الى طليطلة فوجدها خالية لان اهلها لحقوا بمدينة خلف الجبل . اما الجيش الذي سار الى قرطبة فقد دلهم راع على نفق دخلوا منه البلد وملكوه . والذين قصدوا تدمير فتحوها بالسيف وفتحوا غيرها من المدائن . اما طارق فلما رأى طليطلة فارغة ضم اليها اليهود وترك معهم رجالا من اصحابه وسار في اتمام الفتح كما هو مفصل في كتب التاريخ .

سلسلة روايات تاريخ الإسلام

تأليف جرجي زيدان

١ - فتاة غسان
٢ - أرمانوسة المصرية
٣ - عذراء قريش
٤ - ١٧ رمضان
٥ - غادة كربلاء
٦ - الحجاج بن يوسف
٧ - فتح الأندلس
٨ - شارل وعبد الرحمن
٩ - أبو مسلم الخرساني
١٠ - العباسة أخت الرشيد
١١ - الأمين والمأمون
١٢ - عروس فرغانة
١٣ - أحمد بن طولون
١٤ - عبد الرحمن الناصر
١٥ - فتاة القيروان
١٦ - صلاح الدين الأيوبي
١٧ - شجرة الدر
١٨ - الانقلاب العثماني
١٩ - أسير المتمهدي
٢٠ - المملوك الشارد
٢١ - إستبداد المماليك
٢٢ - جهاد المحبين